عمار علي حسن

رواية

ملحمة المطاريد

الجزء الثاني

الدار المصرية اللبنانية

حسن، عمار علي.
ملحمة المطاريد: رواية / عمار علي حسن. – ط1.–
القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، 2025.
280 مج 2؛ 20 سم.
تدمك: 7 – 502 – 795 – 977 – 978
1– القصص العربية.
2– الملاحم العربية.
أ – العنوان. 813
رقم الإيداع: 29086 / 2024

©

الدار المصرية اللبنانية
16 عبد الخالق ثروت القاهرة.
تليفون: 23910250 202 +
فاكس: 23909618 202 + ص.ب 2022
E-mail:info@almasriah.com
www.almasriahbookstores.com

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة

الطبعة الأولى: 2025م.

تصميم الغلاف الفنان: أحمد فرج

تعبر الآراء الواردة في هذا الكتاب عن آراء المؤلف
وليس بالضرورة أن تعبّر عن آراء الدار

جميع الحقوق محفوظة للدار المصرية اللبنانية، ولا يجوز،
بأي صورة من الصور، التوصيل، المباشر أو غير المباشر، الكلي أو الجزئي، لأي مما ورد في هذا المصنف، أو نسخه، أو تصويره، أو ترجمته أو تحويره أو الاقتباس منه، أو تحويله رقميًا أو تخزينه أو استرجاعه أو إتاحته عبر شبكة الإنترنت، إلا بإذن كتابي مسبق من الدار.

نَجْعُ بَخر

(1)

تضيق أرض الله على وسعها بمَن لا يعرف إلى أين يذهب. لا وطن لمُطارد إلا ما في جيبه. الهارب قد يثقله الخوف على مَن معه، أكثر من ذلك الذي يسري في دمه. لكن كيف لرجل أن يرى وجهه في مرآة أو بئر عميقة، إن تخلى عن أهله؟

(2)

لم يُبلغ «مهدي» بقية رجاله بما جرى، فهم مثقلون بزوجات وعيال، وخروجهم جماعة سيلفت النظر إليهم، وقد يبلغهم الجُند قبل أن يخرجوا من «قنا» كما دخلوها ذات يوم بعيد. كانت الحسرة تسكنه على نذالة اضطر إليها، لكن ما عساه أن يفعل، والوقت ضيق، وقال لنفسه، وهو يجمع في سرعة خاطفة ما في بيته من مال، ليس بالكثير: «إن جاك الطوفان حط ابنك تحت رجليك».

لكنه لم يترك ابنه وزوجته، وكذلك أخاه وأسرته. هم فقط ومعهم «سبعاوي» الذين هربوا بصحبته. كان الأخير قد رفضت زوجته وأبناؤه القدوم معه يوم ذهب لاستصحابهم كبقية الرجال إلى الجبل، فسهل هذا لـ «مهدي» أن يتركه يرافقهم.

خرجوا من «قنا» متوجهين جنوبًا، يرتدون زي الأزاهرة، الذي كان يُباع في دكان الأقمشة. قفطان وعمامة بيضاء أوسطها قرمزي داكن. اقترح «خير الله» هذا، وقال لـ «مهدي» وهو يخطف اللباسين من الدكان: تغيير هيئتنا سيُسهل هروبنا.

كان الفيضان قد أتى غامرًا، فحال بينهم وبين العبور إلى الشرق. نظر «خير الله» إلى الماء الذي يجرف أمامه كل شيء، وقال: حتى النهر غاضب منا. وابتعدوا نحو الجنوب الغربي، فلما اقتربوا من رمل الصحراء، قال «خير الله»، وهو يشير نحو الجنوب: هناك بيوت ونخيل، نذهب لنتزود بالماء والطعام.

في الطريق إلى ما رأوه، قابلوا فلاحًا يمتطي حماره، فسألوه: أي بلد هذا؟

توقف ونظر إليهم مليًا، ثم قال: نجع بحر.

وبلغ خبر دخولهم النجع، الذي ترامت بيوته بين الزرع والرمل، «شيخ البلد» فأرسل خفيره يدعوهم لبيته، فقال له «مهدي»: نريد شراء طعام وقِرَب ماء من بلد الكرام.

رمى الرجل بصره نحو الصحراء، وأجابهم: لا يدخلها أحد لا يعرفه شيخنا «مرعي عبد الصمد»، هذا سلو يجري بينه وبين العربان.

وصلوا بيت «مرعي» والشمس تميل إلى الغروب. دخلوا إلى مندرة الضيوف، وجلسوا يتبادلون النظرات، ثم حط نظر «خير الله» على تمثال واقف في الركن، لرجل أسمر فارع الطول، يمد بصره إلى البعيد، وعلى شفتيه ابتسامة عذبة.

دخل عليهم «مرعي» مرحبًا، وقال: أهلًا بضيوفي الكرام.

وتطلع إلى ما يرتديه «مهدي» و«خير الله»، وقال: مقدور لهذا البيت أن يدخله الأخيار.

جاء الخدم بصوانٍ مرصوصة فوقها أكواب الدوم والخروب

والعرقسوس، مدوه إلى الجالسين، فأخذ كل منهم ما يريد. راحوا يشربون على مهل، و«مرعي» يتطلع إليهم صامتًا. ثم قطع الصمت سائلًا: من أي بلد أنتم؟

همّ «خير الله» أن ينطق، لكن سبقه «مهدي»، وقال، وهو يشير إليه: ذرنا في بلاد كثيرة نعظ الناس ونعلمهم، وللأمر نفسه سنقطع الصحراء إلى الواحات، فهناك طلبة علم ينتظروننا.

ابتسم «مرعي» وقال وهو ينظر إلى الزي الأزهري للرجلين: خيركم مَن تعلم العلم وعلمه. ثم ضحك فبانت ثناياه التي ضرب السوس بعضها، وقال: حفظتها من شيخ الجامع.

هزا رأسيهما في امتنان، وهما يشعران بأنهما قد قطعا أول خطوة في طريق الأمان. لكن «مرعي» فاجأهما بسؤاله: كيف تُتركان هكذا بلا حراسة أو مؤونة أو خيل أو جِمال تعينكما على بلوغ الواحات البعيدة؟

لكن «مهدي» وبخبرة رجل عرك كيف ينجو من المزالق قال: أعطينا مالًا لهذا، وقيل لنا أن نتزود بما نريد من نجعكم.

تاه «مرعي» قليلًا، وقال: طلبكم مُجاب، لكنكم في حاجة إلى ونس ودليل.

أشار «مهدي» إلى «سبعاوي»، الذي كان يتابع الحديث صامتًا، وقال: البركة في الرجل، يعرف الطريق.

قهقه «مرعي» وقال: إنها مئات الأميال، لا تخلو من الوحوش والثعابين السامة، وقطاع الطرق، وهؤلاء أوعر.

ثم صمت برهة، وقال: تبيتون الليلة عندي، وفي الصباح يكون كل ما تحتاجون جاهزًا.

وجاء أحد الخفر، وهمس في أذن «مرعي» فقال: ليأتِ على الفور.

دخل عليهم رجل طاعن في السن، يتوكأ على عصاه، جال ببصر كليل في الوجوه، وقال: لا يخلو بيت شيخنا أبدًا من الطيبين.

قدمه إليهم «مرعي»، قائلًا: جدنا جميعًا «بدران أبو الفيض»، كسر المائة عام، لكن ذاكرته على حالها.

ثم نظر إلى التمثال، الذي كان بصره ممدودًا إلى عيني «مهدي»، وقال: لولا العم «بدران» ما عرفنا شيئًا عن صاحب هذا التمثال.

ضحك «بدران» عن أسنان مثرمة، تحط على أطرافها زرقة، وقال: كلما أتى إلينا أحد، طلب مني شيخنا أن أحكي له ما كان في الزمن البعيد.

(3)

حكاية غريبة، تناقلها الناس في النجع، وأضاف إليها كل جيل من عنده الجديد، حتى استوت أسطورة بازغة. ظلت تجري على الألسنة بلا انقطاع، في الحقول وقت الكدح، وفي رحلات الصحراء بين حين وآخر، وعلى مصاطب السمر في الصيف والربيع. تغنّى بها القوّالون في البلاد، ونسجوا حولها الأشعار والأمثال والمواويل.

(4)

أغمض «بدران» عينيه ليرى، فانهمرت الحكاية من جوف زمن

بعيد. رأى رجلًا رائق السمرة، بصحبته امرأة مخبوء جسدها الليّن في ملاءتها، لها عينان نجلاوان كحيلتان، قادرتان على الفتك بكل مَن ينظر إليهما مرة واحدة.

الرجل كان يُقال له «بحر» والمرأة اسمها «سابا»، ظُلم الرجل في بلد بعيد، أبعدوه عمّن يعشقها، فوجد نفسه مع مَن تعشقه. خرج بلا مال ولا جاه، محتارًا في اختيار الطريق. لكنّ هاتفًا ناداه، وهو يهم ليركب النهر إلى الشمال، أن يتوجه إلى الجنوب، فهناك مَن ينتظره. كان صوتًا جليًا جليلًا، يُقال إنه قد سمعه كأن مَن أطلقه يقف إلى جانبه، فحدثه كما يُحدث الصاحب صاحبه، حتى إن «سابا» ظنت به الجنون. قال لها، وهو ينظر إلى السماء الطليقة: نوديت وسأستجيب. صرخت يومها، وقالت: سمعت في بيت سيدي «درويش» أنكم «آل بخيت» يمسكم الجنون في أيام الخوف والحيرة.

لم يرد عليها، وقال: الزوجة تكون حيث زوجها.

وكانت قد استملحته حين اختلت به في الزاوية، ضربها العشق من الوهلة الأولى، فسارت خلفه مطيعة، يبحثان عن مركب ذاهب إلى حيث سمع النداء. لم تسأله عن المكان الذي يقصده، حتى استويا في المركب، فقال لها: سأشكو مذلتي إلى الشيخ «القناوي».

لم تكن قد سمعت به من قبل، لكنها أكبرته حين رأت مقامه البهي. فلمّا انتهت الزيارة، أخذها إلى الساحة الوسيعة التي يطل عليها المقام. جلسا متجاورين، والجوع يأكلهما، فمر بهما بهلول رث الثياب، يطوق عنقه بعقود من الخرز الملون. مد إليهما كفين مملوءين بالتمر، وقال: لا يجوع مَن قصدنا.

أكلا التمر، فشعرا بشبع، لا يأتي إلا لمَن التهم خروفًا كاملًا. داهمهما الليل، وضرب النعاس «سابا»، فجعلها تضع رأسها على فخذ «بحر» وتنام. أما هو فظل ساهرًا حتى أذان الفجر. قام وصلى في المسجد جماعة، ثم صلى ركعات وركعات، وأطال في سجوده، حتى انبلج الصبح، فلمّا خرج، وجدها تقبض في يدها على شيء. سألها، فسكتت، فألح في السؤال وأبلغته أن سيدة جاءت وسط حرس مهيب، وأعطتها ما في يدها.

اكتسى وجهه بالغضب، وقال لها: لا أكسب طعامي إلا من عرق جبيني.

وزع المال على أول فقراء صادفهم، وما أكثرهم حول المقام. دعا مَن أخذوا صدقته له بالبركة في الصحة والرزق والذرية، وهو يردد خلفهم في خشوع: آمين.. آمين. كان أول ما يفكر فيها أن يكتري غرفة يسكنها وزوجته، لكن من أين له بثمن ما يريد؟

طلب من رجل لاقاه على أول الشارع المؤدي إلى المقام، فأشار بيده إلى فندق قريب. مشى نحو الفندق، وقال لصاحبه: أريد غرفة وأعمل هنا لأسدد ثمنها.

ملأ صاحب الفندق عينيه منه، فوجده قويًا متينًا، فاستأجره، لكنه قال له: ثمن الغرفة هنا أكبر من أجرك.

واصطحبه إلى بيت خفيض في الحارة الخلفية، كانت تحط على سطحه غرفة ضيقة من خشب، تكون لينة في الصيف، حين يتسلل الهواء من فتحاتها، لكنها في الشتاء تصير كتلة من ثلج. لم تتذمر «سابا» من البرد، فقد كان «بحر» يدفئها بمحبته.

مع الأيام وثق صاحب الفندق بأجيره «بحر»، وجده قويًا أمينًا، فأسند إليه شراء ما يحتاجه الفندق من خضار وفاكهة ولحم وأثاث ومفروشات وشراب، فزاد رزقه، وصار قادرًا على أن ينقل «سابا» إلى غرفة تصد الريح، أنجبت «سابا» فيها «هلال».

كان «بحر» قد عرف كيف يسوس الناس جيدًا، وقت عمله في التزام سيده قبل خروجه من بلده تاركًا أهله خلفه عاجزين عن حمايته. استطاع أن يسكن رأس صاحب الفندق، فترك له أمر إدارته. أوغر هذا عليه صدر مَن سبقوه في العمل، فدبروا له ما لم يحسب له أبدًا. غافلوه وجلبوا إلى الفندق ساقطة، بعد أن أعطوها ما طلبت. أدخلوها على رجل غريب اعتاد أن يسكن الفندق كلما جاء لزيارة «القناوي»، فلمّا رآها في غرفته تتلوى وهي تنزع ملابسها، صرخ فيها أن تبتعد، لكنها أقبلت عليه، كأن بينها وبينه ميثاقًا غليظًا، وقالت: أفهمني «بحر» أنك تريد مَن تدفئ لك فرشتك.

راوغها الرجل، وجرى يهبط السلالم الحجرية، قاصدًا غرفة صاحب الفندق. أبلغه بما جرى. أمسك بعض خدم الفندق بها، وقادوها إلى صاحبه أيضًا، فأبلغته أنها أتت إلى هنا بعد اتفاق مع رجل اسمه «بحر». كان مدبرو المكيدة قد جعلوها ترى «بحر» في ذهابه إلى الصلاة وإيابه، فعرفته جيدًا، فلمّا استدعاه صاحب الفندق، أمسكت كتفه، وقالت: هذا مَن اتفق معي، ولا شأن لي.

طردها صاحب الفندق، وخلفها «بحر»، وهو يقول: «تحسبه موسى يطلع فرعون».

ظلمان ثقيلان وقعا على عاتق «بحر»، لكنه كان رجلًا من حديد.

أدرك أن عارًا قد لحقه؛ لأن خبر ما فعل سيسيح في المدينة كلها بألسنة حاسديه. مع هذا لم يغادرها إلا بعد أن ذهب إلى مقام «القناوي» وبكى أمامه طويلًا، وهو يُشهده على طُهره.

كان واثقًا من أن الله سينصفه، فترك «قنا» سائرًا على قدميه، حاملًا طفله على صدره، وخلفه «سابا» تبكي وتقول: مكتوب علينا أن نتشرد في بلاد الناس. انفتح أمامه باب لم يسكن رأسه من قبل. التفت إليها، وقال: في كل مكان هناك الأشرار.

سألته وهي تمسح دموعها بطرف طرحتها السوداء: كيف لا يطولنا شرهم؟

أجابها على الفور: باعتزالهم تمامًا.

كانت معه نقود ادّخرها من كدحه لقابل الأيام. اشترى حمارًا من أول قرية صادفها، واشترى طعامًا وثلاث قِرَب من الماء، وعلفًا للحمار. أركب «سابا» فوق ظهر دابته، وأمامها «هلال»، وسار أمامهما يجره إلى حيث لا يدري. ترك خلفه الزراعات والقرى، وتوغل في الصحراء حتى تعب، فحط رحاله. وسألته: إلى أين نسير؟

أجابها: إن ابتعدنا نفد الماء والطعام، فلنقم هنا.

نظرت حولها فإذا الصحراء موحشة، وسألته من جديد: وإن نفدت النقود؟

رد مغالبًا مخاوفه: سأهبط قرية وأشتري نعجة وخروفًا، وعنزة وتيسًا، ولتبدأ حياتنا الجديدة.

جمع الأحجار، ورصها لتصير عشة صغيرة، وقلّم شجرات رآها على

مقربة منها وفرد فوقها سقفًا. في النهار كان يركب حماره إلى قرية تطل هناك بين الزرع، ليملأ القِرَب، ويشتري ما يحتاجه من طعام.

ضاجع الخروف النعجة. ضاجع التيس العنزة. ضاجع «بحر» امرأته. صار له قطيع من ضأن، وثلاثة أولاد وبنت مع «هلال»، سمى الأولاد «خير» و«بخيت» كما جرت الأسماء في أهله، ثم «غنوم»، وهو اسم رجل عظيم كان صاحب التزام، شميت قريته باسمه، ثم غيرها مَن غدروا به. ورغم أنه أخذ منه حبيبته فإنه لم ينسَ فضله وكرمه، وكان يقول: أسعدها فأسعدني.

أما البنت فحملت اسم «بديعة»، وهو للمرأة التي عشقها، ولأن «سابا» كانت تعرف حكايته أرادت لها اسمًا آخر، ولمّا رأته مصممًا على ما سمّى رضيت على مضض، موقنة أن طريقه إلى معشوقته الأولى قد شد إلى الأبد، ومطمئنة إلى أنه قد عشقها أيضًا، و«الغايب مالوش نايب».

كان جدنا يُقدّس الكد، ولا يستطيع العيش من دونه، فحفر بئرًا بمفرده، وهذا من معجزاته الخالدة. ولأنه كان بارعًا في الفلاحة، زرع لضأنه البرسيم والذرة، وزرع القمح ليتقوت أولاده. كانت مساحة ضيقة حتى لا يلفت الانتباه إليه، فأيامه كما في أيامنا لا تُترك أرض لا يضع أهل الحكم عليها أيديهم.

حتى مَن رأى الزرع من بعيد، ظنه لرجل من العربان، وسناجق المماليك كانوا حريصين على عدم إغضابهم، حتى لا يتحولوا إلى فلاتية، يكرون على القرى وينهبونها، ثم يفرون في صحراء يعرفون دروبها ومخابئها، فلا يمكن تعقبهم.

كان «بحر» حصيفًا، استقدم لأولاده شيخًا من أقرب قرية، ليحفظوا القرآن على يديه، ويتعلموا مبادئ الحساب. طلب من الرجل أن يأتي إليهم بالكتب من دكاكين الورّاقين، فنبت في المكان العلم، كما نبت الزرع، وصار لديه قطيع من الغنم والماعز، واشترى جملًا وناقة، فصار بحوزته، مع الأيام، كثير من الإبل.

في وسط حقله الذي أحسن إليه فأعطاه حصادًا كافيًا، بنى له البناءون بيتًا من الحجر، وأرسل جِماله ونقوده فحملت الخشب إليه من النجارين، وجاءوا ليسقفوا البيت، فجعل لكل ولدين غرفة، وغرفة للبنت بمفردها، ورابعة له ولزوجته.

حين كبر الأولاد، بنى لكل واحد بيتًا، وزوّجه من فتاة مليحة من القرى المجاورة. أنجب أبناؤه عيالًا كُثر. جاء عريس خاطبًا بنته، فاشترط عليه أن يُقيم هنا، وبنى لها بيتًا. صارت البيوت بداية هذا النجع، وتوالت الأجيال، فكبر، وصار أهله أولاد عمومة أو خؤولة، إلى أيامنا هذه.

نظر إلى وجوههم ثم قال: أنا بدران بن أبي الفيض بن رمضان بن عجب بن هلال بن بحر، الذي يعود نسبه إلى «آل بخيت».

قام الرجل يتوكأ على عصاه، حتى بلغ التمثال. مد أطراف أصابعه حتى بلغت رأسه، ثم قال: هذا تمثال جدنا «بحر» صنعه له في آخر أيامه أشهر الفواخرية في «قنا» استجابة لما أراد جدنا «هلال»، وحافظ الأحفاد عليه، حتى وصل إلينا.

ترحم «مهدي» و«خير الله» على الجد الراحل، ثم قال «خير الله»: وراء كل عظيم خطر.

مصمص «مهدي» شفتيه، وقال: الدنيا ضيقة وإن وسعت.

كان يكتم في صدره ما يريد قوله. هو مَن ورث الحكاية الطويلة من «نفيسة»، التي ورثتها عن سابقاتها. يعرف أن جدتهم «بديعة» كانت حريصة على أن تظل الحكاية حية. قيل له إن لها بيتًا لا يزال قائمًا في «الجابرية». هكذا أبلغه الرجل الذي أرسله قبل أن يذهب إلى «خان الخليلي»، وقال: صار مهدمًا، لكن «آل بخيت» يحافظون عليه، كأنه مقام ولي صالح.

تاه «مهدي» في شرود تدفقت فيه أمام عينيه الذكريات، وقال في نفسه: بركات جدنا «غنوم»، لقد كان من نسل المجاذيب.

جاء خادم، وهمس في أذن شيخ البلد، فهز رأسه، ونظر إلى الجالسين، وقال: نأكل لقمة، ليصير عيشًا وملحًا.

وذهبت زوجتا «مهدي» و«خير الله» ومعهما «رابحة» لتناول الطعام مع حريم البيت. جلس «بدران» على صدر مائدة عامرة باللحوم الحمراء والبيضاء والأرز وأصناف من الطبيخ. شمّر الرجال عن سواعدهم، وأقبلوا على الطعام بشهية مفتوحة.

(5)

خصص شيخ البلد ثلاث غرف لمبيت الضيوف، واحدة للرجال الثلاثة، وثانية للولدين، وأخرى للمرأتين والبنت. فلما اختلى «مهدي» بابن عمه «خير الله»، قال له: هل تعرف مَن يكون شيخ البلد؟

هز رأسه، وقال: هممت أن أبلغه، لكني خفت من انكشاف أمرنا، وتركت كل شيء لك.

نظر «مهدي» من النافذة، فإذا بها تطل على الخلاء. زعقت الريح، وثار الرمل قادمًا من الصحراء الواسعة.

نظر إليهما «سبعاوي» محتارًا، لكنه فضل الصمت. ولاحظ «مهدي» صمته، فسأله: هل سبق لك دخول الصحراء الغربية؟

هز رأسه، وقال: لا، لكنني أعرف أنها تختلف عما كنا فيها، أوسع وأكثر خطرًا، والسائر فيها مكشوف لمَن يرقبه.

وضع «مهدي» رأسه بين راحتيه، وأطرق مفكرًا، ثم رفعه بعد قليل. نظر إلى «خير الله»، وقال: ليعرف «سبعاوي» ما يدور في رأسينا، ونُشركه في القرار.

حكى له «مهدي» كل شيء، فعرف «سبعاوي» همزات الوصل بين «الصوابر» و«آل بخيت»، فقال في تأثر: صدفة يخفف الله بها عن المظلومين. نحن تبنا توبة نصوحًا، لكن الأشرار دسوا لنا.

أمسك «خير الله» بالكلمة الأخيرة، وقال: هذا نجع أسسه مظلوم، ولا بد أن كراهية الظلم مستقرة في نسله.

نهض «مهدي» وأغلق النافذة، ليصد الريح والغبار، وقال: يبدو أن الصحراء تُخبرنا بوعورتها.

ظلوا يتداولون الأمر حتى نضح نور الصبح من شيش النافذة، لكنهم ناموا على قرار، ودعوا الله أن يكون الأمان حليفهم.

(6)

طرق خادم أبوابهم عند الضحى، ليستعدوا لتناول الإفطار. كان

«مرعي» شيخ البلد قد جهّز لهم من عنده مؤونة تكفيهم أسبوعين في الطريق إلى الواحات، وأحضر لهم دليلًا يعرفه العربان جيدًا، حتى يضمن لهم حماية. لمّا انتهوا من إفطارهم، طلبه «مهدي» ليجلس إليه على انفراد، ثم نظر إليه، وقال: نجع بحر صار مكان المظلومين.

هز «مرعي» رأسه في امتنان، وقال: لم نفعل سوى الواجب يا فضيلة الشيخ.

ابتسم «مهدي» وقال: ما سمعته أمس عن حكاية جدكم شجعني على أن أبوح لك بسر.

انتبه «مرعي»، وقال: هاتِ ما عندك، فالمجالس أمانات.

انطلق «مهدي» يحكي في وجع وحرقة لا يفارقهما الرجاء. كلما غاص في الحكاية اتسعت عينا الجد «بدران»، فلمّا انتهى، قال شيخ البلد في تأثر: الدنيا فيها العجب.

رد «مهدي» دون أن يزايله التأثر: إن لم تصدقني، ذهبنا في طريقنا، ويكفينا الكرم الذي وجدناه في ديارك.

ابتسم شيخ البلد، ونظر إلى الجد «بدران»، وقال: ورثنا عن أجدادنا كيف نزن كلام الرجال، ولو كنت تكذب ما خفي هذا عني.

ابتلع «مهدي» ريقه، وشعر بأن يدًا تنتشله من الغرق في الرمال الطويلة، وقال: إن بقينا، لن نخذلك، ومعي ما نبدأ به هنا حياة جديدة.

رفع «بدران» يده، وقال: مكتوب منذ زمن بعيد أن نجتمع على خير

في رحاب سيرة الأولين الكرام.

(7)

على طرف النجع بُنيت ثلاث دور، اثنتان واسعتان لأسرتي «مهدي» و«خير الله»، والثالثة ضيقة يقطنها «سبعاوي». وقال «بدران» لأهل النجع، بعد أن عرف أن الرجلين على علم: شيخان جليلان جاءا لتعليم أولادنا كتاب الله.

استعاد «مهدي» ما قرأه في الكتب، واسترجع «خير الله» ما علمه إياه أبوه الأزهري الراسخ في العلم. جيء بأطفال النجع ليجلسوا إلى القراءة والكتابة، لقاء أجر زهيد، يدفعه أهلهم في مواسم الحصاد. قرر «مرعي» أن يجعل من «سبعاوي» عريفًا للشيخين، يحمل الماء إلى زيرين مثبتين خارج باب الكُتّاب، وينظم جلوس الأولاد.

كان أغلب المال قد أُنفق في بناء البيوت وتأثيثها، وما تبقى كاد ينفد في قضاء حاجيات الأسرتين، اللتين تنازلتا عن الكثير من متطلبات عيش اعتادتا عليه، في «قنا» و«خان الخليلي».

أراد «مهدي» توسيع الرزق، فقال لشيخ البلد بعد صلاة الجمعة: لديّ معرفة بوجود الماء في الصحاري، ويمكن أن تتسع الزراعات.

صمت «مرعي» برهة، ثم قال: الصحراء للعربان، ولا بد من استئذانهم على أي حال.

وافقوا على أن يكون لهم نصيب مما تخرج الأرض. انطلق «مهدي» ذات صبح، ومعه الدليل و«سبعاوي»، حتى بلغ مكانًا يبعد عن النجع عشرة أميال وتوقف. نظر حوله فإذا بأحراش تتناثر، وثلاث شجرات

سنط واقفات، ونخلة واحدة تهتز في الريح الخفيفة.

جلس على الأرض، وضرب فأسه ضربات متتابعة، فبانت تحت الرمل الناعم بقعة تكسوها سمرة. طوق دائرة قطرها ثلاثة أمتار بالأحجار، وقال: نحفر هنا. عاد إلى النجع بعد أن وضع علاماته، واصطحب معه رجالًا أمده بهم «مرعي»، وقال: ما أدرانا، فلعل الخير يكون على قدوم الواردين.

حُفرت البئر، وانبجس الماء على مهل. جُهزت حوله الأرض التي كانت في استواء. جيء بحب القمح والشعير، وضعت حبات في كل نقرة، وفوق كل نقرة حطبة تحدد موقعها، وتوالت النقر في سرائب. حمل الرجال الماء في البلاليص من البئر، وسكبوا فوق كل نقرة ما يروي حبها. أعادوا فعل هذا كل يومين، حتى نبت الحب، ولم يمضِ شهر حتى ترامى اللون الأخضر في قلب الصفار الوسيع.

خاف «مهدي» على زرعه من غضب الصحراء المفتوحة إلى بعيد، فطلب من الرجال أن يقيموا سورًا من الجريد والبوص في اتجاه الريح. قلّموا النخيل الواقف في البيوت، وفي شوارع النجع. جمعوا البوص المكدس فوق الأسطح، وفتلوا الحبال. أقيم السور مغروسًا في الرمل، تسنده من الشمال أحجار جمعوها من حولهم.

ولمّا رأى «مرعي» الزرع، نظر إلى «مهدي»، وقال: بقيت خطوة أخيرة.

سأله في لهفة: ما هي؟

أجابه، وهو يشير إلى بعيد: هذه حدود أرض الملتزم «يوسف

الأقصري»، وأخشى أن يطمع في أرضنا.

رد «مهدي» وهو يكتم غضبه: هذه أرض ميتة أحييناها، والشرع يعطينا حق امتلاكها.

قهقه «مرعي» وقال: لا يغيب عن رجل جاء من صلب ملتزمين أفذاذ أنه لا أحد في بلادنا يملك شيئًا.

سكنت الحيرة رأس «مهدي»، وتطلع إلى شيخ البلد، لعله يكون لديه ما يُفيد. صمت «مرعي» برهة، وقال: لهذا سويت الأمر أولًا مع العربان، فهم وحدهم الذين تُركت لهم الصحراء مقابل الطاعة.

واصطحب معه شيخ قبيلة «المرابطين» إلى الأقصري، وترك الرجل يقول له ما اتفقا عليه. فالبئر للعربان، والمال الذي شويّت به الأرض وزُرعت لشيخ البلد، أما الحصاد فللملتزم فيه نصيب. رضي «مهدي» بهذه القسمة، ولم يكن لديه سبيل لرفضها، لكنه كان يتطلع إلى البعيد، ويقول لـ «خير الله»: قد نستعيد على هذه الأرض مكانة أجدادنا.

لم ينسَ كلاهما، أن يُعلّما ولديهما مما تعلما في الكتب وفنون الزراعة، حتى برعا في الأمرين، فأطلقا في نفس الأبوين وعدًا، اكتمل حين أسرّا إليهما بحكاية «الصوابر»، فعرف كل منهما أنه منذور لمهمة، عليه ألا يدعها تغيب عن ذهنه ولو ساعة واحدة.

(8)

لم يدخر «مهدي» و«خير الله» جُهدًا في تعليم أولاد النجع ما تعلماه، ونقل الصغار حبهم للشيخين إلى أهاليهم، فأحبوهما، وكانوا

ينصتون إلى قول «شيخ البلد» عنهما دائمًا: تربطنا بهم صلة قُربى ونسب.

اكتفى «مرعي» بهذا، ولم يبح بما يعرفه لأهل النجع، فهو يدرك أن الرجلين اللذين استجارا به ذات يوم مطلوبان. عوّل على بُعد المسافة، وتوالي الأيام حاملة في طياتها الغفلة والنسيان، واطمأن أكثر حين جاءته الأخبار بأن السنجق الذي كان يسعى خلفهما قد نُقل إلى وجه بحري.

(9)

ذات يوم نظر «خير الله» إلى «مهدي»، وقال: حان وقت رحلة أجلتها طويلًا.

ابتسم، وقال: أوحشتك المحروسة؟

هز رأسه، وقال: أوحشتني، لكن ما أدراني لعل «أبو ضب» لا يزال قابضًا على الفتونة والظلم، أو آلت العصابة إلى أحد رجاله وهم لا يقلون عنه غلظة وبطشًا.

ثم صمت برهة، وقال: إنها رحلة في اتجاه الجنوب.

- إلى أين؟

حكى له عن «عطوة السايح» الذي يستخرج الذهب من جبال الصحراء الشرقية، وقال: باب رزق جديد نطرقه.

لكن «مهدي» الذي علمته الأيام الحذر، سأله: هل أنت مطمئن إلى هذا الرجل؟

- لم أرَ منه إلا كل خير.

أخذ «خير الله» ابنه «أحمد» معه في هذه الرحلة، وركب النهر إلى «أرمنت». كان يحفظ عنوان «عطوة» فطالما ردده بين حين وآخر حتى لا ينساه. بلغ بيته ذات ضحى، طرق، ففتح له خادم، وتطلع إليه، فقال «خير الله»: أريد سيدك «عطوة».

قال الخادم: سيدي ليس هنا.

ظهر من باب جانبي شاب عريض المنكبين، يرتدي جلبابًا خفيفًا، بدت على وجهه آثار النوم، فلما رآه الخادم، مشى نحوه، وهمس في أذنه. هز الشاب رأسه، ونظر إلى «خير الله» وابنه، وقال: تفضلا.

كان «مزيون» ابن «عطوة»، الذي اطمأن إلى «خير الله» حين حكى له عن وقائع جرت بينه وبين أبيه قبل سنين، فقال: حدثني أبي مرارًا عنك، وكثير من ملابس الصوف في سخّارتي، اشتراها من عندك.

ظن «مزيون» أن «خير الله» قد جاءهم ضيفًا، فقال له: لتبقَ ضيفي حتى يأتي أبي.

- وأين أبوك؟

- في الجبل.

- متى يعود؟

- لا أعرف بالضبط.

طلب منه «خير الله» أن يأخذه إلى حيث «عطوة»، فسكت

«مزيون» برهة، ثم قال: الطريق طويل، وهناك قد لا يريحك المكان.

صارحه أن أباه قد عرض عليه مشاركته في استخراج الذهب، وأنه طلب منه مهلة ليفكر، وقد فكر وحسم أمره. ولم يكن «مزيون» يعرف موعد عودة أبيه، ولم يكن أمامه بد من اصطحاب «خير الله» إلى الجبل، فصعد به وابنه حتى بلغ موقع المناجم.

رحب «عطوة» بضيفيه، وقال له وهو يزاور عينيه عنه: عرفت ما جرى لك، حين قصدت دكانك قبل سنوات.

هز «خير الله» رأسه، وقال: نحمد الله على أي حال.

وسأله «عطوة» عن أحواله، ومكان إقامته، فقال: نزلت عند ابن عمي، له أرض يزرعها، وحاله ميسورة.

- وأنت، هل تركت كارك؟

- أشارك ابن عمي الزراعة، وأعلّم الأولاد في كُتّاب النجع.

صمت «عطوة» لا يدري ماذا يقول، فاستدرك «خير الله»: طلبت مني قبل سنوات أن أشاركك، والمال موجود.

تهلل وجه «عطوة»، وقال: أنا عند كلمتي.

ترك «أحمد» في الجبال الخطرة، وقال له، قبل أن يودعه ليجلب المال الذي طلبه «عطوة»: فتح عينيك جيدًا، واحرص على أن تعرف كل شيء هنا.

استقر المقام بالفتى «أحمد» في كار جديد. كان «عطوة» قد جلب رجالًا من السودان والحبشة، واتسع العمل، فصار للصوابر باب رزق

لم يخطر لهم على بال.

(10)

توالت الأيام رخيّة، وحرص «مهدي» على ألا ينسى عادته في ادخار المال، ودفع «خير الله» إلى أن يفعل مثله، فلم يكن في حاجة إلى نصيحة. كان كل منهما يريد أن يترك ذريته أغنياء، بعد أن غرس لها وتدًا عميقًا في هذه التربة الجديدة.

جاء «فخر الدين» يومًا إلى أبيه، وقال: أريد الزواج. كان قد فاتح أمه في هذا الأمر، فلم تدعه يكمل ما يريد قوله، ونطقت عنه: لن نجد له أفضل من «رابحة».

تزوج «فخر الدين» في ليلة بهيجة، مُدّ فيها الطعام إلى أهل النجع، وغنى القوّال على الرباب، فرقص الرجال بالنبابيت، ووسعوا حلقة تحطيب بينوا فيها إتقانهم لهذا الفن البديع. صدح المنشد في حضرة بهية، تطوحت فيها رؤوس الرجال، وألسنتهم تلهج بالذِّكر.

لم تمضِ سوى أربع سنوات حتى كان «فخر الدين» قد رُزق بولد سمّاه «فراس»، وبنت سماها «عزة»، وبعد ثلاث سنوات رزق بولد آخر سمّاه «منصور».

(11)

لاحظ «مهدي» أن حفيده «فراس» قد تأخر في الكلام. نطقت «عزة» حتى صارت تُحسن التعبير عما تريد، بينما أخوها واقف عند حدود الإشارة. كانت هيئته سليمة لا تشي بنقص يعيبه، وطمأنته «كريمة» قائلة: البنات أسرع في الكلام من البنين.

لكن الأيام مضت، و«فراس» واقف عند حاله لا يبرحها. يغمغم ويطوح رأسه كثيرًا، فإن أسنده إلى جدار، راح يضربه فيه، دون أن يشكو من وجع. بدا عصيًا على التعلم، رغم الجهد البالغ الذي بذلته «رابحة» معه كي ينطق، أو يكف عن إيذاء نفسه.

ولمّا صارت «عزة» وردة تتفتح كل يوم، صار مكتوب على «فراس» أن يبقى دون سنه. أدرك كل مَن حوله ذلك بعد أن صار «منصور» ينطق بلسان فصيح.

ملأ «مهدي» ناظريه من حفيده المتأخر في الكلام، وقال: لست قلقًا على أحد في الأيام الآتية سوى هذا المسكين.

وقالت «كريمة»: لا يجب أن نتركه، فإن كان مرضًا فله دواء.

أشار عليهم شيخ البلد بعرضه على المُزيِّن، فتأمله الرجل طويلًا، وقال: عليكم بطهي ألسنة الجديان له، ولكم في بذور اللبلاب دواء.

نفذوا ما قاله المُزيِّن، سنة كاملة دون جدوى، وكلما رآه المُزيِّن، قال: هذه وصفة مجربة، وعلينا الصبر. ثم نصحهم بأن يقطفوا أوراق شجر النبق، ويهرسوها جيدًا، ثم يطبخوها في آنية من فخار، فلما تطيب يبردونها، ويدهنون جسده منها ثلاث مرات، في البكور، وبعد العصر مباشرة، ثم قبل أن يناموا الليل. أخذوا بالنصيحة، وصبروا على تململ «فراس» وهم يدهنون جسده. لكن الشهور كرت، دون أن يروا أي تقدم في حال الولد.

تطرقوا إلى ما فيه «فراس» ذات يوم أمام شيخ البلد، فقال: الحياة مليئة بالأسرار، وأنتم على علم.

كان «فراس» قد نطق، لكنها كانت حروفًا متقطعة، لا تصير كلمات، فلما جاءت الأخيرة، كانت مفردة بلا معنى، ينطقها كالببغاوات مما يسمعه. كانوا مطمئنين إلى سمعه، فهو يهتز إن سمع القرآن يُتلى أو يُرتل، ويتراقص إن سمع عزف الرباب.

أشار عليهم رجل من «آل بخيت» أن يذهبا إلى شيخ في قرية مجاورة اسمه «شمروخ»، يعرف من الغيبيات الكثير. أرسلوا إليه مَن يجزل له العطاء، فجاء عند الظهر، وأخذ «فراس» بين يديه، وتلا على رأسه ما لم يعرفه الحاضرون جيدًا، والولد يتململ بين يديه، راغبًا في العودة إلى ضرب رأسه في الجدار.

قال «شمروخ» وهو يتوه بعيدًا ويعود: تمسك لسانه جنية شريرة. وطلب أن يأتوا إليه من العطار بما يساعده على صرف هذا الشر، فنفذوا ما طلب. أطلق البخور، وتلا التعاويذ، وكتب على جريدة نخل خضراء كلمات وحروفًا، وأمرهم أن يجردوا «فراس» من ملابسه، وراح يضربه على ظهره، ويأمر ماسكة لسانه بأن تخرج من ظفر خنصره، ويصر على طلبه، ويقول إنها تلاوعه وتريد أن تخرج من عينه، ثم أذنه، ثم حلقه، لكنه ظل يأمرها، حتى قال لهم: خرجت الملعونة بعد تعب.

وحين لم يروا تقدمًا في حال «فراس» أشار عليهم بعض الناس بالذهاب إلى الدير، حيث الراهب «باخوم» المعروف عنه القدرة على التعامل مع عالم الجن، وقالوا إنه أخرج منهم الكثير من أجساد نصارى ومسلمين. دخل «مهدي» الدير على فرس، حاملًا حفيده أمامه. سار بين صفوف النخل والرمان وتكاعيب العنب، وهش عن

رأسه نحلًا يدور ثم يعود إلى خلاياه على جذوع الكافور. استقبله الراهب بوجه بشوش، ونظر إلى «فراس»، وقال: ممسوس، وبإذن الرب سينصلح أمره.

قرأ على رأسه آيات من الإنجيل، ثم راح يحدث مَن لم يرَه «مهدي»، وهو يضرب «فراس» خفيفًا على ظهره براحة يده. أتى بقارورة فيها زيت لونه مائل إلى الحُمرة. جرد الطفل من ملابسه. دهن جسده كله، دون أن يتوقف عن قراءة بعض ما يحفظه عن ظهر قلب.

لكن الأيام مضت، دون أن يتغير شيء. يكبر جسد «فراس» لكن طفولته لا تغادره. حين صار ينطق عبارات مفككة يلتقطها من أخته، كان يتحدث كأنه أنثى، فيقول: «أنا عاوزة.. أنا عطشانة». قال الناس: إنه لسان الجنية اللعينة. ولمّا رآه رجل آخر يسمى «فتحي» قصده أهل القرى بعد موت «شمروخ» وكان يفوقه في القدرة على جلب الإيحاء والاستهواء، قال: لطف الله به، وعلم سره، فجعل الجنية التي تسكنه تودع الكفر إلى الإيمان.

سمعه أهل «نجع بحر»، فقالوا: هذه أولى كرامات الصبي «فراس».

كان «فراس» يميل إلى عزلة شديدة في غرفته. ولمّا وجد أبوه الناس يقصدونه لنيل البركة، بنى زاوية على طرف الزراعات، وجعلها له مستقرًا، وأسند إلى «سبعاوي» مصاحبته، فظل يلازمه حتى وجده الناس ميتًا في وسط الزاوية ذات صباح، بينما «فراس» يجلس إلى جانبه، واضعًا يده على صدر لا نبض فيه، ويبتسم.

قبل أن يغادر «مهدي» و«خير الله» الدنيا، بعد وفاة «مرعي»

بتسعة شهور، اتفقا على أن «فراس» ليس سوى واحد من نسل المجاذيب. كان أهل النجع، قد رأوه بركة، وقال بعضهم: زاد الخير في بيوت الواردين كرمًا من الله لأجل هذا الولد الطيب.

ولمّا صارت «عزة» فتاة تنتظر خاطبها، لحقت «كاترين» و«كريمة» بزوجيهما، ودفنتا في قبرين يجاوران قبري رجلين فعلا كل شيء من أجل إسعادهما، وحمايتهما من جور الأيام التي تتقلب بلا هوادة.

استقرت الحال بـ «فخر الدين» وابنه «منصور» في زراعة الأرض، وتربية الماشية والضأن، يشاركهما «منازع بن مرعي»، الذي ورث مشيخة البلد بعد وفاة أبيه. أما «أحمد» فاستقر به المقام في «أرمنت»، وتزوج فتاة اسمها «ناعسة» تأخر حملها سنوات طويلة.

كان «عطوة» قد أوصى ابنه «مزيون» الذي ورث المهنة عنه، أن يجعل قبره قريبًا من المناجم، فبنى له شاهدًا عاليًا، كأنه قُدّ من الجبل، وضع على مقدمته لافتة من رخام أبيض، حُفر عليها اسمه مطليًا بماء الذهب، وفوقه آية قرآنية تقول:

«أُولَٰئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ».

كان «أحمد» يحرص على زيارة ابن عمه في «نجع بحر»، ويرد «فخر الدين» الزيارة إلى «أرمنت»، ويجري بينهما حساب كل عام، لما غلته الأرض من محاصيل، والجبال من ذهب.

ولما اطمأنا إلى الأمان والخير قررا أن يحجا إلى بيت الله الحرام، كما اعتاد الكثير من أجدادهم. ركبا إلى عيذاب، حيث مقام الشيخ

«أبو الحسن الشاذلي» فمكثا عنده يومين، ليعبر بهما مع الحجاج مركب البحر الأحمر إلى «جدة».

وقال «فخر الدين» وهو ينظر في إجلال إلى الغارقين في الذِّكر: حكى لي أبي أن مَن أسس النجع الذي سكنه جدك الكبير كان من أمثال هؤلاء الذاكرين.

هز «أحمد» رأسه، وقال: أبي أيضًا حكى لي هذه الحكاية.

ابتسم «خير الدين»، وسأله: ألم يوصك بشيء؟

أجابه على الفور: أوصاني بألا أنسى «الصابرية».

قهقه «خير الدين» وقال: يضع الرجال بذورهم في أرحام زوجاتهم ليحفظوا نسلهم، أما «الصوابر» فيضعون حكايتهم مع البذرة، بل قبلها.

وشاركه «أحمد» الضحك، وقال: كأنه ثأر.

رد «خير الدين» على الفور: صوروه لنا على أنه ثأر بلا دم.

واتفقا على أن يرسلا إلى «الجابرية» مَن يجمع أخبار «الجوابر»، عملًا بالسنة الجارية في العائلة، حتى لا ينسوا أن في عنقيهما وصية لا يجب أن يُسقطها أو يُبعدها شيء عن الأذهان والوجدان.

(12)

جاءتهما الأخبار أن «عماد» الذي كان طفلًا مؤذيًا، صار شابًا أكثر إيذاءً، ورث الالتزام، ويحرص على المال أكثر من حرصه على نفسه، فصار بوسعه دفع ما عليه للوالي في موعده، ولهذا يتيه السنجق

به على بقية الملتزمين. ورغم أن ظلمه الشديد أدى إلى هروب الفلاحين، أكثر مما جرى أيام أبيه، فإنه لا يعبأ بهذا أبدًا، إذ يرسل من رجاله مَن يستقدمون آخرين، يعطيهم بيوت الهاربين، ويدفعهم إلى فلاحة أرض الالتزام مقابل البقاء فقط على قيد الحياة.

هز «خير الدين» و«أحمد» رأسيهما في أسى لما سمعا. فكراهية الفلاحين للملتزم لا تعني شيئًا طول كل هذه السنين، رغم أنهم هم مَن يكدحون في الأرض، ولولا فؤوسهم وطنابيرهم وشواديفهم ومناجلهم التي تطيعهم طول الوقت، ما كان لأي ملتزم ثروة، وما كان الوالي سيجمع شيئًا، ولا يتلقى السلطان في الباب العالي أو الواطئ مزيدًا من الأموال يرفع به عرشه.

نعم، يأسى رجلان من نسل ملتزم كان يحسن إلى الكادحين في أرضه، ويعتبرهم شركاءه، لكن هذا الأسى لن ينهي التزام «الجوابر» الذين آلت إليهم القرية، فاستقروا فيها، يتقلبون بين قوة وضعف، لكنهم مستقرون في مكانهم، بينما الصوابر مشردون في بلاد الله.

لكن حامل الأخبار ألقى أخيرًا بما جعلهما ينتبهان، وفرحة تسري في أوصالهما، حين قال: ينازع «عماد» على الالتزام أخوه الأصغر «مراد»، والجوابر منقسمون بين الاثنين، لكن الأكبر مسنود من السنجق.

قال «خير الدين» وهو ينظر إلى الرجل في امتنان: تذبل العائلات وتموت من داخلها.

وتدخل «أحمد»: شقاق الأهل كالسوس الذي ينخر الخشب حتى يهوي.

ثم ألقى الرجل لهما بخبر جعل عيونهما تتسع، وعنقيهما يمتدان إلى أعلى، وأنفيهما يسحبان كل ما أمامهما من هواء، لعله يكون مشبعًا بالأخبار المُفرحة أيضًا. قال الرجل: رجل من نسل «الصوابر» اسمه «حجازي» عاد إلى القرية، ومعه زوجته، واسمها «نبوية».

تشكك «خير الدين» في الأمر، وسأل: كيف عرفت أنه منا؟

- الناس جميعًا في «الجابرية» يعرفونه.

وسأل «أحمد»: هل سمح له «عماد» بدخول القرية؟

- كان قد أرسل في استئذانه، ثم جاء إليه بهدية يحبها، إنها ثلاثة براميل صغيرة من النبيذ، حملها حمار من المركب إلى القصر.

وماتت الفرحة في قلب «خير الله»، وقال: بلد جدنا الكبير، ويطلب أحد أحفاده إذنًا، ثم يقدم رشوة من أجل أن يدخله.

كان هذا آخر ما قاله، ففي اليوم التالي، وجدوه ميتًا، وهو لم يتخطّ الأربعين سوى بسنة واحدة. سكت قلبه فجأة، وترك كل شيء وراء ظهره.

(13)

تدور الدوائر، حاملة حكمة الزمن الذي لا يبلى. يفيض النهر ويغيض. يتوالى الجالسون على العرش في القلعة. يترك السناجق أماكنهم إلى القبور أو العزل أو النقل إلى زمام آخر. تُحكم القبضة على أعناق الناس، فيئنون صابرين. مَن يضيق من اختناقه فليس له من سبيل سوى القتل أو السجن أو الهروب إلى المغارات الموحشة،

لينضم إلى الفلاتية المحبوسين في الخلاء.

أدرك الناس في الوادي والدلتا أن ما هم فيه راسخ كالجبال، لن يذهب إلا حين تصير الصخور عهنًا منفوشًا تُبعثره الريح. قلة منهم كانت تهمس وهي تلتفت حولها خشية العسس: دوام الحال من المحال.

جاء يوم وطار خبر إلى أهل الصعيد أن الفرنسيس قد دخلوا المحروسة، فلم يعرفوا إن كان هذا سيجلب لهم فرحًا أم حزنًا أشد وأنكى؟

وبلغهم أن قسمًا كبيرًا من جند المماليك قد فروا إلى الصعيد أمام مدافع «بونابرته» وقُنبره، فخاف الناس على زرعهم ودورهم خوفًا شديدًا. أهل المنافع تمنوا أن يؤول الصعيد إلى الفارين، ومَن ظلوا على ضيم وقهر، آمنوا بأن الفرنسيس لا محالة سيتعقبونهم.

وانتصر رأي الفريق الثاني، لكن ثلاث سنوات كرّت، وخرج الفرنسيس خاسرين، ونودي في الناس: عاد كل شيء إلى حاله.. الوالي العثماني في القلعة، والسناجق في الأقاليم، والفلاحون في أرض الالتزام.

في الفوضى التي لم تطل، توقف «منصور» و«منازع» عن الدفع للملتزم، لكنهم استمروا في دفع نصيب العربان. وسنحت فرصة كبرى أمام «مزيون» و«أحمد» لتوسيع التنقيب في الجبال. لكن لم تلبث الأمور أن عادت إلى ما كانت عليه، حين طار الخبر، أن علماء الأزهر قد أجلسوا رجلًا ألبانيًا من الجيش العثماني اسمه «محمد علي» على عرش مصر، وأن السلطان في الآستانة قد بارك

اختيارهم.

وتوالت السنين فتزوج «منصور» وأنجب ابنه الوحيد «جعفر» من ابنة فلاح عشقها اسمها «رقية». قبله كان «أحمد» ابن عم أبيه قد أنجب «عمر» و«رسمية» بعد طول صبر. وتزوج «منازع» من «عزة»، وأنجب منها «محمود» فاختلطت أنساب الصوابر وآل بخيت والفلاحين. كان الأولاد في سن متقاربة، وكأنهم قد جاءوا لمهمة دبرها العليم الخبير. ولم ينسَ «منصور» و«أحمد» أن يورثا ذريتهما ما يعرفانه من سبل تحصيل الرزق من أرض أوسعها الله، وضيقها أولو الأمر.

مات «فراس» فبنى له أهل «نجع بحر» مقامًا، جاءه خادم من أهل الطريق، ووجده فارغًا فسكنه، وعاش يتلقى أعطيات قاصدي الضريح ونذورهم، التي قدموها عن طيب خاطر من أجل التبرك بمَن نسج الناس حوله الحكايات الغريبة.

(14)

كان الملتزمون قد عادوا يقبضون على الأرض، واضطر «منصور» و«منازع» إلى معاودة دفع ما كان عليهما بأثر رجعي. سكن الخوف قلبي «أحمد» و«مزيون» على كارهم الخفي. ولم تتغير حال الذين يكدحون في الأرض بين صحراوين وبحرين يجري إلى أحدهما نهر، ناظرين إلى السماء لعلها تسعفهم مما ورثوه عن أجدادهم من عسف وظلم مقيمين.

ورآهم «منصور» على حالهم، ظهورهم في انحناء، وجلابيبهم بين الممزقة والمرقعة، وسراويلهم بالية، وعلى رؤوسهم تلفيحة تقيهم

قسوة شمس ذاهبة إلى منتصف النهار، فقال في نفسه: هؤلاء هم المجاذيب حقًّا، أيديهم إلى الأرض، وأقدامهم عليها، وقلوبهم في السماء.

(15)

سنوات قليلة كرّت بين توجس ورجاء، لكن الظلم لم تُقطع رقبته، إنما عاد ضاريًا كما كان وأكثر، بعد أن ألغى الباشا نظام الالتزام، وطرد الملتزمين من الأرض، فانكمشوا في قصورهم وسراياهم خائفين، بعد أن صار الباشا هو الملتزم الوحيد في كل البلاد، شمالها وجنوبها، وشرقها وغربها.

أُرسلت التجريدات العسكرية إلى ربوع البلاد كافة تنزع الأرض ممن تمسكوا بها رافضين أمر تسليمها، وتوزيعها على مَن يريد زراعتها لقاء ما عليها من ضرائب تُدفع إلى الوالي بانتظام.

كان «نجع بحر» بعيدًا عن الأعين فتأخر الانتباه إليه لكن عند ظهر يوم لا ينسى جاءت تجريدة إلى «نجع بحر»، فخرج «منازع» إلى قائدها، داعيه إلى بيته ليُحدثه في أمر ما بحوزتهم من أرض، لكن القائد رفض، وقال: لا حديث مع أحد هنا إلا بعد تسليم الأرض.

راح «منازع» يشرح لقائد التجريدة أن زمام النجع لا يخص أي ملتزم إلا على سبيل العرف الذي ساد، ولا حصر له في التزام «آل الأقصري»، لكن القائد صمّ أذنيه عنه، فلما انتهى قال له في حزم: لديّ أوامر يجب أن تُنفذ، وأنت يجب أن تطيع.

ثم أعطى الأمر لجنوده، فدخلوا الأرض التي استصلحها «مهدي»

ذات يوم بعيد. وكان «منصور» نائمًا فأيقظوه، فخرج هائجًا، حاملًا بندقية على كتفه، وفرد في جيبه، وخلفه رجال كثر، يحملون العصي، حتى بلغوا الأرض، بينما المسّاح يقيسها على مهل، والجنود واقفين في انتظار حصرها وتسليمها.

صرخ «منصور» كالمجنون: اخرجوا من أرضنا.

نظر إليه قائد الجند في استهانة، وقال: كل أرض مصر ملك الباشا.

رد «منصور» في غضب: أين كان الباشا وأبي يحفر البئر، ويشق السرائب، ويغرس الحب؟

قهقه القائد، وقال: لا تُضيّع وقتنا، فما تفعله لا فائدة تُرجى منه.

جرى «منصور» نحو المسّاح، ونزع منه القصبة التي كان يحطها على الأرض، ومزق دفتره الذي كان يُقيّد فيه ما قاسه. اندلع الغضب عارمًا في أوصال القائد، فصرخ في جنوده: اقبضوا على هذا المجنون.

هرع الجنود نحو «منصور» لكن يده كانت أسبق منهم إلى الدم، فأطلق الرصاص من بندقيته نحو صدر القائد، فخر صريعًا. ارتبك الجنود برهة، وقبل أن يرفعوا بنادقهم المعلقة في أكتافهم، كان أهل النجع قد هجموا عليهم بالعصي، فأدموا رؤوس مَن لم يقدر منهم على إطلاق الرصاص. مَن أطلق الرصاص أسقط كثيرًا من الفلاحين على الأرض غارقين في دمائهم.

قُتل القائد وعشرة من جنوده، وجُرح عشرة، أما المسّاح فجرى ومرق من فتحة وجدها في سور الجريد والبوص، وراح يعدو في

الصحراء.

صرخ «منازع» شيخ البلد في الناس أن يتوقفوا عن الضرب، ففعلوا. وأمر نائب القائد ما تبقى من الجنود بالانسحاب إلى طرف الزراعات، ففعلوا وهم يحملون قتلاهم ويساعدون مصابيهم على السير الوئيد، ثم انسحبوا نحو الشرق. جرى شيخ البلد نحو نائب القائد ليسترضيه، لكنه هشّه بدبشك بندقيته، وقال: انتظروا الهلاك.

(16)

اجتمع «منازع» و«منصور» مع رجال النجع في ساحة بالقرب من المسجد، يتشاورون الأمر، وعلى وجوههم فزع وترقب. تطلع الفلاحون إلى الكبيرَين ليروا ما سيفعلان، لكنهما كانا عاجزَين مثل الجميع.

نظر «منازع» إلى «منصور» وقال: ذهب عنك صبرك، وفقدت حكمة أجدادك.

هز رأسه راضيًا بما سمع، وقال في أسى: فات وقت العتاب.

قال «إسطاسي» نجار «النجع»: لا أرض لي، ولم أكن معكم وقت العركة، لكن الانتقام سيطول الجميع.

قال فلاح في وسط الجالسين: نحن في مركب واحد.

وتطلعوا إلى إمام المسجد، فقال: لا ترموا بأيديكم إلى التهلكة.

نهره «منصور» قائلًا: مَن مات دون أرضه فهو شهيد.

لكن الرجال كانوا غير مستعدين للشهادة، وقال أحدهم: علينا

الاختيار بين خسارة أرضنا وبيوتنا وبين خسارة أرواحنا وذرارينا إلى الأبد.

وقال «منازع» وهو ينظر إلى وجوه الجميع: الباشا لا يرحم، ومَن قتل المماليك على سطوتهم لن يعجز عن قتلنا جميعًا.

رد «منصور»: الباشا صار شيخًا طاعنًا ولن يعمر طويلًا.

صرخ «منازع»: لا تتحدث عن شيء ليس بيدك.

ثم قام، وقال للرجال: لا يطلع الصبح على أحد منا في هذا المكان.

(17)

جمعوا ما استطاعوا من أشيائهم، وحملوها على ظهور الحمير والجِمال والبغال. ربطت النساء الملابس في بقج منفوخة. رص الرجال فوق أكتافهم ما قدروا على حمله. شهد الليل الخروج الكبير، للناس والبهائم وأقفاص طيور تصيح محتجة ضد مَن حرموها النوم.

كان من بينهم الذين يعرفون إلى أين يذهبون؟ فبيوت أقربائهم في قرى مجاورة قد تحميهم ولو بعض الوقت، إلى أن يُحسنوا اختيار وجهة الفرار. البعض لم يكن يعرف إلى أين يسير بين الزروع والشجر. قلة منهم قصدت الصحراء، معولة على أيام صحبة عابرة جمعتهم بالعربان.

أما «منصور» و«منازع»، فقصدا الجبل الشرقي، حيث مناجم الذهب، اصطحب كل منهم أسرته، وجرى عليهم ما جرى على أهل النجع جميعًا. فقدا مكانتهما بين الأهالي في ساعات، لكنها لم تزايل

رأسيهما، وكل منهما يؤمن بأن الغنى في الغربة يمكن أن يكون وطنًا جديدًا.

حرص «منصور» قبل هروبه على زيارة قبري أمه وأبيه، ليقرأ لهما الفاتحة ويعدهما بأن ينقل رفاتهما إلى حيث يجب أن تكون قبور العائلة. زار ضريح «فراس»، وبكى أمامه أكثر مما بكى يوم عرف أن صمته سيطول، وأكثر مما بكى يوم موته. قرأ له الفاتحة، وطلب منه أن يدعو، وهو في عالم الحق، لأهله بالنجاة.

أشرقت الشمس على «نجع بحر» لتجد بيوتًا خربة، وشوارع تتساءل كلابها: أين ذهب الذين كانوا يرمون إليها العظم والفتات.

بانت الزراعات زاهية، هي وحدها التي تعرف أن الجند القادمين لا محالة، سيأتون إليها بمن يواصل رعايتها حتى موسم الحصاد.

وجاء صوت القوّال ينشد وسط عزف مجروح:

يا نجع نخله مال

وأهل فروا هرايب

وكيف ينعدل حال

اللي همومه قرايب

أيّامُ الذَّهَب والدَّم

(1)

إن لم يمضِ العيش على وتيرة واحدة، فهناك مَن يرتبك. يوجد مَن لا يتحمل وطأة التغيير فيقع في يأس أو يستسلم. هناك مَن يألف غدر الحياة وخياناتها، ويعتبر الدهشة أو الحسرة التي تصاحب تقلباتها شيئًا يكسر الرتابة، أو محنة تنتهي بمنحة، ويؤمن أن العظمة لا تولد إلا مع العرق، والوقوف على حافة الخطر.

(2)

لم يكن «منصور» يعتبر ما هو مقدم عليه شيئًا مربكًا، فهو اعتاد العيش بين الزراعات وها هو ذاهب للإقامة بين الصخور. نعم كانت هناك صحراء يمكن للواقف على سطح أي بيت في «نجع بحر» أن يراها صحراء مبسوطة، تأخذ العين إلى المدى، لكن الصحراء التي هو ذاهب إليها مختلفة.

تجري في صلب «منصور» المغامرة، وكذلك «منازع»، فالأجداد سقطوا على درب الحياة الطويل، لكنهم لم يزحفوا على بطونهم، وقعوا واقفين، ونظروا إلى الأمام، وعوضوا ما ضاع، وغرسوا لهم أوتادًا جديدة في أرض أخرى.

لم يكن «منصور» يعرف بيت «مزيون» في «أرمنت»، لكنه كان يعرف الجبل. مر به مع «أحمد». زاره مرات. صار هو الدليل، فما إن نزلت الأسرتان إلى مرسى على الشاطئ الشرقي يعرفه جيدًا، حتى قال لهم: لنشتري جِمالًا من نجع قريب، وهناك تضاف إلى الجِمال

التي تحمل الصخر المسكون بالذهب.

واشتروا أيضًا مؤونة أخرى، وملأوا القِرَب من ماء النهر. انجابت أمامهم الصحراء مختلفة عن تلك التي كانوا يمسونها من بعيد في أيامهم التي خلت. لم تغرب شمس اليوم حتى كانوا قد اقتربوا من تجمع الرجال عند أول منجم. وقف «منصور»، وقال لهم: دعوني أخبر الرجال بمجيئنا.

رجل من الواقفين كان يعرفه، فلما رآه، ناداه باسمه: أهلًا بالسيد «منصور».

لم يكن «أحمد» موجودًا. كان في مكان بعيد مع زمرة أخرى من الرجال يسعون خلف عروق الكوارتز التي تشي بوجود الذهب. أنزلهم الرجال في خيمة «أحمد»، وجاءوا لهم بطعام جديد، تبقى من لحم ثلاثة تيوس مشوية وثريد.

ملأ الوافدون بطونهم، وأثقلهم الشبع فتمددوا على الأبسطة المفروشة في قلب الخيمة، بينما نهض «منصور» و«منازع» ليستكشفا مكانهما الجديد.

تطلع «منازع» إلى الهضاب المسربلة بضوء شحيح، يرميه قمر بدا هنا أقرب إلى الواقفين على الرمل والحصى مما كان عليه وسط الزراعات، أو حتى أسطح البيوت في النجع الذي صار من الماضي. بدت وديان تحجب التلال عنها ضوء القمر، فقال «منازع»: مكان يسكنه الخوف.

قهقه «منصور» وقال: سيكون سكنًا آمنًا حين تقع عيناك على

الذهب.

رأى «منصور» أحد الرجال يقترب منهما، فسأله: أين السيد «مزيون»؟

- نزل إلى المحروسة ليبيع ما جمعه الرجال من ذهب في شهرين كاملين.

همس «منازع» في أذن «منصور»: جئنا لنأخذ من أرزاق الناس.

قهقه، وقال: غدًا سيكون لنا رجالنا وأرزاقنا. الجبل يتسع للآلاف.

(3)

انطلق صوت كالرعد، أتبعته كركبة عالية. اندك الجبل، وتهاوت الصخور يلحق بعضها بعضًا، فلمّا سكنت مكانها عند السفح، ترامت أصوات طرقات قوية. بدا «منازع» حائرًا، لا يعرف ما يجري حوله. أما «منصور» فكان قد اعتاد هذا خلال زياراته السابقة. نظر إلى «منازع»، وقال: تواصل الخير بقدومنا.

تطلع إليه وفي عينيه سؤال، فأجابه: الصخور التي تهاوت ستحطمها المرزبات، حتى تصبح قطعًا صغيرة، تتولاها القواديم والشواكيش حتى تنهرس، ليأتي مغربلون ليهزوها مرات، فيحجب الحصى، ويتساقط رمل مدسوسة فيه فتافيت الذهب، كأنها شرر يطير. تُجمع، وتُؤخذ إلى المصاهر، وتسيل ثم تجمد في سبائك يخطف بريقها العيون.

ابتسم «منازع» وقال: كار جديد على «آل بخيت» لو عرفوه في الزمن البعيد، ما أصبحوا خدمًا في القصور.

(4)

حين عاد «أحمد» سمع من «منصور» ما جرى، وأدرك أنه أتى هذه المرة للإقامة وليس لزيارة عابرة، فرحب به وقال: الجبل يتسع لنا جميعًا.

رحب «مزيون» بعد عودته حين عرف أن «منصور» و«منازع» أتيا بمال جديد، يساعد في توسيع العمل، بجلب المزيد من العمال الأفارقة. تاه قليلًا وقتها، ونظر إلى قبر أبيه، وقال: كان في الحاج «عطوة» شيء لله، قلبه حدثه أن هذه الأرض ستجمعنا حين عرض على السيد «خير الله» مشاركته ذات يوم بعيد.

(5)

كان «أحمد» قد عرض على «منصور» و«منازع» أن يُنزلا أسرتيهما في «أرمنت»، وقال: بيتي واسع، يساع من الحبايب ألف. لكن كل منهما فضل أن يكتري لأسرته بيتًا مؤقتًا، إلى أن يبني لها دارًا تليق بها، وكان لهما ما أرادا.

انشطر «الصوابر» و«آل بخيت»، حالت بين الرجال وبين النساء والأطفال بيوت ونهر ومسافة واسعة من الصخر والرمل والحصى وريح تزعق في الوديان والكهوف. الرجال يكدحون في الجبل. النساء ينتظرن في البيوت ويقمن بما عليهن من سبل العيش اليومي لهن ولأطفالهن. الأطفال إلى الكُتّاب لمواصلة التعليم الذي يحرص «الصوابر» خصوصًا عليه.

ورأى «مزيون» أن توسيع الرزق يتطلب عمالًا آخرين، فاعتزم أن

يقطع الصحراء الشرقية كما اعتاد، ويساعده العبابدة والكبابيش ليصل إلى شرق السودان حتى أطراف الحبشة، فيجلب مَن يريد من هناك. صمم «منازع» على أن يصحبه، وقال في سره: لعلي أسير في أرض داستها قدما جدتنا «سابا» في زمان بعيد.

ركبا فرسين قويين، وانطلقا عند البكور. ودعهما الرجال بالدعاء، بعد أن حملا على ظهر الفرسين الطعام والماء. قال «مزيون»: لا تثقلا الفرسين، ففي الطريق نتزود بما نريد. معنا المال، وأهل الخير لا ينقطعون على طول الصحراء وعرضها.

(6)

جاء الرجال السود الأشداء، ذوو الخبرة في استخلاص الذهب المخبوء في بطن الصخر. تضاعف العمل، وزاد الرزق. اشترى «منصور» و«منازع» بيتين لأسرتيهما، فعاشتا في رغد، أكبر مما كانتا عليه في «نجع بحر».

وكما كان عربان الصحراء الغربية يأخذون رزقًا من الزرع الذي أنبته «مهدي» في الرمل، كان لعربان الصحراء الشرقية نصيبهم. لم يأخذوا ذهبًا، إنما أخذوا جزءًا من النقود التي يباع بها في المحروسة وغيرها.

كان لكل عامل أجر على قدر ما تجود به الصخور من ذهب، إلى جانب ملء بطنه ثلاث مرات في اليوم. كانوا يتناوبون في قطع الصحراء ذاهبين إلى أهليهم في السودان والحبشة مرة كل عام، ليمدوهم بما ادخروه، ثم يعودوا مقبلين على العمل بشهية مفتوحة. في الذهاب والإياب يتولى العربان حمايتهم، ويقودونهم في الدروب

المبسوطة على شاطئ البحر الأحمر، حتى يبلغوا مأمنهم.

مَن يمرض منهم في هذه الرحلة الشاقة يداويه العربان بما عرفوه عن أجدادهم من طبابة. مَن يمت في الذهاب أو الإياب، يُدفن مكانه. أما مَن كانوا يموتون في مكان العمل، فأعد لهم أربابه مقبرة تقع خلف قبر «عطوة». أقل الموتى كانوا يسقطون إعياءً من الكدح تحت الشمس الحارقة، وأكثرهم كانت تدهسهم كتل الصخور العمياء حين تدحرج بقوة أو تهوي من علٍ، أو تتهاوى فوقهم الآبار التي يحفرونها عميقة بحثًا عن الذهب.

كل شيء كان يسير وفق ترتيب مُحكم، ولم يمر يوم واحد حتى كانت الجبال تجود بما ادخرته أزمانًا طويلة. حتى جاء يوم كئيب، لم يكن في الحسبان.

(7)

صباح يوم غائم، جاء أحد العمال متهللًا، وقال: رأيت عروق ذهب في كهف عميق.

كان «أحمد» قد اعتاد القيام بهذه المهمة، فمع الأيام صارت له الخبرة الكافية التي تعينه على تعقب عروق الذهب المدسوسة في الصخور المنزوية. كان العثور على مثل هذه الكهوف حدثًا كبيرًا، فخيرها أوفر من طحن الصخور وغربلتها.

اصطحب معه ثلاثة من العمال، حاملين القواديم والشواكيش والبلط والمرزبات، ومعهم مشاعل وزيت، وساروا نحو الكهف. سار خلفهم ثلاثة رجال ليتناولوا منهم ما يعثرون عليه في بطون الصخر

البعيدة.

وقف الرجال الثلاثة ساعة، يسمعون فيها صوت الطرقات في البعيد، فكانوا مطمئنين إلى أن الأمور تمضي على ما يرام. فجأة سكت الصوت. ظنوا أنهم قد استخلصوا ما قدروا عليه، وأنهم يعودون على مهل. لكن الوقت مر دون أن يخرج أحد. نادوا فلم يجبهم أحد.

قال واحد منهم: علينا أن ندخل لنرى ما جرى.

تردد اثنان، ودخل مَن طلب. غاب وقتًا مر على الاثنين الواقفين في انتظاره كأنه دهر. وحين خرج، قال: لم أرَ أحدًا. لم أسمع أحدًا.

جروا نحو الرجال الذين كانوا منهمكين في العمل، فهرعوا معهم إلى الكهف يتقدمهم «منصور»، فلمّا بلغوه، صمتوا وأصاخوا إلى أي صوت، لكن الخرس كان سيّد المكان.

على الفور طلب «منصور» مشاعل، فأمسكها رجلان، ودخلا بقلبين يرتجان من فرط الخوف. انزاحت الظلمة الجاثمة تحت أقدامهما، وهما يتقدمان في حذر، ثم جاء صوت صراخهما في الأعماق البعيدة: لا أحد هنا.

دخل خلفهما «منصور» متغلبًا على تردده وخوفه، يسبقه ضوء الشعلة، حتى وصل إليهما. وجدهما راجعين، فأمرهما بالسير خلفه. ساروا عميقًا، ولم يجدوا أثرًا للرجال الأربعة.

عادوا ووقفوا أمام الكهف تأكلهم الحيرة جميعًا، وعلى وجوههم تلال من أسى. كان الخبر قد وصل إلى «مزيون» فجاء على فرسه،

ترجل وقال: لا يجب أن نُقدّر البلوى قبل وقوعها.

سأله «منصور»: هل حدث هذا من قبل؟

كان قد حدث، ولم يجد الرجال له تفسيرًا سوى الحكايات العجيبة. ابتلع «مزيون» ريقه، وقال: حدث مرات، ولا داعي للخوف.

كان العمال القدامى في المكان يعرفون أنه يكذب، لكن ما عساه أن يفعل في مثل هذا الموقف العصيب؟ وهل بوسع أحدهم أن يقول الحقيقة وهو يرى «منصور» مفطورًا على وشك الجنون؟

أراد «مزيون» أن يخفف من فجيعة «منصور»، فقال لأحد الرجال: هاتِ قِربة ماء. حين جاء بها، أمر أحد العمال أن يدخل ليضعها في أبعد مكان يصل إليه، حتى إذا خرج الغائبون عطشى وجدوا ما يروي ظمأهم الشديد. بقيت القِربة على حالها في عمق الظلام، لكن الأيام مرت دون أن يخرج أحد.

توالت الحكايات عن الجن الذي يحرس الكنوز المطمورة في بطن الجبل، فيخطف كل مَن يصل إليها، ويأخذه إلى باطن الأرض، أو يصعد به ويلقيه فوق كوكب قريب. حكى آخرون عن ثعابين ضخمة تسكن الأعماق، ويموت على الفور مَن تلدغه. لكن هناك مَن لم يرُق له كل هذا، وقال: لو كانوا قد لُدغوا لعثرنا على جثثهم، أو حتى سمعنا صرخاتهم. ارتاحت الأغلبية لما قاله أحدهم بأن صخرة قد وقعت فجأة فسدت عليهم باب العودة. لم يرضَ «منصور» بأي من الحكايات، وتمسك بأمل كاذب، حتى مر شهر دون خبر، فأيقن أن مَن ذهب في بطن الجبل لن يعود.

جمع ملابس «أحمد» ولفها، وأحكم ربطها، ثم سكب فوقها العطر، وحملها والرجال خلفه، ودفنها إلى جانب قبر «عطوة». أقيمت على الغائب صلاة الجنازة، ثم أقيم شاهد، وضعت في صدره لوحة من رخام أبيض، محفور عليه اسم «أحمد»، وظليت الحروف بماء الذهب. أما العاملان اللذان كانا معه، فلم يُقم لهما شيئًا.

(8)

تقاسم الرجال الثلاثة إدارة الرزق الذي انهمر سخيًا، وظنوا أن الجبال قد دانت لهم، ولذريتهم إلى الأبد. ووجد «منصور» فيما يأتيه أقل ما يعوضه عن غياب «أحمد»، وكان يأخذ نصيبه، كأنه حي، ويعطيه لزوجته. وكان الرجال يدركون أنهم في خطر مستمر، فألّف هذا بين قلوبهم.

(9)

منذ متى كانت الأرض في مصر ملك الناس؟ الوالي العثماني اعتبرها له، يأتيها خراجه، ويستنفع المماليك، السناجق منهم والملتزمون، وفوقهم «شيخ البلد» بما يُترك لهم، وهو ليس بالقليل. يشاركهم ملتزمون من أهل مصر. فلمّا جاء الباشا، رد كل شيء إلى نفسه. كان وحده المتحكم في الأرض ومَن عليها. ولأن الجبال تقع تحت سلطانه، فكان من الطبيعي أن يمد بصره إليها.

أراد في البداية أن يستميل العربان بالأعطيات السخية، فاستجابوا له. مَن تمرد وقع تحت طائلة التأديب القاسي. كان يريد في البداية أن يمنعهم من الإغارة على القرى، أو التجمع لتشكيل خطر على حكمه، وكان طوال الوقت لا يريد لهم أن يميلوا إلى غيره.

لكن وقع ما جعله ينظر إلى الجبال نظرة أخرى، حين رآها مددًا قويًا لجيوشه التي ذهبت بدورها تجوب الصحاري سعيًا وراء توسيع سلطانه خارج مصر. لم تكن الجبال في نظر الباشا صخورًا صماء، ولا رملًا وحصى ينفرش تحت السفوح المتتابعة، ولا وديانًا يمكن أن يجري فيها بعض الماء، لا سيما أوقات السيول، فتنبت الأحراش والأشجار، وبذور النباتات الشاردة، فيجد العربان ما يربون عليه أغنامهم وإبلهم، إنما صارت شيئًا آخر، لم يجهله. عرف الباشا منذ سنوات أن في الجبال ذهبًا، وكان عليه أن يعمل على البحث عنه بأي ثمن، ليعزز ماله، فيشتري به القلوب والسواعد.

لكن الرجال الذين يكدحون في النهارات المشمسة والغائمة على حد سواء، وفي الليالي القمرية، من أجل أن يلتقطوا نثار الذهب من بين الصخور الصلدة، لم يصل إليهم خبر اهتمام الباشا بما تحت أيديهم، فظلوا يعتقدون أن الخطر الذي هم فيه مقدور عليه.

حتى أتى يوم مشؤوم لم يكن أبدًا قد ورد على خاطر.

(10)

جاء من أقصى المدن رجل يلهث، اسمه «حسب النبي». كان قد صاحب «مزيون» في رحلته لبيع الذهب في المحروسة، وعاد وحده. تطلعوا إليه في هذا النهار البائس، فقال وهو لا يقدر على التقاط أنفاسه: قُبض على السيد «مزيون»، سيق إلى السجن، وصودر الذهب، وتمكنت أنا من الهرب بأعجوبة.

مادت الأرض تحت أقدام الجميع، ونظروا إلى الجبال الراسية

حولهم فحسدوها على حالها. ملأ «منصور» عينيه من الرجل، وسأله: هل تعقبك أحد؟

أجابه وهو تائه: لا، زُغت من الجُند في الزحام.

كاد «منصور» يسترد بعض الطمأنينة الغائبة، لكن «منازع» فتح بابًا واسعًا للقلق، حين قال: قد لا يقدر «مزيون» على الإنكار والصمت.

(11)

أرسل «منصور» مَن يعس على الأخبار في «قنا»، فعرف أن اهتمام الباشا بالذهب قد وصل إلى حيث مناجمهم. كان قبل سنوات قد أرسل بعثة إلى روسيا لتعرف كيف يُستخرج من الجبال. وحين سمع بعض العمال من السودان، أخبروا السيدين المتبقيين معهم في الجبال بأن الباشا كان قد جاء بخبير روسي، وأرسل معه الجُند، ومَن خبروا استخراج الذهب، وكثيرًا من العمال إلى «سنار»، ليحفروا هناك بحثًا عن المعدن النفيس.

قلل «منصور» من شأن ما سمع، وقال: بيننا وبين «سنار» مسيرة شهر.

لكن «منازع» الذي لم يكن قد نسي مهاراته كشيخ سابق للنجع المغدور، قال: مَن بدأ هناك، سينتهي إلى هنا.

واتفقا على أن يظلا في العمل حتى اللحظة الأخيرة، ولا يقدران البلاء قبل وقوعه. لكنهما حرصا على أن يتركا أي ذهب في مكان مغلق بالجبل معهما أقفاله، ولا يعرفه غيرهما. كلما كان الرجال يسبكون بعض السبائك، كان أي منهما يحملها إلى «أرمنت» لتكون

هناك في أمان.

وزع «منازع» ثلاثة ناضورجية من مرسى النيل وحتى قرب المناجم، لكل منهم كوخ من حجر يعيش فيه، ومعه حصان، وعليه إن رأى الخطر قادمًا أن يرمح ليبلغ الذي يليه. طالبهم بأن تظل عيونهم مفتوحة ليل نهار.

توقف «منصور» و«منازع» عن إرسال أحد إلى المحروسة، حتى لا يلقى مصير «مزيون» ويزيد الطين بلة. فكرا في معاودة التواصل مع تجار في الصعيد، كانوا يشترون السبائك بثمن أقل من المحروسة، وتخليا عن الفرق لقاء الأمان.

لكن، منذ متى كان على أرض البلاد مكان آمن بعد أن مَدّ الباشا بصره إليه؟

(12)

أنكر «مزيون» أن يكون صاحب الذهب، وما هو إلا وسيط بين مَن يملكه وبين مشتريه. عذبوه على قدر ما يطيق، فاعترف بأنه صاحبه، وأنه تاجر يتحصل عليه من بنادر الصعيد. جاء التعذيب أقسى مما يطيق، فاعترف بكل شيء.

أعادوه إلى الزنزانة مثخنًا بالجراح والقهر، ينزف ويئن دون أن يسمعه أحد، حتى صار جسده خرقة بالية. أغمض عينيه ليرى كل شيء، الهضاب والوديان والعمال والأحصنة والجِمال وقبور الراحلين، ورأى جدران زنزانته تكتسي بالأصفر الزاهي، الذي راح يبرق في الظلام، ثم غاب في ظلمة الموت التي يعقبها نور، يضيع

فيه بريق كل ذهب الأرض.

(13)

في ظهر يوم ليس ككل الأيام، ظهر الناضورجي يرمح، وحوافر حصانه تثير حوله عجيجًا تبلعه الريح. حين رآه «منصور» نظر إلى «منازع»، وقال: جاء ما كنا نخافه.

رد «منازع» بحروف يابسة بعد أن جف ريقه من هول ما يتوقعه: وقوع البلاء خير من انتظاره.

جريا نحو السبائك التي صنعها العمال على مدار أسبوع. رفعا الذي غلا ثمنه وخف وزنه، وطالبا العمال بالهروب بعيدًا، بعد أن يُخبئوا معدات الحفر والغربلة والصهر في كهف قريب، ويسدوا بابه بالأحجار. وقف العمال حائرين، فطمأنهم «منصور» وهو لا يعرف إن كان كاذبًا أم صادقًا: ننحني للعاصفة حتى تمر.

لكن العاصفة كانت هوجاء، شديدة أكثر مما توقع أي من السيدين الساعيين وراء الذهب، واستعادة المجد الغابر. ظهرت خيول تثير حولها عجيجًا هائلًا، لا تقدر الريح على ابتلاعه. لمعت في الشمس بنادق مشرعة، فوق أكتاف رجال يمتطون الخيل، وآخرون يركبون عربات تجرها خيول أخرى. كانوا يتقدمون في الخلف على عجل. رآهم العمال، وكانوا لم يفرغوا بعد من تخبئة الآلات والأدوات التي رافقتهم كأعمارهم، فهاجوا وماجوا. جرى منهم على قدميه مَن لم ينتظر. هناك مَن شب على أي فرس رآه أو جمل، وتركوا خلفهم كل شيء.

انطلق الرصاص يحصد منهم الكثير، فسقطوا على الأرض. هناك مَن واصل الجري والدم ينزف من كتفه أو ساقه. رصاصة حطت في ساق «منصور» فأسقطته من فوق فرسه. هب واقفًا يغلب جرحه، وتوقف الفرس، وكأن بينهما عقدًا لا تنفصم عُراه. شب المجروح، وامتطى الذي انتظره من جديد، وراح يرمح نحو الجنوب، والفرس يسعفه. كان يرمح أكثر مما فعل في أي من أيامه التي خلت.

جاء نصيب «منازع» أشد ضراوة، فالرصاصة أصابته في كتفه اليسرى. لم يسقط، إنما تماسك والحصان يجري به إلى البعيد، دون أن يدري أن راكبه يمد يده ليحاول عبثًا أن يمسك عمره الذي يذوي.

وقف بعض العمال رافعين أيديهم فوق رؤوسهم مستسلمين. آخرون منهم لم يكتفوا بالوقوف إنما استداروا ومشوا على مهل في اتجاه الجنود، يحاولون مغالبة الفزع الذي ارتعدت له فرائصهم. لم تمضِ سوى ساعة واحدة، حتى كان جند الباشا قد سيطروا على كل المناجم، لا سيما بعد أن قادهم أحد العمال إلى مكان تخبئة الآلات والأدوات.

صارت المناجم للباشا، ولم يبقَ لحفيد «الصابر» من طريق سوى مواصلة الهروب.

(14)

حين اطمأن إلى أن المسافة قد اتسعت به بعيدًا عن الجنود، ترجل «منصور»، كشف عن ساقه فإذا بالرصاصة قد استقرت في الربلة، وتوغلت حتى مست العظم. حاول السير، فإذا بألم شديد يندلع، والدم يواصل النزيف. نزع الشال الأبيض الملفوف حول عنقه، وفوق

الجرح ربط وهو يكتم صرخاته حتى لا يسمعه أحد. تجلط الدم ووقف النزيف.

نزل الحصان إلى النهر ليشرب. مد «منصور» بصره فوق الماء، فلم يجد قاربًا ولا مركبًا. رأى فقط فلاحين منحنية ظهورهم في أرض على الشاطئ الغربي. هجمت عليه المخاوف من نفسه وحوله، فخاف إن انتظر قد يكشفه أحد، ويدل أي جند يتعقبونه على خط سيره، كما أن الرصاصة المستقرة في ساقه لا بد لها أن تخرج قبل التورم الشديد، وربما الغرغرينة التي إن جاءت لن ينفع معها سوى القطع، فيعيش بقية حياته أعرج.

شرب الحصان حتى ارتوى، والتفت ينظر إلى صاحبه، فلحق به على ساق واحدة، ولم يكن أمامه بد من المغامرة. أيسبح حتى يبلغ شاطئ النجاة؟ لكن كيف له أن يغلب الماء بساق لا يستطيع تحريكها؟ أيموت غرقًا فيلحق بالذين حصدهم الرصاص في قلب الجبل؟ أم هناك مسرب ضيق للنجاة؟

اندلعت الأسئلة تلسع رأسه. سيطرت عليه محبة الحياة، فجازف. أنزل السرج من فوق ظهر حصانه، حتى لا يثقله، ضرب ظهره فمال قليلًا، ليشب فوقه، بعد أن تجرد من ملابسه وحملها على رأسه. دفع الحصان على مهل نحو الماء. جفل الحصان، وهو لا يرى أمامه ترابًا أو رملًا أو حتى صخرًا ينقره بحوافره متقدمًا إلى الأمام. دفعه بقدمه، وأرخى له اللجام، فراح الحصان يخوض الماء على مهل، حتى بلغ رقبته، فرفعها إلى أعلى، يسحب من الهواء الناعم ما يقدر عليه، ودفع سيقانه الأربع، فشقت الماء، وأخذ يعوم، والماء يسحبه

معه إلى حيث يجري.

ساعة كاملة وهو وحصانه يقاومان الموت الواقف على الباب، حتى وجد الحصان ما يضع عليه قدميه عند الشاطئ، فنفض عن جسده الماء، وهو يخرج على مهل. صار النهر خلفه، فمال برأسه على رقبة الحصان وقبّلها في امتنان.

رأى الفلاحون رجلًا يخرج من النهر ممتطيًا حصانه، ثم توقف عند الشاطئ وارتدى ملابسه مغالبًا وجعه. نادوه إن كان في حاجة إلى مساعدة، لكنه قال في نفسه: لا أطلب منكم سوى أن تنسوا ما رأيتموه. ألقى عليهم السلام، وسألهم: أين الطريق إلى الجسر؟

أشاروا له أن يتوجه غربًا ففعل فلمّا ركب الجسر، تذكر الطريق إلى «أرمنت» جيدًا. رمح حتى بلغ المدينة عند الغروب. حرص طول الطريق على أن يُدلّي جلبابه فوق ساقه، حتى لا يرى الناس جرحه، وقد يكشفون أمره. وصل بيته والليل يستره، طرق الباب، فلما انفتح عرج وسط صرخات الخادمات، وهو ينهرهن ليصمتن. على أريكة تمدد. كان صغيره «جعفر» يهبط السلم، آتيًا من غرفته. كان قد كشف عن ساقه، وراح يفك الرباط، فصرخ ابنه سائلًا: ماذا جرى؟

قال له: ساعدني على إخراج الرصاصة من ساقي.

ولم يكن يعرف ما عليه أن يفعل، فأشار إليه أن يُشعل النار، ويدفن فيها سكينًا، فلمّا احمرت جاء بها إليه. طلب قطعة من قطن نظيف، وخُق ملح، وحطبة طرية. وضع الحطبة بين أسنانه، ودفع السكين إلى ساقه، وهو يعض على الحطبة فانغرست فيها أسنانه، بينما النصل الحارق يمزع ربلته في اتجاه الرصاصة، حتى بلغها. نغزها

بقوة، فأطل رأس المقذوف حادًا، ضرب جانبه، فظهر كله، فدفعه إلى الخارج، بينما صراخه يذيب الحطبة بين أسنانه، حتى غاب عن الوعي.

وجد «جعفر» الجرح يواصل النزيف، فجاء بحبل من دوبارة، وربط فوقه، حتى تجلط الدم. أمر الخادمات اللاتي كن واقفات بعيدًا، وظهورهن إلى «منصور» لا يتحملن النظر إليه، أن يأتين بالبصل، فشق إحداها بالسكين الملطخ بالدم، ثم مدها إلى أنف أبيه، فراح يتململ، حتى استرد وعيه، فوجد زوجته قد أخذت رأسه إلى فخذها، ودموعها تنهمر بغزارة.

نفض رأسه، وكأنه يسقط منها مخاوفه، ثم قال بصوت مرتعش: لا بد أن نغادر الآن.

وسألته زوجته: إلى أين؟

كتم دموعه، وقال: لا أعرف.

عادت تسأل: كيف نمضي وجرحك لا يزال ينزف؟

اغتصب ابتسامة من بئر أحزانه وقال: إن بقينا فمصيري القتل أو السجن.

وجال ببصره في وجوههم، وقال: سيصادر كل ما معنا، ولا أريد أن أترككم تمدون أيديكم إلى الناس لقاء لقمة أو شربة ماء.

وسأله «جعفر» في جزع: لِمَ كل هذا؟

غلبه البكاء، وأجابه: هاجمنا جند الباشا، واستولوا على المناجم،

وتفرقت بالرجال السبل، إلى الآخرة أو السجن أو الفرار أو الضياع في الصحراء الموحشة.

وطلب من ابنه أن يطلب من أسرتي «أحمد» و«منازع» أن تستعدا للرحيل، وتأخذا كل ما في البيتين من نقود وذهب.

قبل انتصاف الليل كانوا ينسحبون من «أرمنت» على ثلاث عربات كارو تجرها البغال، وكان «منصور» يمتطي حصانه ويقودهم إلى حيث لا يعرف.

وجاء صوت الشاعر ملهوفًا يلاحقه الرباب:

لا دهب يعيد اللي مات

ولا فضة تبري الجروح

واللي باقياله ساعات

وين فيها يروح؟

الوجَعُ والمَسرَّة

(1)

لم يكن «منصور» يدري شيئًا عن مخالفة أجداده لوصية المجذوب صاحب الخص والزاوية. كل ما يؤمن به هو أن لعنة قد أصابت «الصوابر»، ولا تريد أن ترحل عنهم. تفرقوا في البلاد، وتقلبوا بين ثراء وسترة وفقر، وبين أمان وخوف، وتسربت السنين من بين أصابعهم، وهم يدبون على كل أرض بلغوها، وأرادوا أن يقيموا فوقها مكانة، ما إن تستقر حتى تهتز، ثم تترنح وتسقط فوق التراب. يلتقطون نثارها، ويجمعون أشتاتها، ويعاودون القيام من جديد، دون أن يدركوا أن الفرار والحيرة واللهفة تجري في دمائهم.

(2)

بلغوا قرية في الطريق، فتزودوا منها بالطعام. ملأوا قربهم بالماء لقاء دراهم معدودات. حين كان الناس يسألونهم عن الرحلة، كان «منصور» يجيبهم: نقصد مقام سيدي «أبو الحسن الشاذلي».

فيسمعون تهليلات وتبريكات وأدعية ليس بوسعها أن تزيح الأسى الجاثم في الصدور.

(3)

وصلوا إلى أرض بور. قطعة ليست بالضيقة، يبدو أنها قد استعصت على الناس زراعتها. سبخة كانت تتناثر عليها نباتات ذابلة هشة، تنفخها الريح فتوشك أن تنخلع من جذورها. على طرف الأرض كان يوجد كوخ، يتراءى حتى للأعمى، وسط الفراغ. تطلع

«منصور» إليه، وقال لمَن معه: دائمًا تلوح البدايات من الأكواخ المنسية.

حين اقتربوا منه، خرج لهم عجوز يتوكأ على عصاه. وقف فوقفوا، فنظر إليهم، وقال: أهلًا بالتائهين.

وجد «منصور» نفسه يسأله، وكأنه يعرفه منذ زمن بعيد: كيف حالك يا عم؟

ابتسم، وأجاب: يستقر حال مَن يعرف مقامه.

أشار العجوز إلى النساء، أن يهبطن من فوق عربات الكارو، ويدخلن إلى كوخه ليحميهن من شمس حارقة. نظرن إلى «منصور»، فوجدنه يترجل، ويهز لهن رأسه موافقًا. تلاصقت الأمهات وأولادهن، وامتلأ بهم الكوخ، والعجوز يقول: ليس لديّ ما أقدمه لكم سوى النصيحة.

سرى شيء من بُشرى في وجه «منصور»، وقال: هذه أغلى ما ننتظره منك يا مولانا.

شرد العجوز برهة، ثم عاد ليقول: مَن خرج من داره قلّ مقداره.

طأطأ «منصور» رأسه، وقال: ما باليد حيلة.

ابتسم العجوز، وقال: عجبي لمَن يهرب من مكان يناديه، هو الوطن والسكن والأمان.

مصمص «منصور» شفتيه، وقال: لا أمان لمَن يسري الفرار في دمه.

ملأ العجوز عينيه من الجالسين، وقال: كفى للمرء ذنبًا أن يُضيّع

مَن يعول.

رد «منصور»: ما باليد حيلة.

غمس العجوز يده في دفقة هواء كانت تسري من فتحة ضيقة بجدار الكوخ، وقال: عُد إلى حيث كان أجدادك.

أطلق «منصور» قهقهة مكتومة مبتورة، وقال: عظامهم تفرقت في أماكن كثيرة، فأيها تقصد؟

عبث العجوز في لحيته البيضاء، وقال: ما الحب إلا للحبيب الأوّل.

ثم أغمض عينيه، وبسط كفيه، وراح ينقل إبهامه بين أصابعه، ويتمتم بما لا يسمعه أحد، فأدرك «منصور» أن الرجل قال نصيحته، وأنه من المجاذيب الذين لا يخلو منهم مكان. حاول أن يدفعه إلى تفصيل ما قال، لكنه لاذ بالصمت. نهض «منصور»، وأشار إلى مَن معه أن يخرجوا ففعلوا. شبوا فوق العربات، بينما هو يغلب وجعه ليمتطي حصانه. فلما ساروا بعيدًا عن الكوخ، التفت إلى «جعفر»، وقال: يطالبني المجذوب العجوز بالعودة إلى حيث كان جدك الكبير «رضوان الصابر».

وكان «جعفر» يعرف الحكاية، التي تجود بها ألسنة «الصوابر» عبر الأجيال، فقال: مكان أجدادي لم يعد لنا، ومَن فيه لن يرحبوا بنا.

صمت «منصور» برهة، وقال: يهمني الآن ألا تنسى النصيحة، ولا تنسَ الحكاية كلها، فما أدراك لعل العجوز يقصدك بها ولست أنا.

(4)

كان «منصور» يحس بأن النهاية قد اقتربت، ولن يكون لديه وقت ليعمل بنصيحة العجوز، ودعا الله أن يمهله حتى يطمئن إلى استقرار أهله في سكن يأويهم من هذا التشرد الطويل.

استأجر بيتًا واسعًا من طابقين في «إسنا»، كان يكفي ليسكن فيه الكل. كانت في الطابق الأول صالة تطل عليها مندرة للضيوف، وحجرة للخبيز، وأخرى للطبيخ، وثالثة لتخزين الطعام والغلال، وحجرة ضيقة للخدم، وحمامان في كل منهما حوض للماء، وحفرة لقضاء الحاجة، حولها رخام قديم. تنبت من الصالة ردهة طويلة تنتهي إلى حظيرة في الخلف. سكنت كل أرملة حجرة في الطابق العلوي، وحجرة لـ «منصور» وزوجته، وأخرى لابنه.

دفع «منصور» وقت تحرير عقد الإيجار سنة مقدمًا، وقال في نفسه: ضمنت أن أحمى مَن أعول سنة كاملة من التشرد.

لم تمر سوى أيام قلائل بعد أن استقر بهم المقام في هذا البيت، حتى اجتاحت الحمى جسد «منصور». كانت قوية إلى درجة أنها لسعت كل مَن يمد يده إلى جبينه. غرق في كمادات الماء البارد المتوالية. أشارت عليه «رقية» أن يدهن جسده باللبن الرائب، ففعل. عصر جرحه المتقيح، وهو يجأر من الألم، حتى شعر بأن قلبه يكاد يتوقف.

جاءوا إليه بالمُزيِّن، فحص الجرح، رفع لبخة من ورق الخروع كانت موضوعة فوقه، ونظفه جيدًا ودهنه بالمراهم، وقال: سيصبح كل شيء على ما يرام. لكن بعد انصرافه لاحت علامات النهاية في عيني «منصور»، فطلب أن يأتي الجميع إلى غرفته. جلسوا على

أرضية من الخشب الكالح. كان هو ممددًا فوق سريره، ينظر إليهم بعينين تغيمان. راح يغيب ويكلم أناسًا لا يرونهم، ثم يفيق فينظر إليهم بعينين شاحبتين.

طلب أن ينهض إليه «جعفر» و«عمر» و«محمود»، ومد يده إليهم، فأمسكوا بها، وقال: لتتعاهدوا أمامي على ألا تفترقوا، ولا تنسوا أبدًا وصية «الصوابر» التي لم ينقطع ذكرها على مدار السنين.

أخذ يقرأ فاتحة القرآن على مهل، وبصوت غارق في الخشوع، وهم يرددون معه بقلوب ترتجف، فلمَّا وصل إلى «آمين»، شهق، وفاضت روحه.

(5)

ثلاث أرامل كان عليهن أن يحملن فوق ظهورهن المكدودة مهمتين ثقيلتين: البقاء على قيد الحياة في سترة، والعودة إلى أرض الأجداد. كانت «عزة» منشغلة كثيرًا بهذه العودة، فهي ابنة «الصوابر»، التي رضعت الوصية صغيرة. لكن «رقية» لم تكن أقل التزامًا منها، حبًّا في ابنها، الذي كان قابضًا على ما سمعه من أبيه قبل أن يفارق الدنيا، وكذلك كانت «ناعسة».

تفكرت «عزة» فيما انتهوا إليه، وقالت: هي المرة الأولى التي تحمل الوصية نساء وصغارهن. كان الناس يتحدثون عن عودة وباء الطاعون، فجزعت أكثر، وسألت «رقية»: ماذا لو انقرض «الصوابر»، وضاعوا في متاهات الزمن؟ فلما سمعت منها السؤال، ضربت صدرها بيدها، وقالت: لنغلق علينا أبوابنا، ولدينا مؤونة تكفينا شهورًا.

التزموا بالعزلة، وساعدهم على هذا أنهم غرباء لا أهل لهم في «إسنا»، ولا يدخل عليهم أحد، باستثناء السقَّاء، لكنه لا يتوغل بعيدًا في الدار، فالأزيار التي يسكب فيها قِرَبه واقفة عند الباب الخارجي.

على النقيض من الناس، كان الوباء رحيمًا بهم، ليس لأنه تفاداهم جميعًا فقط، لكن أيضًا لأنه كف عنهم الناس، وحال بين مَن كانوا يطاردونهم وبينهم. نعم لا يكف جند طاغية، حتى أيام الوباء، عن صناعة الأذى، لكنهم في النهاية بشر، يخافون على حيواتهم، ويؤدي خوفهم هذا إلى التفاف الصغار على أوامر الكبار.

لا تعرف «رقية» أن هناك مَن يطاردهم على وجه اليقين، لكنها تحاذر، كما نصحها زوجها الراحل، حتى لا يضيع مَن تبقى من «الصوابر». حين كانت تقول له إن أهله الذين طُردوا من قرية «الحجاني»، قبل زمن بعيد، من المؤكد أن كثيرين منهم بقوا على قيد الحياة، تزوجوا وأنجبوا، ولم ينقطع نسل العائلة، كان يرد عليها: لكن لا أحد من هؤلاء يحمل الوصية.

(6)

حين انحسر الوباء كانوا قد اقتربوا من استهلاك المؤونة التى أصر «منصور» على شرائها في الأيام الأولى لمجيئهم إلى «إسنا». حتى علف البغال والأحصنة لم ينسَه، وكأن قلبه كان يحدثه بأمر عزلتهم الواجبة. عادت «عزة» من غرفة الخزين، وقالت لهم وهم يتناولون غداءهم جميعًا في صالة البيت: لا بد من شراء مؤونة جديدة.

ران عليهم صمت عميق، وتوزعوا على هواجس لا يبتعد بعضها عن بعض. ونطقت «رقية»، وكان الكل يثق في حكمتها، وقالت: «خد من

التل يختل».

ثم حدثتهم عن ضرورة ألا يُظهروا أي مظهر لثراء أو حتى سترة، حتى لا يلفتوا الانتباه إلى العائلة، وقالت: لا تنسوا أننا جئنا إلى هنا هاربين. وكانوا يدركون ما تقصده، فقال «جعفر» وهو ينظر إلى «عمر» و«محمود»: تربينا على أن يكد الرجال على النساء، ولا ننسى الوصية.

كانوا لا يزالون صبية، لكن ما عساهم أن يفعلوا؟ تركوا كل شيء وراء ظهورهم، البيوت المطمئنة إلى استمرار الخير، والتعليم الذي كانوا يتلقونه في الكُتّاب، وقبل كل هذا فقدوا الآباء الذين كانوا يعرفون كيف يتحصلون على الرزق.

جلس الثلاثة فوق سطح البيت صباح اليوم التالي. نظروا حولهم إلى البيوت، وبانت لهم شوارع لا يألفونها، أخذتهم إلى مشهد لم يمر بهم من قبل. أطل عليهم معبد «خنوم» ببوابته العالية، وأعمدته الأمامية الستة، والنقوش المرسومة على جدرانه، وباحته الفسيحة، التي ظهر فيها رجل طويل، يرتدي بنطالًا أسود وقميصًا أصفر فاقعًا لونه، وعلى رأسه قبعة بيضاء. ملأ «جعفر» عينيه من الرجل، وقال: خواجة قادم من بلاد بعيدة.

وقال «محمود»: أنظروا إلى يده، بها سلة من خوص، تبدو مملوءة عن آخرها.

وسألهما «عمر»: ماذا تظنان بها؟

رد «جعفر»: يشتري الخواجات ما تمتاز به بلادنا، قطع آثار مقلدة،

ومشغولات يدوية.

غمس «عمر» يده في اتجاه آخر، وقال: أترون ما أرى؟

نظروا فإذا بمبنى لم يروا مثيلًا له من قبل، أمامه ساحة تغص بعربات الكارو المحملة بزكائب وأجولة لا يعرفون ما فيها، وحولها بِغال وجِمال. دققوا النظر، فإذا برجال يقفون فوق الحمولات، وآخرون ينيخون ظهورهم عند العربات، فثرفع فوقها الزكائب والأجولة، ويمضون بها إلى داخل المبنى.

عند الغداء حكوا عما رأوه صبحًا، فقالت «رقية»: يبدو أن أنظاركم قد حطت هذا الصباح على رزق جديد.

وسألتها «عزة» عما تفكر فيه، فقالت: خادمتي تجيد تطريز أشياء من الخرز الملون والقماش، يمكنها أن تُعلمنا، ونصنع جميعًا ما نبيعه للخواجات الذين يأتون إلى المعبد.

تهلل وجه «جعفر» وقال: يمكننا أن نؤجر عربات الكارو أيضًا إلى المبنى، الذي يبدو أن به تجارة واسعة.

قالت «عزة»: هي وكالة الجداوي، طالما اشترى المرحوم منها التوابل والصمغ والبلح المجفف، وأشياء أخرى كثيرة.

وكان «جعفر» قد فكر في اتجاه آخر، فقال: يمكنني أن أعمل على العربة، فيكون لي أجر أكبر.

اتفق الصبية الثلاثة على أن يذهبوا جميعًا في اليوم التالي، ويعرضوا عرباتهم على أحد في الوكالة.

(7)

علّمت الخادمة كل نساء البيت فن التطريز، بعد أن جلبت من السوق الخرز والخيوط الملونة. تعلم الأولاد الطريق إلى وكالة الجداوي. كانوا يافعين بينما العربجية رجال لهم شوارب وأصوات خشنة، فاستصغرهم مَن يشرف على حركة استلام البضائع وتوريدها. طلبوا منه أن يعطيهم فرصة، ويجربهم أيامًا، فربما وجد أنهم لا يقلون كفاءة لهذا العمل عن المنخرطين فيه منذ سنوات. نظر إليهم، وإلى عربات الكارو التي كانت سليمة قوية نظيفة عليها طلاءات زاهية، بينما البغال سمينة عفيّة. بدوا له منعمين أناخ عليهم الدهر، فرق لحالهم، وقال: نُجرب، فإن لم تفلحوا أنتم، اكتفينا بتأجير العربات منكم.

كان على كل منهم أن يُشرف على رص الزكائب وقت تحميلها، وأن يرفعها على ظهور الرجال وقت تفريغها، فبدا هذا في البداية عملًا شاقًّا لهم، لكنهم صبروا. انتصروا على ضعف أجسادهم، والرجال جميعًا يساعدونهم، معجبين بأن يطمح صبية إلى القيام بعمل الرجال الأشداء.

استكثروا إيجار البيت الواسع، فانتقلوا إلى آخر من طابق واحد، لكل أسرة فيه حجرة، ورابعة للخادمات. وخيرت «رقية» الخادمات «خضرة» و«تماضر» و«أم الخير» بين البقاء معهم أو الرحيل، وكن عوانس لم يتقدم إلى أي منهن خاطب، فقالت «خضرة» وكانت أكبرهن سنًّا: نحن معكم على الحلوة والمرة.

كانت «رقية» قد وعدت الخادمات بأنها ستجهز أيًّا منهن يتقدم

إليها خاطب، لكن الأيام مرت وهن راضيات بحالهن. تتوجعن قليلًا أو كثيرًا حين تختلين في حجرتهن، ثم لا تلبثن أن تعدن إلى الرضاء، وكل منهن تقول في نفسها: هذا نصيب مقدر، وكل أمر بمشيئة الله.

رفضت «رقية» ما قالته «عزة» ذات يوم من أن قدم هؤلاء الخادمات إلى ديارهم في «أرمنت» كان شؤمًا على عائلتهم، حيث كان «منصور» قد جاء بهن قبل هجوم الجند على المناجم بشهر واحد. دافعت «رقية» عنهن؛ لأنهن في نظرها أكثر إخلاصًا ممن سبقتهن، وقد عرفن في سرعة شديدة طباع سيداتهن وأولادهن.

لم يكن في البيت الجديد مكان لعربات الكارو، فوضعوها أمامه متتابعة، وربطوا البغال في أوتاد دقوها خلف الجدار الأخير، مستغلين أن بيت جارهم يعطي ظهره لبيتهم. أما الحصان فباعوه، وكان ثمنه يكفي تغطية إيجار بيتهم الجديد سنة كاملة.

يخرج الصبية الثلاثة في البكور قاصدين وكالة الجداوي. تخرج الخادمات الثلاث عند الضحى قاصدات المعبد. يعود الصبية عند العشاء، وقبلهن تعود الخادمات قبيل الغروب. السيدات الثلاث في البيت يجهزن الطعام في أوقات متقطعة تتخلل انهماكهن في أشغال التطريز.

(8)

دارت الأيام دورات، والرزق الذي يأتي من الوكالة والمعبد يكفي الطعام والشراب والإيجار والملبس، ولا يجعل أيًا من السيدات تمد يدها إلى صندوق صغير مملوء بالنقود وبعض الذهب، تنتظر أن تسلمه لولدها حين يفتح بيتًا جديدًا.

وقت الجلوس إلى الغداء يوم الجمعة، حيث يستريح الجميع من العمل، تحرص «عزة» على تذكير الجميع بالوصية، وتقول: خُلق «الصوابر» لتحصيل أرزاقهم من الأرض.

لكن من أين لهم بتوفير ما يُمكنهم من دخول المزاد السنوي في المحروسة على أرض أي التزام؟ ومَن يسند التزامًا لنساء وصبية؟ كن يعرفن أن التزام الأجداد رسا في بعض السنين على شباب من العائلة، لكن آباءهم أورثوهم الهيبة مع الأرض، بينما هم الآن لا هيبة لهم، ولا وراثة لأرض، إنما لوصية لا يكفي المال الموجود للإيفاء بها.

(9)

طار إليهم خبر موت الباشا الكبير، فارتاحوا لما سمعوا، وكأنه كان لا يزال يسعى خلفهم بنفسه، منذ أن طارد جنده رجالهم عند المناجم، فقتلوا واحدًا، ومات آخر بإصابة من بنادقهم، والثالث لا يعرفون مصيره في السجن، ويخافون إن ذهبوا للسؤال عنه، أن يطولهم أذى.

جاء «جعفر» إلى أمه ذات يوم، وقال: الباشا الجديد فتح لنا بابًا وعلينا أن ندخله.

رفعت رأسها إليه في حيرة، فواصل: فتح باب تملك الأرض. إنها فرصة أن نبدأ الطريق إلى استعادة مجد جدنا الكبير «رضوان الصابر».

تشككت في الأمر، وتساءلت: منذ متى كان الجالس على عرشه في القلعة يترك للناس شيئًا؟

أجابها في ثقة: أحمل القمح من حقل بعيد، وسمعت صاحبه

يحدث الفلاحين عن قوانين جديدة، وعرفت أيضًا أن هناك أرضًا في الجنوب معروضة للبيع.

صمتت «رقية» برهة، ثم قالت: خبر لا بد من إطلاع عمتك وزوجة عمك عليه، فنحن معًا في القسوة واللين.

تشاوروا في الأمر، فقالت «عزة»: وجدنا طريقًا إلى العيش هنا، وهو إن كان أقل مما عرفناه في بيوتنا بأرمنت، فعلى الأقل نعرف كيف نكسب أرزاقنا. نحن نسوة ولا خبرة لنا بالزراعة.

ابتسمت «رقية»، وقالت لها: لا يجب أن ننسى الوصية، ونخذل الراحلين في قبورهم.

ردت «عزة» وهي تداري غضبها: أنا أيضًا لم أنسَ الوصية، ولا خير الأرض، لكننا عشنا سنوات في المدن، وكانت أرزاقنا تأتي من الجبل.

هزت «رقية» رأسها، وقالت لها: لا تنسي أنكِ المعنية أكثر بوصية «الصوابر».

كن يتحدثن بصوت عالٍ في هذا البيت الضيق، فوصل ما قالوا إلى أسماع الشباب، فخرج «جعفر»، وقال: لا يوجد في هذا البلد أكثر من فلاحيها، ولديهم ما يفيدنا مقابل أجورهم. سمع صوته «عمر» و«محمود» فخرجا في وقت واحد، وقالا: الأرض أفضل من حبس مالنا، وقيمته تتراجع مع الأيام.

كانت النسوة الثلاث يعرفن جيدًا ما يكابده الشباب الثلاثة. يعودون في المساء منهكين، يرمي كل منهم جسده على الفراش، ويروح في سبات عميق. كان كل واحد منهم ينظر في عين أمه،

ويقول كلامًا كثيرًا دون أن ينطق. كانت الأمهات تتوجعن لآلام أولادهن، لكن الوجع كانت تطمره سعادتهن الغامرة بإظهار الصبية قدرة على تحمل المسؤولية، وعدم الاتكال على الأموال التي تركها الآباء.

فكرت «عزة» قليلًا، وقالت: يمكن اختصار الطريق، وضرب عصفورين بحجر واحد، ولنبحث عن امتلاك أرض في «الصابرية».

استملحت «رقية» الفكرة، لكنها قالت: علينا أن نعرف أين نضع أقدامنا قبل أن نخطو.

ثم نظرت إلى «عزة» وقالت: لا تنسي أنها الآن صارت «الجابرية».

وأدرك «جعفر» ما تقصده أمه، وقال: لنرسل مَن يعس لنا على الأخبار هناك.

نظروا جميعًا إليه، فواصل: يمكنني السفر، ومعرفة ما آلت إليه أوضاع الناس في قريتنا القديمة.

ارتجف قلب «رقية»، فقالت على الفور: لا، إن ذهبت أنت، فقد يعرف «الجوابر» مرامينا، وربما تكون في خطر شديد، فأبوك طالما كان يقول لي إن الحكمة بينهم قد رحلت بموت كبيرهم «أدهم».

وصمتت برهة، ثم قالت: ليس هناك أفضل من النساء في التقاط الأخبار الشاردة.

(10)

كانت «رقية» تعرف أن «خضرة» خادمة «عزة» تعرف شيئًا عن

ضرب الرمل، ومعرفة الطالع، تعلمته صغيرة في بلاد السودان. التفتت إلى الخادمة، وقالت لها: قارئو الطالع يدخلون البيوت في سهولة، ويرمون خيط الكلام للنساء، فيكشفن الأسرار في رضاء تام.

تهلل وجه «عزة» وقالت: لو لم أكن أعرف مَن أنتِ لظننت أنكِ من نسل «الصوابر»، وورثتِ حكمة جدهم الكبير.

أعطت «رقية» نقودًا لـ «خضرة»، وقالت لها: اشتري من المساليب ما تحتاجينه. فاشترت قفة صغيرة من الخوص، وكثيرًا من الودع، ولباسًا يليق بغجرية أصيلة. أكملت هيئتها بدق وشم أزرق في ذقنها، وخرمت جانب أنفها. أعطتها «رقية» حلقًا من ذهب. مررت مشبكه من الثقب الدقيق، فاستقر مكانه. ارتدت في معصميها الكثير من الغوايش السوداء والزرقاء والخضراء. ولمّا تهيأت إلى مهمتها الجديدة، وقفت في صالة البيت، وقالت: «أبين زين، واضرب رمل».

ضحك الجميع، ثم جلسوا يرسمون لها معالم الطريق. قالت لها «عزة»، دون أن تتوقف عن الضحك: ما تلقطينه من رزق في هذه الرحلة، هو لك. وانتبه «عمر» فقال: ربما يحلو لها هذا الرزق، ولا تعود. ضربت «خضرة» صدرها براحة يدها، وقالت: لا يخون العِشرة إلا أولاد الحرام.

(11)

كما جمع الرجل الذي أرسله «يونس» في الزمن القديم الأخبار من فم امرأة من «الجوابر» بقيت في القرية، كانت امرأة «حجازي» هي سبيل «خضرة» إلى جمع الأخبار في زمانهم. لم تذهب إليها مباشرة، كما أوصتها «رقية»، إنما دارت على البيوت، فنادتها النساء، فدخلت

بيوت «الجوابر» و«النصارى»، ودخلت بيت اليهودي الوحيد الذي بقي في القرية، بعد أن هاجر البقية إلى البنادر.

استغلت شكوى المرأة من هموم الوحدة، فقالت لها: وحيدة أنت، لكن هناك مَن هي مثلك في هذه القرية. رفعت المرأة رأسها، ونظرت إليها في عجب، وقالت: ليس هنا مثلي إلا «نبوية» أرملة «حجازي الصابر». فطلبت منها «خضرة» أن تدلها على البيت بعد أن قرأت لها الطالع، وطمأنتها على أن دكان زوجها سيبقى مفتوحًا، وبضاعته ستروج في قابل الأيام.

وصلت إلى بيت «حجازي»، وكان خفيضًا، يدل أثاثه البسيط على شظف عيش مَن تسكنه. جلست فوق حصير من سعف النخيل، وأسندت ظهرها إلى الجدار، وقالت لصاحبة البيت: عشتِ أيامًا صعبة، وضايقكِ الحصار الطويل.

تمتمت «نبوية»، وقالت: كانت القرية لأجداد ابني، لكن دارت عليهم الأيام. حين جئنا إلى هنا كان لزوجي مال قليل، وكان يحلم ببناء دار جديدة، لكن «الجوابر» لم يمكنوه مما يريد. في أيام كثيرة كانوا لا يدعونه إلى الشغل في أرضهم، فما كان معنا خلص على الطعام والشراب. حتى عفش البيت بعناه في أيام عصيبة. كل هذا لم يكسرني إنما موت ابني الوحيد أيام الوباء. مات صبيًا، ودفناه في مقبرة إلى جوار جده «غنوم». كان أبوه يريد أن يزوجه عند بلوغه مباشرة، حتى ينبت «الصوابر» هنا من جديد.

لم تكن «خضرة» في حاجة إلى أسئلة كثيرة، فقد كفتها «نبوية» تعب السؤال، حدثتها كأنها تعرفها منذ زمن بعيد، كأنها صاحبة.

كانت تكتم ما لا تقدر على قوله لنساء غريبات عنها، وما إن وجدت الغريبة حتى فاضت لها بما يضنيها. واستغلت «خضرة» ما تعرفه عن «الصوابر» فتحدثت عنهم، والأرملة المجهدة تعزو هذا إلى قدرتها كضاربة ودع متمرسة.

سرقهم الوقت في الحديث، وجاء الليل، فعرضت عليها «نبوية» أن تبيت عندها، فاستجابت على الفور، وقالت: لن ينقطع الكرم في نسل «الصوابر» أبدًا. قضتا أغلب الليل في حكايات عن «الجابرية»، وبثتها «نبوية» أحزانها، فالتقطت «خضرة» منها الكثير عما آلت إليه القرية.

التزمت «خضرة» باتفاقها مع سيدتها، ورغم أنها تآلفت مع «نبوية»، وكأنها خليلة، فلم تكشف لها عن هويتها. كانت قد اعتادت طوال خدمتها في بيت «منصور» أن تكتم أسرار الأسرة. ترى بعينين مغمضتين، وتسمع بأذنين بهما صمم.

في صباح اليوم التالي، أخذت قُفتها، وراحت تقطع الشارع إلى سرايا «زياد الجابر»، فلما بلغتها، تغنت بأعلى صوتها: «أبين زين، واضرب رمل»، وفُتحت نافذة، وأطلت منها سيدة لم يأتِ العجز على كل جمالها، ونادتها: تعالي. وفتحت خادمة الباب، وأخذتها إلى بهو وسيع، ينطق أثاثه بثراء صاحب البيت. أجلستها تنظر حولها، وتغلب نبضات قلبها المتسارعة. جاءتها السيدة التي نادتها، تغلب حزنًا دفينًا يطل من عينيها. كم بدت تعيسة أمام «خضرة» التي لم تُضع الفرصة، وقالت لها: «ارمي بياضك».

أخرجت السيدة كيس قماش مطرزًا بألوان بديعة، دست يدها فيه وأخرجت ريالات من الفضة. وضعتها في القفة فوق الودع والرمل،

وقالت لها: إن صدقتِ سيكون لكِ أكثر، فلا أظن أن هذه هي المرة الأخيرة التي تأتين فيها إلى «الجابرية».

كانت «خضرة» قد عرفت من «نبوية» أن «زياد بك» قد أصيب بالفالج، بعد انفعاله ذات ليلة على ابنه المستهتر «زاهر»، ويلازم سريره منذ سنة، مشلولة أطرافه، ولسانه عاجز عن النطق إلا بحروف متعثرة لا تكون كلمات واضحة، فقالت لها: اسمك واسم أمك؟

فأجابتها: اسمي «حورية»، وأمي اسمها «وصيفة».

كسبتها إلى جانبها سريعًا، حين قالت: اسم على مسمى، جمالك شغل قلوبًا كثيرة، لكن النصيب أتى بكِ إلى هنا.

هزت رأسها، وقالت: كله مقسوم.

مدت «خضرة» جسر الثقة مع «حورية»، حين قالت لها: رجلكِ كريم، عاش أيامه في نكد، بسبب واحد من لحمه ودمه. زاد نكده مع آخر من صلبه.

مصمصت «حورية» شفتيها، وقالت: هو كذلك.

واصلت «خضرة»: نكد مَر، ونكد مُر، والله في العون.

ردت «حورية» بصوت مخنوق: ونعم بالله.

كانت «خضرة» تريد أن تعرف أكثر عن الأرض والثروة المتبقية، فقالت: ضاع الكثير، وبقي القليل، والخوف مما في الغيب يزيد.

ردت «حورية»: ابني ضيّع الكثير، أرض خسرها في القمار، وأخرى كان أبوه قد اشتراها باسمه فباعها وأنفقها على ملذاته، خمور

وحشيش ونساء.

أرادت «خضرة» أن تهيئها إلى ما سيأتي، فقالت لها: أنتِ ربيتِ، ولا ذنب لكِ، لكن العرق دساس.

- ماذا تقصدين؟

- في أجداد ابنك مَن ظلموا.

تململت «حورية» في جلستها، وسألت: وما ذنب الأحفاد ليؤخذوا بجريرة الأجداد؟

ردت «خضرة» على الفور: الثروة المسمومة لا تتعافى أبدًا.

صمتت «حورية» في حيرة، فلا سبيل للتخلص من ثروة عاشوا في ظلالها أسيادًا، وهي تدرك أن كل الثروات في البلاد تراكمت من السبيل الذي سلكه «الجوابر»، إنه نظام الالتزام الذي انحنت له ظهور، وانهمر عرق من أجساد مكدودة، وشهدت الأرض أنينًا متواصلًا لقلوب خائفة، وقرقرة بطون جائعة.

أدركت «خضرة» ما انتاب السيدة من مشاعر، فقالت لها: يخف الذنب بالزكوات والصدقات والدعاء. أخرجي مما لديكِ للفقراء، وخذي زوجك إلى الزاوية، يقضي بها نهارًا كاملًا، ولا يعود إلا بعد غياب الشمس، وليقضِ وقته في الدعاء والتسبيح، ولا ينسى الدواء الذي أتيتم به من العطار.

هزت «حورية» رأسها مستجيبة لما طلبته ضاربة الرمل، وقالت: للأسف الزاوية مهجورة. ثم سألتها: هل أخبركِ الودع بأنه سيشفى؟

صمتت «خضرة» لا تعرف بِمَ تجيب، لكنها لم ترغب في أن تغلق أمامها باب الأمل، فاكتفت بالقول: لا تيأسي من رحمة الله، ولكل داء دواء.

وسألتها: وداء ابني، هل له دواء؟

أجابتها: التوبة.

ردت في أسى، وهي تغلب دموعها: تعبت من نصيحته بالاستقامة، وكلما وعدني غلبته شهواته.

أرادت «خضرة» أن تقطع خطوات نحو هدف مَن أرسلوها، فقالت: ربما يفيد تغيير باب الرزق.

انزعجت «حورية» لما سمعته، وقالت: لا يعرف زوجي إلا بابًا واحدًا، ورثه عن أجداده، هو الأرض.

لكن «خضرة» سارعت إلى القول: الأرض تنقص، وقد تضيع، لكنْ هناك باب لو فتحتموه سيكون الربح والفلاح.

سألتها في لهفة: ما هو؟

أجابتها في ثقة: التجارة.

هزت «حورية» رأسها هازئة، وقالت: أي تجارة تربح في قرية يشتري الناس فيها بضاعتهم ببيض الفراخ، وأكواز الذرة، وأقداح القمح؟

وكان لدى «حورية» مسألة أخرى تقلقها، إنها ابنتها «عبلة» التي اقترب عمرها من العشرين، ولم يتقدم إليها خاطب، فالكل إما خائف

من أخيها، الذي إن غضب من أحد طاله أذى شديد، أو جفل من مسلك «زاهر» الذي لا يروق لأبناء العائلات، لا سيما أولئك الذين يقدرون أن أرض «زياد» قد تتآكل ولا يبقى منها شيء، وحتى ما يبقى ورثًا للفتاة، قد يكون محل طمع من أخيها، أو ينازع عليه مَن يتزوجها.

نادت «حورية» ابنتها فجاءت، وكانت فتاة أخذت من أمها الكثير، وزادت عليها بأنها تعرف القراءة والكتابة، بعد أن حرص أبوها على تعليمها على يد معلم كان يأتي إلى السرايا ثلاث مرات في الأسبوع يدرس لها اللغة العربية ومبادئ الحساب وشيئًا من العلوم الدينية.

جلست الفتاة منكمشة، كأنها مقدمة على اختبار عصيب، فطمأنتها «خضرة»: لا تقلقي، كل ما يتعبكِ سيذهب بإذن الله.

تهلل وجه «حورية»، وسألت: هل هذا ما قاله لكِ الودع؟

هزت «خضرة» رأسها، وقالت: نعم، قلقكِ عليها سيصبح من الماضي.

ثم لملمت «خضرة» الودع الذي كان ماثلًا بين يديها، وقالت: في زحام المدن تروج التجارة.

أرادت أن تفتح بابًا آخر للتفكير، فواصلت: هناك الطبيب، وغيبة الإحساس بالعار.

كانت «نبوية» قد أخبرت «خضرة» أن ما أصاب «زياد» بسبب ابنه، جعل «حورية» في انكسار دائم، لا تستطيع أن ترفع عينيها في عيون أهلها، وعيون الفلاحين، وحتى عيون خدم البيت، الذين

يحملون زوجها لقضاء حاجته، فيطلعون على ما يخفيه أي رجل عن سائر الناس إلا زوجته.

قبل أن تغادر «خضرة» بهو السرايا، التفتت إلى «حورية» التي كانت واقفة أمامها، وقالت: لا يعلم الغيب إلا الله، لكن ما وصلني من الودع أن تغيير العتبة سيجلب الفرحة.

ردت «حورية»: سأعرض الأمر على الوجيه، وله القرار.

حرصت «خضرة» على زيارة الزاوية، وقبري «رضوان الصابر» و«بديعة» تنفيذًا لوصية «عزة». وجدت القبرين قائمين، لكن بنيانهما قد تآكل من أطرافه. بدا أنهما مهملان لا يقصدهما أحد. أما الزاوية فكانت مغلقة على الخواء، تغوص قدما مَن يدخلها في تراب كنسته الريح إليها.

(12)

عادت «خضرة» إلى «إسنا» تتقافز من الفرحة؛ لأنها أتت بالبشارة إلى بقايا «الصوابر» المخلصين لوصية الأجداد. تصرفت كذلك الذي يؤمن بأن مصائب قوم عند قوم فوائد. حلمت طويلًا في رحلة العودة أن تنتهي سرايا «زياد» الكسيح إلى سيدها «جعفر» فتكون لها وحدها غرفة فسيحة. حلمت أكثر أن تجد بين الخدم الذين سيرثهم سيدها مع السرايا مَن يتخذ منها زوجة، فيكون لها الأولاد الذين تنتظرهم قبل أن يجف رحمها.

لكن فرحتها انقلبت إلى غم شديد فور عودتها. وجدت النساء الثلاث جالسات يخيم الحزن على رؤوسهن. وقوبلت بفتور لم

تعهده، وكانت تظن أنهن متلهفات على السماع منها. وضعت قفتها، وسألت: ما الذي جرى؟

- شيء لم يكن في الحسبان.

لم تجد «رقية» أنه من المناسب أن تحكي هي، فنظرت إلى «ناعسة» التي كان الأمر يخصها أكثر، فقالت: سيدك «عمر» خرج منذ ثلاثة أيام، ولم يعد، ولا نعرف إلى أين ذهب؟

ظنت أنه قد تشاجر مع «جعفر» أو «محمود»، أو اختلف مع أمه وترك البيت، لكنها حين عرفت السبب، دقت صدرها بشدة، وقالت: أنا خجلانة مما فعلته «تماضر»، فالشاب لا يقدر على العبث بأي بنت ترفضه.

قالت «عزة»، محاولة التخفيف مما جرى: المهم الآن أن نجد الضائع.

كانت «خضرة» متعبة من طول الرحلة، وبدا على وجهها الإنهاك الشديد، فقالت لها «رقية»: ارتاحي في غرفتك. لكنها لم تقدر على النوم، أو السكينة. بدت كبقلة خضراء ألقوها فجأة فوق جمر صاف. تقلبت مكانها، وهي تنظر إلى مخدع «تماضر»، وبصقت عليه.

عرفت أن «رقية» ضبطت «عمر» في غرفة الخدم يعتلي «تماضر»، وهي مستسلمة له، تنتظر أن يمنحها ما هي محرومة منه. كان في هذا اليوم قد أبلغ «جعفر» و«محمود» بأنه غير قادر على الذهاب معهما إلى الوكالة. انتظر حتى خرجت «أم الخير» لتبيع بضاعتها عند المعبد، وانشغلت النسوة الثلاث في المطبخ، وتركتا «تماضر» التي

ادعت المرض. بدا كل شيء متفقًا عليه بين الشاب والخادمة، وهذا ما زاد الطين بلة.

ظردت الخادمة، ولم يجد «عمر» نفسه قادرًا على مواجهة أهل البيت، فغافل الجميع، وخرج إلى الشارع. يذهب «جعفر» و«محمود» للبحث عنه كل يوم، ويعودان أول الليل بلا خبر.

قالت «ناعسة» في اليوم الرابع: خائفة من أن تكون الملعونة قد دبرت معه الهرب إن افتضح أمرهما، ليلتقيها بعيدًا عنا، ويكملا ما بدآه. واكتسى وجهها بغضب شديد، وقالت: نسي الأحمق مَن يكون هو، ومَن تكون هي. ردت «عزة»، وهي تتذكر ما سمعته عن حكايات جدها «رضوان» مع الخدم: خيط الشقاوة يمتد في نسل الصوابر على مر الزمن، يغيب سنين ثم يعود.

(13)

في الليلة الخامسة سمعوا طرقات عالية على باب البيت. هرع «جعفر»، وكان النوم قد جافاه خوفًا على الغائب. فتح الباب، فإذا بعجوز ذي لحية بيضاء، تذوب في جلبابه الأبيض، وسبحته البيضاء المعلقة في أصابع يمناه، يقول: أعرف أن الوقت غير مناسب، لكن للضرورة أحكام.

تسرب شيء من جلال الرجل إلى نفس «جعفر»، فأخلى له الطريق، وسمعه يقول: أنا الفقير إلى الله «صفي الدين التازي».

أدخله إلى الصالة، وكان «محمود» قد استيقظ، فخرج إليهما. قال «جعفر» للرجل: أجهز لك القرفة.

ابتسم الرجل، وقال: ضيافتي أن تصفح أسرتكم الكريمة عن ابنها، والله تواب رحيم. وأبلغهما أنه قد أتى من زاويته التي تقع على طرف قرية قريبة، وأن «عمر» يقيم عنده منذ أيام، وقد تركه نائمًا، بعد أن عرف منه أين يسكن أهله، وجاء إليهم لاسترداده.

جرى «جعفر» فأيقظ أمه، وطرق بابي «عزة» و«ناعسة» فأتيتا مسرعتين. سمعن من الرجل ما قاله، والفرحة تسري في أوصالهن التي سكنها الحزن منذ غياب «عمر». وقالت «ناعسة» في خوف: ربما استيقظ ولم يجدك يا شيخنا، فذهب إلى مكان لا نعرفه.

ابتسم العجوز، وقال: تعلق بي، ولن يفارقني، وقد عاهدني على البقاء معي، لكني رأيت أن أهله أولى به. ثم تنهد في حرقة وقال: كان لي ابن في مثل سنه، لكنه مات وزوجتي في الوباء، فرأيته في «عمر».

قال «جعفر»: لنسرع إليه قبل أن يستيقظ.

أصرت «ناعسة» على الذهاب معهم. ساعد الشابان العجوز والمرأة على ركوب الكارو، وركب «جعفر» في المقدمة، وإلى جانبه «محمود» يضرب البغل قويًا بالسوط، ليسرع في اتجاه الزاوية، حتى بلغوها قبيل الفجر.

وجدوا «عمر» ممددًا على حصير بال، يغط في سبات عميق. غمزت «ناعسة» كتف ابنها، ففتح عينيه، ليجد وجهها يخلص إليه من طيات الظلام، فقضى برهة لا يعرف أين هو؟ أما هي فقد أخذت رأسه إلى صدرها، وراحت تبكي بحرقة، وهو يشاطرها البكاء.

(14)

اطمأنت «خضرة» إلى ذهاب الأسى، فقالت لهم عند الضحى: ستصير الفرحة فرحتين. وحكت تفصيلًا ما عرفته في «الجابرية»، وهم ينصتون إليها في اهتمام، حتى انتهت، فقالت «رقية»: ربما يرفض الوجيه بيع أرضه إن عرضت زوجته عليه ذلك.

لكن «عزة» قالت: وربما يقبل.

ورفع «جعفر» يده إلى أعلى، وكأنه يشير إلى شيء بعيد، وقال: شاب سفيه يفرط في أرضه، وأبوه عاجز عن منعه. نهاية هذا معروفة.

كان «جعفر» يُظهر كل يوم ما يؤهله ليكون هو الكبير الجديد للعائلة، فلاقت كلماته استحسانًا. آمن الجميع بأن الزمن، هذه المرة، يعمل لصالحهم. لكن «عزة» استعادت كل محاولات الذين سبقوهم في العودة إلى مسقط رأس جدهم الكبير، والتي ذهبت سدى، وقالت: في كل الأحوال يجب أن نكون قريبين من الأخبار.

سألت «ناعسة»: كيف؟

أجابها «جعفر»: لديّ فكرة، لكن تنفيذها لا يتوقف على إرادتنا فقط.

تدخلت «خضرة»: هناك باب مفتوح، الدخول منه أسهل وأفضل.

تطلعوا إليها، فواصلت: لدينا، ما شاء الله، ثلاثة عرسان، وابنة «زياد» خير عروس لأحدهم.

ضحكت «رقية»، وقالت: ليكن «عمر» فهو متعجل الزواج.

دفن «عمر» رأسه في صدره، وقال: لا أفكر في هذا الأمر الآن.

نبشت «عزة» في ذاكرتها، وقالت: إن جرى هذا، ستكون المرة الثانية التي نصاهر فيها «الجوابر»، لكن هذه المرة ستكون في «الصابرية» وليس في المحروسة، وستكون الفائدة أعظم.

قالت «ناعسة»: ابننا «جعفر» هو الأكبر، وهو الأولى.

ابتسم «جعفر»، وقال: هذا باب ليس سهلًا، كما تقول «خضرة»، فالوجيه والهانم لن يزوجا ابنتهما الوحيدة لعربجي.

دقت «رقية» صدرها، وقالت في غضب: أنسيت مَن أنت؟ أنت ابن «الصوابر» أساس القرية هناك، وقد ترك لنا الراحلون مالًا يجعل مصاهرة الوجيه لك مرحبًا بها.

قهقه «جعفر» وقال: هذا سيكشف أوراقنا منذ اللحظة الأولى، فيفسد كل شيء.

حك ذقنه بظهر سبابته، وواصل: نشتري ما تبقى من نصيب «زاهر» وأمه، أما نصيب «عبلة» فيأتي من الباب الذي تفكرن فيه.

(15)

سمع «زاهر» أمه تحدث أباه فيما سمعته من ضاربة الودع. كان الوجيه ينصت دون أن يحرك شفتيه كالمعتاد، أما مَن نطق فهو ابنه. اكتسى وجهه بفرحة عارمة، وقال: لم تعد الأرض تأتينا إلا بالقليل.

تململ الوجيه في مكانه، وغمغم في غضب شديد، وهز رأسه

رافضًا. لكن ابنه واصل: «الخديوِ إسماعيل» يريد أن يجعل المحروسة مثل باريس. سينطلق البناء، وهو باب رزق وسيع، وفي المحروسة أيضًا ستعود علينا التجارة بأكثر مما يأتينا من الفلاحة.

مدت «حورية» بصرها إلى ابنها، وكلامه يدور في رأسها، وقالت: اعتدت ألا أعرف في كلامك الجد من الهزل.

قهقه، وقال: سمعت هذا في زيارتي الأخيرة للمحروسة، لا حديث للناس هناك إلا هذا. كثيرون يجهزون أموالهم لتشغيلها في هذا الرزق الجديد. وتطلع إلى وجوه أبيه وأمه وأخته، وقال: إن ملكنا فندقًا في المحروسة سيكون عائده أكبر مما تعطيه لنا كل هذه الأرض. لم ينطق أي منهم، فواصل: ويمكن إلى جانب الفندق أن تكون لنا تجارة رائجة.

كان «زاهر» يريد أن يبقى إلى جانب ملذاته المستعرة. ففي المحروسة توجد البارات التي يقضي فيها ساعات غائبًا عن أوجاع تنتابه أحيانًا بسبب فعله بأبيه، وما يسمعه من تقريع أمه، ومن أنين الذين يؤذيهم من الفلاحين والتجار.

في المحروسة أيضًا أماكن الغناء والطرب والرقص، الذي يهيم معه، ويحاول أن يطرد به عزف الرباب والإنشاد، الذي لا يروق له، ويسأل نفسه كل ليلة: مَن ذا الذي يطاول الصييتة هناك، خصوصًا سي عبده الحامولي، والست ألمظ.

وفي المحروسة بيوت الدعارة التي اعتاد ارتيادها، ووطأ فيها أصنافًا من النساء، تعب من عدهن. فيها المقاهي التي يدخن عليها الأرجيلة في تلذذ وامتنان. فيها خان الخليلي الذي يحلو له أن

يشتري منه ملابسه الغالية، ويأتي لأبيه وأمه وأخته بهدايا، محاولًا استرضاءهم.

اقترب «زاهر» من أبيه، وأخذ رأسه على فخذه، وكانت المرة الأولى التي يفعل فيها هذا، وقال له بصوت خفيض: أنت أب عظيم، ولن تقف أمام ما أحبه.

زحزح البك رأسه بصعوبة حتى صار فوق الوسادة، وارتفعت غمغمته، وأطلق حروفًا لا تصنع أي كلمات مفيدة، لكنها كانت كافية لتفهم «حورية» أنه يرفض ما قاله ابنه، فنظرت إلى «زاهر»، وقالت: يكفي أبوك ما رآه منك، فلا تضاعف من ألمه.

وقف غاضبًا، وقال: يعطيني نصيبي وأنا حر فيه.

صرخت «حورية»: أتريد أن ترثه وهو حي؟

ملأ عينيه من أبيه، وقال في نفسه: «حي لكنه ميت».

وجاءت «عبلة» حين سمعت صراخ أمها. وقفت أمام «زاهر» والغضب يكسو ملامحها، وقالت له: اخرج من هنا فورًا.

امتلأ رأس «زاهر» بالأذى. خطا نحو الباب، ثم استدار، وقال: أنا ذاهب غدًا إلى المحروسة، سأغيب شهرًا، وهذا وقت كافٍ للتفكير في ما قلته.

ضربت «حورية» الهواء بيدها، كأنها تطرده، وقالت: اذهب يا مقرف.. ليتك لا تعود.

(16)

لم يتوقف «جعفر» و«عمر» و«محمود» عن عملهم في وكالة الجداوي، بل أصبحوا متمسكين بالكدح أكثر، حتى لا تكون أمهاتهم مضطرات إلى أن تمددن أيديهن إلى الغروة التي تركها الراحلون. ما سمعه الشبان الثلاثة من «خضرة»، بعد رحلتها المعمرة، جعلهم يرون الأمل المدفون في بطن سنين طويلة، قد آن له أن يطفو على السطح. لقد أجّلوا الزواج حتى لا يلهيهم عن الإخلاص لوصية الراحلين، ويخطف من آذانهم الحكايات التي تملأها.

لم تتوقف الأمهات عن صناعة المشغولات التي تبيعها «أم الخير» إلى الأجانب أمام المعبد، بل فكرتا في توسيع الرزق، ببيع الفائض منها إلى دكان اليهودي «مزراحي»، الذي يقصده الناس في «إسنا» لشراء الكثير من حاجاتهم.

حين يجمعهم العشاء يواصلون الحديث عن الأرض التي تنتظرهم هناك، دون أن يزايلهم الخوف من ضياعها إن سبقهم إليها مشترٍ، بينما هم في غفلة. فكروا أن يرسلوا «خضرة» مرة أخرى، لكن «جعفر»، قال: قد تضيع الأرض من أيدينا بينما هي ذاهبة أو راجعة!

تطلعوا إليه ليعرفوا ما يفكر فيه، فقال: لا سبيل إلا بأن يقيم أحدنا هناك.

نظرت كل امرأة إلى ابنها، وتخوفت أن تُوكل إليه هذه المهمة الثقيلة. فما حكته «خضرة» عن «زاهر» جعلهن يحسبن أن يد أذاه قد تطول أي شاب، إن عرف أنه من «الصوابر»، فالحكايات القديمة كما يتوارثها «آل صابر» يتوارثها «آل جابر»، إن لم يسمعوها من أهلهم، فإنهم ينصتون إليها حين يغنيها القوالون في الأفراح والموالد.

أدرك «جعفر» ما ينتابهن من وساوس، فقال: مَن سيذهب سيكون آمنًا.

سألن في صوت واحد متلهفات: مَن؟

- الشيخ «صفي الدين التازي»، ومعه واحد منا.

أدرك «عمر» أنه المقصود، فقال: أنا مستعد، إن رضي الشيخ، وكانت الخطة مُحكمة.

بلغوا كوخ الشيخ وقت العصر، وكان بابه مفتوحًا، فوجدوه يصلي. انتظروا في الخارج، فلما فرغ، رفع بصره فوجد «عمر» فقال: كنت أعرف أنك ستجيء.

ثم ظهر «جعفر» فابتسم الشيخ، وقال: مريدان وليس مريدًا واحدًا.

شاركه «جعفر» الابتسام: في عائلتنا يتتابع المجاذيب، ولا يخلو منهم جيل.

وفاتحاه في الأمر، فابتسم وقال: لا أمضي إلا في خير. ثم تنهد، وواصل: مكتوب عليّ الرحيل. مات ابني وزوجتي، فرحلت إلى هنا، والآن عليّ أن أترك هنا إلى هناك.

اقترب «جعفر» منه، وقال: هذا عين الخير يا مولانا. تعمير زاوية خربة يحتاج إلى رجل طيب مثلك.

لم يكن الشيخ «صفي الدين التازي» معنيًا بتاريخ الانتظار الطويل الذي ظل يقض مضاجع «الصوابر» قرونًا، فهذا إن كان ثأرًا فلن

يشارك فيه لكراهيته هذه العادة السيئة التي حطت في رؤوس أهل الصعيد، وإن كان حقًا، فهو يرى أن الحقوق تؤخذ في النور. لكنه كان مهتمًا بحق آخر، إنه ما للغلابة في مال المقتدرين، يدفع إليهم بلا ذُل ولا أذى. رأى «عمر» في الأيام التي قضاها معه، كيف كان يأتي بعض الناس، وأغلبهم فقراء فاض من قوتهم شيء، ليضعوا إلى جانبه في الزاوية زبطًا بها أقداح من القمح أو الفول أو الشعير، أو قبضة من البتاو ترص على طبق من خوص. تضع بعض النسوة في بلاص إلى جانب الرصة قطعًا من الجبن القديم. في قفة تتوسط الاثنين توضع حفن من الكشك الجاف. يتجمع كل هذا إلى جواره وهو لا يأخذ منه إلا لقيمات يقمن صلبه، والبقية تؤول إلى مَن يحتاج. كل مَن يطلب طعامًا في بيته ولا يجد، يقصد الزاوية، فيأخذ على قدر احتياجه.

لهذا اشترط «صفي الدين» حتى يقبل الذهاب إلى زاوية «الجابرية» أن يكون هذا مؤقتًا ثم يعود إلى مكانه بعد أن يتمكن «الصوابر» من الأرض، وأن يمهلوه حتى يأتي بمجذوب آخر يجلسه مكانه، كي لا ينقطع نصيب الفقراء من زاويته. الأهم هو أن يتعهد «جعفر» بأن يبني، حين يتمكن من الأرض، إلى جانب الزاوية في قريته مضيفة، لا ينقطع عنها الطعام، وأن يكون من أطايبه.

وافق «جعفر» على الفور، فقال له الشيخ: بقي شيء واحد.

تطلع إليه «جعفر»، وقال: ما تأمر به مجاب.

قال الشيخ، وكان قد سمع منهما الحكاية كاملة: لا تبخسوا ثمن الأرض المشتراة، ولا تجوروا على نصيب الفتاة في مال أبيها، ولا تظلموا الفلاحين، بل توفوهم أجورهم قبل أن يجف عرقهم،

وتعطوهم هبة في مواسم الحصاد، إن جاد الزرع عليكم بمحصول وفير.

انتظر «صفي الدين» قدوم رجل طيب من مريدي الشيخ «عبد الرحيم القناوي» كان يأتيه بين حين وآخر، يأخذ نصيبه من الطعام ويمضي، فأبقاه مكانه، وأبلغ أهل القرية بما فعل، فامتثلوا لاختياره، لا سيما أنه وعدهم بالعودة.

ترك «صفي الدين» الزاوية ذات صباح قاصدًا بيت «الصوابر» في «إسنا». حين وصل كان الشبان الثلاثة منهكمين في عملهم بوكالة الجداوي، فآثر أن ينتظرهم حتى يعودوا عند العشاء.

بات الشيخ ليلته في بيت «الصوابر». أنصت إلى نصائح النساء، دون أن يرفع وجهه إلى وجوههن. حين أذن الفجر، أيقظ «عمر»، وقال له بعد أن فرغا من الصلاة: يحدثني قلبي أن في هذه الرحلة خيرًا كثيرًا.

فقال «عمر»: طاب مقامك أينما حللت يا مولانا.

ابتسم «صفي الدين» وقال: زارني جدكم «رضوان» في المنام. رأيته راكبًا فرسة عفيّة، كانت بيضاء ليس بها شعرة واحدة مخالفة. كان يرتدي جلبابًا أبيض فضفاضًا، فذاب البياض في البياض. كانت الفرسة تجري به على مدق يتوسط غيطان القمح، حتى بلغت النهر. ترجل ومشى في تمهل على الشاطئ. رفع بصره إلى الماء الساري، ولوح لسرب من اليمام يطير من الشط إلى الشط، ثم يعود. جلس القرفصاء، وراح يحفن ويشرب، ويطلق ابتسامة عذبة تزيد نور الشمس نورًا.

تابعه «عمر» باهتمام شديد، ثم قال: رؤية مبشرة.

كانت النسوة قد جهزن للمسافرين قفة مملوءة بالطعام، وقربة ماء، وصرة بها بعض النقود، فأخذا الزاد، وانطلقا في البكور إلى المرسى، ليستقلا مركبًا ذاهبًا إلى الشمال.

(17)

كان الوجيه «زياد» قد حمى فلاحي أرضه من أن يُقادوا مع الذين ربطهم الجند بالحبال وجروهم إلى الصحراء، ليحفروا القناة الجديدة بلا أجر. دفع رشوة سخية، فتفاداهم الجُند، وسكت عنهم عمدة «الجابرية»، إذ لم يكن يستطيع أن يخرج على طوع الوجيه، وكانت تناله منه منافع لا تنقطع.

كان «زاهر» يعرف ما فعله أبوه كي ينجو فلاحوه من قبضة السخرة، ففكر في أن يمضي في اتجاه مخالف، فكر فيه طويلًا وهو يعب من كؤوس الويسكي، أو يطرد دخان الأراجيل من فمه، وأحكم خطته وهو منتبه تمامًا في غرفته بفندق «نيو أوتيل» في الأزبكية.

ما إن عاد إلى «الجابرية» حتى قصد بيت العمدة «مرتجي الجابر»، فقابله الرجل بوجه موزع بين الانبساط والانقباض، وقال: أهلًا بالوجيه.

ضحك «زاهر» وقال: لست وجيهًا بعد، لكن بيدك أن تفتح لي الطريق.

هز العمدة رأسه، وقال: أنت تعرف أنني لا أتأخر في فعل ما يجلب لكم الخير، فأنا من «الجوابر»، «والضفر ميطلعش من اللحم».

كان «زاهر» يعرف أن العمدة كاذب، لكن لا يعنيه كذبه من صدقه، فالمهم أن ينصت إلى أوامره وينفذها. نظر إليه في إمعان، والعمدة في ارتباك، ثم قال: سكوتك على هروب فلاحي قريتنا من حفر القناة قد يضرك.

ارتعدت فرائص العمدة، وقال: ليس لدينا هارب. هرب بعض مَن التحقوا بالعمل وفروا. هناك موتى بعشرات الآلاف.

قال «زاهر» وهو يدوس على الحروف، ليكون له وقع في نفس العمدة: ما فعله أبي كان خطأً، وأنت تعرف أنه الآن بعيد عن المساءلة، فمَن ذا الذي يحاسب رجلًا عاجزًا حتى عن قضاء حاجته؟ وعندها سيقع العقاب عليّ.

رد العمدة، وهو يتصنع اللهفة: نجاك الله من كل مكروه، لكن.. لكن..

قاطعه «زاهر»: إياك أن تعتقد أن ما فعلته مع كبير الجند لا يزال سرًا.

ارتعشت أطراف العمدة، وقال: الناس هنا تعرف، لكن ما جرى كان في صالحهم، ولن يضروا أنفسهم.

باغته وهو يقرب فمه من أذنه: عمد القرى الأخرى يتحدثون في الأمر.

رد العمدة: بوسعي أن أفاتحهم وأنبه عليهم ألا يخوضوا فيه، وأنا واثق من طاعتهم.

مد «زاهر» فمه أكثر، وكأنه يريد أن يقضم أذن العمدة، وقال: الخبر

وصل المحروسة.

وجم الرجل من فرط الخوف، وواصل «زاهر»: أنت تعرف أن لي ضحبة هناك، وبعضهم قريب من القصر، ولولا أنني لا أبخل عليهم بشيء لفضحوا ما جرى.

التقط العمدة أنفاسه المبهورة، وقال: البركة في جنابك، وما فعلته في مصلحتك.

ارتد «زاهر» إلى الوراء قليلًا، وقال: تغيرت المصلحة الآن.

حملق العمدة في عيني «زاهر» مستفهمًا، فقال له: أبي لن ينفعك، ومصلحتك أنت أيضًا مع ما أريده. ثم أطلق ضربته القاضية: لا تنسَ أننا تركنا لك العمدية راضين، وإن كان أبي قد فعل هذا، ليبعد عن رأسه الخلافات الصغيرة، فأنا لن أتركها لك، وكفتي راجحة لأسباب كثيرة تعلمها جيدًا.

صمت العمدة برهة، وابتلع ريقه، وقال: أنت أكبر مما أنا فيه.

قهقه «زاهر»، وقال: هذا أحدده أنا، ولست أنت.

رد العمدة في انكسار: أنا معك حيث تشاء، كل ما في الأمر أنني أراعي التزامي مع الوجيه الكبير.

زفر «زاهر» غاضبًا، وقال: الوجيه لا يعرف ما يجري حوله، وإن عرف لا يستطيع أن يغير شيئًا مما أقرره.

بصوت خفيض، قال «العمدة» راجيًا: أستأذنك في بقاء مَن يشتغلون في أرضي، فليس معقولًا أن آتي لها بفلاحين من بلاد

بعيدة.

هز «زاهر» رأسه، وقال: استبقِ مَن تشاء.

(18)

وصل الشيخ «صفي الدين» ومعه «عمر» إلى «الجابرية» مساء يوم مشبع بالغبار. كانا قد هبطا من المركب عند الضحى، لكن «المجذوب» تعمد أن يصل إلى القرية عند العصر. رآه الناس يدب على الجسر بعصاه، ويمد بصره أمامه في ثقة كأنه يرى كل ما سيأتي في قادم الأيام. سأل «صفي الدين» عن دوار العمدة، فقادوه إليه. أوقفه الخفر عند الباب، لكن شيخهم حين رأى جلال هيئته، هرع إليه، وقال: تفضل يا مولانا.

دخل إلى صالة واسعة مرصوصة فيها أرائك من ثلاث جهات. جلس على إحداها، فلما جاء العمدة قال له على الفور: أنا مأمور بإعادة الأُنس إلى الزاوية المهجورة.

ثم التفت إلى «عمر» وقال: مريدي، يتبعني أينما ذهبت.

هز «العمدة» رأسه، وقال: هذا مكان بُني في الزمن القديم على أكتاف المجاذيب.

ابتسم «صفي الدين»، وقال: جاءني صاحب الزاوية والخص في المنام، ودعاني إلى هنا، فتركت كل شيء ورائي ولبيت النداء. فهتف العمدة: مدد.. مدد. ثم نادى الخفير أن يأمر للشيخ ومريده بالطعام، فقال «صفي الدين»: لا أريد إلا كسرة خبز وماء. وتنحنح «عمر» فابتسم الشيخ، وقال: هاتوا للفتى ما تجودون به.

أمر العمدة أحد خدمه بأن يذهب لتنظيف الزاوية المنسية، ويطلب من السقاء أن يملأ الزير المهمل.

(19)

سعى «زاهر» في التخلص من فلاحي أرضه. دفع حلوانًا لقائد الجند، ورتب كل شيء. في اليوم المشؤوم على «الجابرية»، جمع العمدة الفلاحين الذين يكدحون بأرضه في دواره، لتتفاداهم الأيدي الغليظة التي ستقبض على البقية. جاءوا إليه طائعين، فأوصاهم ألا يبرحوا المكان. على غير العادة ذاقوا منه كرمًا، حين جاءت إليهم صواني الطعام، وكان «زاهر» قد دفع لأجلها مبلغًا سخيًا.

أما فلاحو أرض «زياد» فذهبوا كعادتهم في البكور ليكملوا حرث الأرض وعزقها وتهيئتها لزراعة جديدة. فوجئوا عند الضحى بفرس ترمح نحوهم، كان «زاهر» يمتطيها في خُيلاء. لمّا وصل إليهم، نادى الخولي وأمره أن يجمع كل الرجال تحت شجر الكافور. هرعوا طائعين، وفؤوسهم فوق أكتافهم. وقفوا غارقين في الظلال الرقيقة، فأمرهم: اجلسوا في أماكنكم.

جلسوا، وتطلعوا إليه، فقال: سيأتي جُند إلى القرية، فلا تخشوا منهم شيئًا.

نظر إليه الخولي في تودد، وقال: لن نخاف، طالما كنا في حماية ابن سيدنا.

لم يلتفت إليه «زاهر»، وكأنه لم يقل شيئًا، وواصل كلامه: أنتم سمعتم عن الذين يؤخذون إلى حفر القناة.

ارتجفت القلوب في الصدور، لكنها استقرت هادئة، حين تفحص «زاهر» وجوههم، وقال: لا يزال الاتفاق الذي جرى مع الوالد قائمًا، لكنها إجراءات صورية لا بد منها.

سأل الخولي: أي إجراءات؟

امتعض «زاهر» لكنه أخفى شعوره، وقال وهو يبعد ناظريه عن عيون الفلاحين: لا يكف القائمون على الأمر من طلب الرشى، إنهم يقبضون على كل رأس منكم مبلغًا من المال، لقاء أن يتركوكم هنا.

تلاصقت أجساد الفلاحين كأن كلًا منهم يسعى إلى جلب الاطمئنان بالاقتراب أكثر من صاحبه، وتطلعوا إليه مستغربين لينه معهم على غير العادة.

حين كادت الشمس تتوسط السماء، ظهر الجُند قادمين على الجسر فوق أحصنة، يتقدمهم الضابط، الذي ما إن بلغ مجلسهم حتى ترجل، ومد يده إلى «زاهر»، وقال: جئت في موعدي.

رد عليه دون أن ينهي المصافحة، وقال: وأنا جاهز.

رفع الضابط يده إلى الجُنود، فشكل نصفهم في سرعة خاطفة دائرة حول الجالسين، ثم سحبوا بنادقهم المعلقة في أكتافهم وصوبوها نحو رؤوس الفلاحين. تصنع «زاهر» استغراب الأمر، فقال للضابط: يبدو أن هناك خطأ لا بد من تصحيحه، بيننا اتفاق قديم.

ابتسم الضابط، وقال: الاتفاق على حاله، كل ما في الأمر أننا نحصر عدد فلاحي القرى، كما أُمرنا.

رد «زاهر»: يمكنك حصرهم الآن.

لكن الضابط، قال في حسم: سيتم هذا في الثّمن.

نظر «زاهر» إلى الفلاحين، وقال: لا تخشوا شيئًا، إنه أمر عابر، سينتهي بسلام.

سحب النصف الآخر من الجند طيات حبال كانت معبتة على جوانب سروج الخيل. مشوا بخطى ثابتة نحو الفلاحين، الذين كان بعضهم قد وقف مكانه، موزّعًا بين إيثار السلامة بالبقاء، والتفكير في الهرب، لكن أين المفر، وفوهات البنادق مصوبة نحوهم، وأصابع الجُند على الزناد؟

قال لهم «زاهر»: مدوا أيديكم ولا تخافوا.

تململوا، لكن الجُند كانوا قد تمكنوا من ربط بعضهم. حاول فلاح الهرب ففرقع الرصاص ومرق فوق رأسه، فربض مكانه يرتجف. استسلم الباقون لمرآه، ومدوا أيديهم طائعين مَن يربطونهم كالغنم. سحبوهم ومضوا بهم في ثلاثة طوابير متوازية، تحدها البنادق عن الشمال واليمين، حتى فارقت أقدامهم الأرض المحروثة إلى الجسر العالي.

وصل الخبر إلى البيوت، فخرجت النساء تصرخن بحرقة، وبينهن أطفالهن، الذين ملأوا حجورهم بالأحجار الصغيرة والطوب. هرعوا نحو الجسر، وراحوا يقذفون الجُند، لكن الرصاص أطلق غزيرًا فوق رؤوسهم، فتراجعوا خائفين. جرت النسوة نحوهم. كل امرأة تبحث عن أطفالها لتعيدهم إلى البيت. فوق الجسر وقفن عاجزات ومعهن الصغار، لإلقاء نظرة وداع على الرجال الذاهبين إلى الجحيم.

وصل الهرج والصراخ إلى «زياد» فتململ في مخدعه. غمغم باحثًا عن أي أحد في البيت ليسأله عن الخبر، فجاءه العمدة، الذي ترك فلاحيه يأكلون في ساحة الدوار، وهرع إلى السرايا ليتمم بقية اتفاقه مع «زاهر». لمّا رآه «زياد» نظر إليه في غيظ، وكانت الظنون تملأه عما فعل ابنه، فقال العمدة: جاءت الضبطية، وأخذت الرجال إلى القناة.

ملأ الانكسار عيني الوجيه، ثم أغمضهما، ولما فتحهما كانتا غارقتين في العتاب، فطأطأ العمدة رأسه، وقال: ذكّرت الضابط أفندي بالعهد الذي قطعه لجنابك، فأبلغني أنه مأمور ممن هم فوقه، ولا حيلة له.

دخل «زاهر» عليهما، وقال لأبيه على الفور: لم يعد أمامنا سوى بيع الأرض، فالبصاصون عرفوا ما بينك وبين الضابط، ولولا معرفتهم بما أنت فيه لاستدعوك إلى القُمن.

لكن «حورية»، التي كانت واقفة بالباب تنصت إلى ما يدور، قالت في غضب: نكتري فلاحين من قرى أخرى.

قال «زاهر» وهو يداري شماتته: القرى خلت من أغلب الفلاحين. مَن تبقوا فيها لا يستغني عنهم أصحاب الأرض هناك.

غمغم الوجيه مجددًا، محاولًا أن يحرك رأسه، فقالت زوجته: نتركها بائرة حتى نجد مَن يزرعها.

كان «زاهر» يُعول على الوقت، ويراه يعمل لصالحه، ولديه الكثير مما يفعله، كي لا يجرؤ فلاح من أي قرية على نزول أراضيهم. نظر

إلى أمه، وقال: إذا بارت الأرض نقص ثمنها.

صرخت، وأعادت ما قالته سابقًا: لن ترث أباك حيًا.

وكان قد غافل أمه وأخته، واستولى على حُجج الأرض، وخبأها في مكان لا يعلمه غيره، فقال: لا فائدة من العناد.

ووجد العمدة نفسه في حرج شديد، فنهض، وقال: هذه أمور عائلية، وبقائي هنا غير مقبول.

لم ينتظر ليرى وقع كلامه على عيون سامعيه، بل هرع نحو الباب، وقلبه مفطور على الوجيه، الذي لم يجد منه سوى حسن المعاملة على مدار السنين الفائتة.

(20)

انتظر «جعفر»، في لهفة، خبرًا يأتيه من «الجابرية»، ودارت في البيت الأحاديث كل ليلة عن الأيام المنتظرة هناك. عاشت النسوة أحلامًا رخية. ثرثرن طويلًا عن السرايات والخدم، والأرض البراح والحصاد. لم تنسَ أي منهن الزاوية وأضرحة الراحلين.

أتين ذات ليلة بصناديق المال والذهب، وقضين منذ العشاء وحتى الفجر يحصين ما فيها من نقود فضية وذهبية. جمعن حليهن وقدرن ثمنه، فأدركن أن الثروة كلها لا تكافئ شراء كل أرض «زياد»، فتملكهن حزن شديد، خوفًا من أن يكون هناك مشترٍ جاهز، يغتال الحلم في ساعة من نهار أو ليل.

قالت «ناعسة»: نبيع العربات الكارو والبغال.

ضحك «جعفر»، وقال: هذا لن يزيد ما معنا كثيرًا.

تطلعوا إليه منتظرين ما يشير به، فوجدوه غارقًا في حيرة شديدة، لم يبددها إلا مجيء «عمر» بعد أيام. أبلغهم أن «زاهر» وحده الذي يمكن أن يبيع نصيبه الآن، رغم أنف أبيه العاجز. كان ما معهم يكفي هذا البيع، فاطمأنوا، معولين على أن الراغب في البيع لن ينتظر طويلًا، وبوسعه أن ينفذ ما يريد، إن وجد مالًا جاهزًا.

اتفقوا على أن يعود «عمر» إلى «الجابرية»، ويفاتح «زاهر» في الأمر، وينبئه أنه يعرف شاريًا لأرضه، سيعطيه ما يطلبه عدًا ونقدًا قبل إبرام عقد البيع. لكن «جعفر» قال: قد لا يصدق «زاهر» أن مريدًا لشيخ الزاوية له في البيع والشراء.

قال «عمر»: العمدة بابنا إلى «زاهر»، ولن يتأخر عن فعل ما نريد إن كانت له منفعة.

قالت «رقية»: وما أدراك إن أدخلناه وسيطًا أن يطمع في الأرض ويشتريها لنفسه.

تدخلت «خضرة»، وقالت: ما عرفته من «نبوية» يطمئنني أن العمدة ليس معه ما يشتري به كل أرض «زاهر».

قالت «عزة»: نذهب جميعًا، وننزل ضيوفًا على «نبوية»، حتى يتم البيع، ونبني لنا دارًا وسيعة هناك.

لكن «جعفر» طوح يده في الهواء رافضًا، وقال: الأفضل ألا يحس «زاهر» أننا من «الصوابر»، فما أدرانا أن يكون، رغم استهتاره، مخلصًا لما تبقى من الحكايات القديمة.

(21)

جاءهم نبأ موت «مزيون» في سجنه، ودفنه في مقابر الصدقة بالمحروسة، فنسوا الأرض والبيوت التي تنتظرهم، وانخرطوا في أيام حداد. كانوا قد عرفوا مثلها جيدًا يوم موت «منصور». ولمّا غلبت الأيام الحزن، أدركوا أن صفحة الماضي قد طُويت، وأن عليهم التفكير في ما هو آت، بعد أن استيقظت الحكايات القديمة في قلوبهم غضة كأن زمنًا طويلًا لم يمر.

(22)

قبيل عودة «عمر» إلى «إسنا»، قال له الشيخ «صفي الدين»: اعتدت دومًا أن يكون هناك ما أفعله. وحين استفسر منه عما يقصد، اكتفى بالقول: كل باب مغلق لا بد من أن يُطرق، فلا تستعجل فتحه.

صمت «عمر» ولم يلح في السؤال، إذ كان قد اعتاد من الشيخ أن يتلفظ أحيانًا بعبارات غامضة، بعضها يظل عالقًا في الهواء لا يحط على أرض، ويكون من الصعب تذكره، وبعضها كان يعقبه فعل يجعله يفهمها بأثر رجعي.

خرج الشيخ ذات صباح من زاويته قاصدًا سرايا «زياد»، ضرب عكازه حول سور الحديقة، حتى وصل إلى بابها الخارجي، وجده مفتوحًا فدخل واثقًا كأنه يعرف أهل البيت منذ زمن بعيد. رآه الخفير فهرع إليه يستوقفه، لكنه لم يستجب. كان الخفير يعرفه فتركه يمضي. فلمّا وصل إلى باب السرايا نادى بأعلى صوته: يا صاحب الدار.. صلِّ على النبي المختار.

وسمعته خادمة، فجرت نحو الباب. فتحت لتجد أمامها رجلًا مهيب الطلعة. وقفت صامتة، فسألها: أين سيدك؟

أجابته وهي تملأ عينيها من وجهه الذي يكاد يضيء بين لحيته البيضاء: سيدي في غرفته.

كان الخفير قد لحق به فمال على الخادمة وأنبأها مَن يكون الضيف، فأجلسته على أريكة في البهو، وصعدت السلالم إلى الطابق العلوي. لم تمر سوى دقائق حتى رأى الشيخ «حورية» هابطة إليه. وقف دون أن ينظر إليها، وقال: أهلًا بالصابرة المحتسبة.

وقع كلامه في قلبها وقوعًا حسنًا، فأقبلت عليه مستبشرة. كانت قد وصلتها حكايات أهل القرية عن كراماته، وكثير منه اختلقوه، وهم يكدحون في الغيطان نهارًا، ويتسامرون على المصاطب ليلًا، فقالت له: حلّت البركة في بيتنا يا مولانا.

طلب منها أن يرى زوجها، فأشارت إليه أن يتبعها حتى بلغ غرفته. وجدته مكانه يحدق في الفراغ. حين وقعت عيناه على «صفي الدين» اتسعتا وسكنهما فرح عجيب. جلس الشيخ على طرف السرير إلى جانبه، وراح يمسح رأسه، ويدعو له بصوت خفيض أن ينزل الله على قلبه السكينة، ويصبره في محنته الطويلة.

قالت «حورية» وكانت واقفة إلي جوارهما: طالت رقدته يا مولانا.

نظر إليه وابتسم، وواصل دعاءه، ثم طلب إبريق ماء وطستًا، فنادت الخادمة، التي كانت عند الباب تنتظر أمر سيدتها. حين جاءت بما طُلب منها، توضأ الشيخ، ثم وضع يده على صدر «زياد»، وقال:

نصلي ركعتين لتقضّى حاجتنا.

تزحزح «زياد» حتى صار جسده على طرف السرير. رفع الشيخ عنه اللحاف الذي كان يتدثر به، ثم راح يصب الماء في يده، ويوضئ الرجل العليل، فلمّا فرغ رص الوسائد خلف ظهره حتى اعتدل. وقف الشيخ على طرف سجادة مفروشة بالقرب من السرير يقرأ ويركع ويسجد، و«زياد» يتبعه مغمض العينين، لا يحرك سوى لسانه، دون أن ينطق شيئًا.

انتهى من صلاته، فرفع وجهه إلى «حورية»، وقال: لا تنسي أن تساعديه على أداء الصلوات في موعدها.

هزت رأسها في طاعة، وتطلعت إلى زوجها لتجد ارتياحًا قد سرى في ملامحه، فانبسطت بعد طول انقباض، وامتلأت نظراته بامتنان، لا سيما كلما توجهت إلى الشيخ، الذي عاد وجلس إلى جانبه، وقال له: لا يعرف المرء متى يضع أقدامه على أول الطريق.

حاول «زياد» أن يهز رأسه، فاهتزت رموشه، بينما سمع الشيخ يقول: يمتحن الله أحباءه في أعز ما لديهم.

رأت «حورية» علامات البشر بادية على وجه زوجها، فقالت للشيخ: لا تتأخر علينا.

ابتسم، وقال: لا يتأخر الشيخ على مريده.

انعقد في هذه اللحظة رباط وثيق بين «صفي الدين» و«زياد»، بل إن «حورية» نفسها شعرت بشيء من هذا يربطها بالشيخ، فقالت له وهي تودعه: من حسن حظ قريتنا أن أتاها الرجل الطيب، ومن

حسن حظنا أن رأيناه قبل انقضاء الأجل.

قبل أن يخرج من باب السرايا، قالت له: نتمنى أن يشفيه الله على يديك يا مولانا.

ابتسم، وقال: إن شُفيت القلوب هان كل شيء.

(23)

طرق خاطب يدعى «حفني» باب بيت «الصوابر» و«آل بخيت» في «إسنا» يطلب يد الخادمة «أم الخير»، فوافق «جعفر» حين أدرك أن الخادمة تميل إليه. جهزتها النسوة على أفضل ما يكون. تأخر وقت مغادرة «جعفر» و«محمود» إلى «الجابرية» حتى يتم زفاف الخادمة، وكان عليهم أن يدبروا أمر إقامتهم في القرية المنتظرة.

تطلعوا إلى «جعفر» لعل لديه حلًا لمشكلتهم هذه، فقال: الزاوية تسع ثلاثتنا مع الشيخ «صفي الدين»، وبيت «نبوية» يتسع للنساء.

أعادت «رقية» ما حذرت منه، وقالت: قد يُفتضح أمرنا، فيرفض «زاهر» البيع لنا.

لكن «خضرة» طمأنتهم، وقالت: نبوية ليست من «الصوابر»، هي من عائلة «أبو فاوي»، وقد نحل بدارها على أننا من أهلها. ثم تنحنحت، وقالت، وكأنها تلغي الاطمئنان الذي بعثته في النفوس قليلًا: يعرف الناس في «الجابرية» أن ما تبقى من أهل «نبوية» قد ماتوا أيام الوباء.

قال «جعفر»: نبوية هي الوتد القديم المدقوق لنا في «الجابرية» قبل أن يحل فيها الشيخ «صفي الدين». واقترح أن تذهب «خضرة»

إليها وتنبئها بأنها أثناء ذهابها وإيابها في القرى مرت ببيوت أقرباء لزوجها، وأنها ليست مقطوعة من شجرة، كما تقول.

ضحكت «عزة» وقالت: قد تظن أننا نريد حقنا في ميراث زوجها.

قالت «رقية»: أظن أن زوجها لم يترك ما يطمع أحد فيه، إنه من الفرع الفقير في «الصوابر» الذي قضى عمره كادحًا في الحقول.

(24)

رفعت «خضرة» قفتها التي يحط في قعرها الرمل ويتوزع عليه الودع، واستعادت هيأتها التي رآها أهل «الجابرية» عليها من قبل، وسبقتهم لتمهد لهم الطريق. حين وصلت ذهبت إلى بيت «نبوية» مباشرة، فلما رأتها قالت لها: جئتكِ بخبر طيب. وحكت لها عن أهل زوجها الذين التقتهم في «إسنا»، والمرأة فرحة بما تسمعه، ثم امتلأ وجهها دهشة، حين أمسكت «خضرة» يدها وقالت لها، وهي تنظر في عينيها: تركتهم يعتزمون زيارتك، لكنهم يخشون العواقب.

سألتها في لهفة: أي عواقب؟

- يخافون من أن يعرف «الجوابر» مَن هم، فيطردونهم كما فعلوا في الزمن القديم.

وجمت «نبوية» لا تعرف بماذا تجيب، لكن «خضرة» اختصرت لها الطريق، وقالت: قولي إنهم من أهل أبيك.

هزت رأسها، وقالت: إن كان هذا يريحهم، سأقوله.

قالت «خضرة»: أعرف أن هذا ما يريحهم، والودع ينبئني به.

ثم فاجأتها، وقالت: شيخ الزاوية يعرف حكايتهم، وهو أمين عليهم مثلك تمامًا.

ابتسمت «نبوية»، وقالت: طبيعي أن يؤتمن مجذوب إلى مَن انحدورا من نسل أمثاله.

كان زوجها قد ملأ رأسها بحكايات عن أهله الذين تفرقوا في البلاد، وفارق الدنيا وهو يتمنى لقاءهم في أي مكان أو زمان، ليجتمع شملهم بعد أن ابتلعتهم البلاد والأيام. استدعت ما سمعته منه في ساعة الصفاء والحنين، وقالت وهي تدوس على حروف الكلام: أشعر بأن روحه تطوف حولنا فرحانة.

ابتسمت «خضرة» مطمئنة إلى ما حققته من تقريب البعيد، وقالت: أهل زوجك مستورين، ومعهم ستعيشين في عز يتمناه أي أحد.

فاجأتها «نبوية» حين قالت لها: خذيني إليهم، ليتم اللقاء.

صمتت «خضرة» برهة، وقالت: من الأفضل أن يجمعكم المكان الذي شهد أيام عز الأجداد الطيبين. واستأذنتها في زيارة «الزاوية» فاستقبلها الشيخ «صفي الدين» بوجه باش، وقال: يتلاقى الساعون للخير دومًا.

(25)

كان لا بد أن يذهب «عمر»، فهو مَن عرفته «الجابرية» على أنه مريد شيخ الزاوية، و«جعفر» لأنه مَن يثقون في قدرته على التفاوض مع «زاهر» على الأرض؛ لهذا وقع الاختيار على «محمود» أن يبقى ليبيع البغال وعربات الكارو وبقية الأثاث الذي تركوه في

البيت، ويتسلم أجره وأجر «جعفر» المتأخر لدى وكالة الجداوي، ويُصفّي إيجار البيت مع أصحابه.

حزمت الأسرة ملابسها، ولفّ «جعفر» الصناديق الثلاثة التي تحوي النقود والذهب في أربطة من الخيش، ثم وضعها في زكيبة، وكدس حولها ملابس قديمة، حتى لا تصدر شخللة فيسمعها طامع أو لص، وأحكم ربطها. استأجروا مركبًا يمضي بهم إلى «الجابرية»، ولم يرضوا أن يستقلوا واحدًا من حاملي البضائع، كما اعتاد الناس، حتى يكون النساء والمال في أمان.

وسألوا صاحب المركب إن كان يعرف «الجابرية»، فقال لهم: لا يخفى عليّ نجع ولا قرية تطل على النيل ولو من بعيد.

(26)

أين جدي؟ في أي قبر قد دفن هنا؟ أو في أي بيت قد سكن؟ أو في أي زاوية قد اعتكف راضيًا بما قسمه الله له؟ على أي فرس هام في الزروع؟ أين الصوامع والشون والحظائر والإسطبلات؟ أين ما كان لنا في الزمان الأول؟

نشبت الأسئلة أظافرها الحادة في رأس «جعفر»، والمركب يقترب من شاطئ «الجابرية»، وانجابت أمامه الحكايات تتهادى فوق صفحة النهر الساري على مهل، ثم ارتفعت حتى حطت على هامات الشجر والنخل الذي بدت وسطه بيوت خفيضة، على طرفها سرايا تنطق بآيات العز والأبهة. حين رآها أكبرها، وسأل نفسه: هل أنام في يوم قريب في أي من مخادعها؟

(27)

رمى المراكبي الهلب الحديدي، فانغرس في الطين. مد السقّالة فحطت على الرمل المخلوط بالتراب. طلب منهم النزول. أخذ كل منهم ما يستطيع، وحمل «جعفر» الزكيبة التي تحوي النقود والذهب. وضعها على الشاطئ في هدوء، وألقت النسوة فوقها بقج الملابس المربوطة. دفع للمراكبي أجرته، فرفع سقالته، وسحب الهلب، ثم اندفع في الماء يجدف عكس التيار راجعًا من حيث أتى.

كانت شمس العصاري تفرش نضارها على الحقول، وترميه في الماء، حتى يحسبه المفلس ذهبًا يتهادى إليه. أعطى «جعفر» ظهره للنهر، وصعد إلى أعلى لعله يجد مَن يؤجر لهم حميرًا تحمل أشياءهم إلى بيت «نبوية» والزاوية.

أرسل بصره فإذا بالأرض بور، لا أحد فيها، يتقافز فوقها الجراد، وتحط العصافير واليمام يلتقط رزقه ثم يطير. مشى قليلًا، وصعد إلى الجسر، وقلّب عينيه يمنة ويسرة فلم تظهر له سوى زاوية على طرف البيوت تنيخ إلى جوارها مقابر مهملة.

في الجانب الغربي البعيد تراءى له فلاحون انحنت ظهورهم، وسط زرع أخضر، أراد أن ينادي أيًا منهم، لكنه ابتلع صوته، فهم لن يسمعوه، وإن سمعوا فقد لا يأتي أحد لمساعدته، وإن أتوا فلا يعرف كيف يواجه أسئلة في عيونهم أو تنطق بها ألسنتهم.

عاد إلى الواقفين في انتظاره عند الشاطئ، وقال: لا حيلة لنا إلا حمل ما معنا قبل غروب الشمس.

رفعت النسوة بقج الملابس فوق رؤوسهن. حمل «جعفر» الزكيبة الثمينة. حمل «عمر» أربطة تحوي أواني وأحذية وبقايا طعام. ساروا على مهل. كلما تعبوا توقفوا، وأنزلوا حملهم على الأرض، ثم رفعوه فوق أجسادهم من جديد، حتى بلغوا أول شارع في «الجابرية» مع حلول الغروب.

(28)

في اليوم التالي ثرثرت النساء في البيوت، والفلاحون في الغيطان، والساهرون على المصاطب، عن نسوة أتين إلى بيت «نبوية» يُقال إنهن قريباتها، بينهن امرأتان ليس في جمالهما أحد في «الجابرية». تحدثوا أيضًا عن مريد آخر انضم إلى شيخ الزاوية.

وصل الخبر إلى العمدة فقال غاضبًا: لا يدخل غريب إلى هنا إلا بإذني. وأرسل خفيرًا لاستدعاء «نبوية» فذهبت إليه ترتجف، فلما رآها قال لها ساخرًا: لم أكن أعرف أن لكِ أقرباء.

ردت بصوت خفيض: هناك مَن دلهم عليّ، ولا يهان ضيف في قرية أنت كبيرها.

استملح ما سمعه منها، رغم أنه يعرف أن كبير القرية هو الوجيه «زياد»، وابنه الذي لا يريد أن يكون كبيرًا هنا في هذه القرية. تنحنح، وقال: كان من الواجب أن تبلغيني قبل قدومهم.

ردت في رجاء: جاءوني فجأة وكنت أنوي إبلاغك لكن سرقني وقت الضيافة.

هز رأسه، ونادى خادمه، وقال له: أعطها ما تُكرم به ضيوفها.

راحت تدعو له بالستر وطول العمر. ورأى هو في دعوتها نافذة تفتح على رغبته في رؤية النساء الغريبات، ليستوثق مما حكاه الفلاحون عن جمال اثنتين منهن، واحدة تجاوزت الخمسين دون أن يسرق الزمن منها كل جمالها، والثانية فتاة يقول عنها الناس إنها تقول للقمر انزل لأجلس مكانك.

(29)

وقع العمدة في غرام «رسمية»، رآها والشمس تسكب حمرتها على خدها الأسيل عند الزاوية، فتوهج قلبه. كان رجلًا شهوانيًا، له امرأة وحيدة تصده دومًا، وسرى في نفسه عزم مرات على تطليقها، لكن ابنتيه تصدين له، ورأى هو أن من العيب أن يقبل على خطوة، تجعل الناس يلوكون سيرته.

ضبطته ابنتاه مرات يتحرش بالخادمات، وطردتا اثنتين منهن خارج «الجابرية» وقيلت للناس ذرائع أخرى واهية. شكا لابنتيه مما تفعله معه أمهما، فقالت له إحداهن ذات يوم: تزوج أكرم لك.

كان هو، كعادة الرجال في هذا المكان والزمان، يؤمن بأن امرأته قد حرمته من إنجاب ولد، يرث الأرض والعمدية. شغله هذا سنوات، لكن الأيام سارت به دون أن يُقدم على الزواج. كان كلما استملح امرأة رفضتها ابنتاه، فهذه ليست من مقامه، وتلك جف رحمها، وثالثة سيئة السمعة، ورابعة تقع في غرام فتى يماثلها في العمر.

رأى «العمدة» أن الباب إلى «رسمية» مفتوح، فهو قد حسبها فقيرة، بلا حسب ولا نسب، ومثلها ستفرح بأن يكون مقامها بيت العمدة، وأهلها سيرحبون على الفور بمصاهرة كبير القرية، بحثًا عن

مستقر بعد غربة، وشبع بعد جوع، وأمان بعد خوف.

كانت النسوة قد أقمن في بيت «نبوية»، و أقام «جعفر» و«عمر» في الزاوية، حيث دفنوا داخلها الزكيبة التي تحوي صناديق النقود والذهب. حرصوا على ألا يعرف أهل القرية، أنهم أسرة واحدة، على الأقل قبل شراء الأرض.

طرق العمدة ذات مساء باب «نبوية»، فلما فتحت ورأته، أشارت إلى النساء أن يسرعن إلى الداخل، فخلت له الصالة. جلس على حصير، متكئًا على حاشية من القطن. وقالت «نبوية» في ارتباك: المكان ليس على قدر المقام. فابتسم، وقال لها: لا فرق بيننا، نحن أهل.

كانت تسمع منه هذا لأول مرة، فارتابت في أمره، لكنها انشغلت بما يجب عليها فعله في هذا الموقف. خيّرته بين شرب الينسون والقرفة والزنجبيل، فقال لها: الجودة بالموجود. فلما عادت إليه، رشف رشفات متتابعات من كوب القرفة، وقال: المرة القادمة سنشرب الشربات. ارتبكت، لكنها تماسكت واكتفت بالقول: زاد الله من أفراحك يا عمدتنا.

وسألها عمن تكون «رسمية»، فأدركت ما يرمي إليه، وكانت تعرف أنه نوى الزواج غير مرة ثم تراجع. قالت له: هي ابنة واحدة من ضيفاتي.

لم يُضع وقتًا، وقال: أريد أن أطلبها من أمها، ولك الحلوان إن وافقت.

أجابت على الفور: لو الأمر بيدي لن أتأخر عنك.

قال، وهو ينهض، ملتقطًا عباءته وعصا الأبنوس التي يختال بها: جئت من الباب، وفتحت الكلام، وعليكِ البقية.

ونقلت إليهن «نبوية» طلب العمدة، وشرحت لهن ما هو فيه، فقالت «ناعسة»: هو في عمر أبيها، وله زوجة وابنتان.

قالت «نبوية»: لا يعيب الرجل سوى جيبه، ومصاهرة العمدة ستدق لكم أوتادًا غليظة في القرية.

كانت كل امرأة تريدها لابنها، لكنّ أيًّا منهما لم تفاتح أمها، ولا الفتاة في هذا، ظنت كل منهما أنه أمر مفروغ منه، إلى أن سمعت كلتاهما من ابنيهما، ذات يوم، أنهما يعتبران «رسمية» أختهما، ولا يتعدى النظر إليها عند أي منهما هذه العتبة.

تداولوا الأمر، متقلبين بين خوف من الرفض، وخوف من القبول، فانتهوا إلى أن يجعلوا الباب مواربًا، لعل الأيام القادمة، تمكنهم من قولة صريحة لا اعوجاج فيها.

(30)

توالت خطوات الشيخ «صفي الدين» على الطريق الذي فتحه إلى سرايا الوجيه «زياد». كانت «حورية» تبدي له امتنانها الشديد لحرصه على زيارة زوجها، بعد أن رأت على وجه الرجل القعيد، بلا حول ولا طول، فرحة كلما لمح الشيخ داخلًا إليه.

في يوم اصطحب الشيخ معه «جعفر» و«عمر» إلى السرايا. كانا مترددين، يقاومان خجلًا وتوجسًا، لكن «صفي الدين» طمأنهما إلى

أن طريقه إلى بيت الوجيه صار هينًا، وأنهما لا بد أن يريا الرجل الذي يسعيان إلى شراء أرضه، سواء كان هذا في حياته أو بعد رحيله.

كان «جعفر» و«عمر» يتطلعان إلى رؤية الفتاة الحسناء التي وصفتها لهما «خضرة»، وتنتظر أمها أن يأتي إليها مَن يستحقها فيخطبها. لهذا استجابا في النهاية لطلب الشيخ.

وقف الشيخ عند باب سور الحديقة الخارجية، وكان كل مَن في السرايا يعرفون أن سيدهم يحب مجيئه. هرع إليه الخفير، فقال له: أخبر سيدتك أن معي شابين، يطيب لهما مقابلة الوجيه.

أرسل «جعفر» و«عمر» بصريهما إلى السور الطويل، وأشجار الوحواح متراصة إلى جانبه، تعلوها عراجين نخل موزع بانتظام في صف يتلوها. انثالت رائحة ورد في المكان، فمدوا أنوفهم يسحبون منها على مهل، وينظرون إلى ما أظهره الباب من منظرها البديع.

جاء الخفير تتبعه خادمة، فقادتهم إلى الداخل. كان «جعفر» يتلفت يمنة ويسرة، مستطيبًا أحواض الورد، ومتابعًا النحل الذي يحط عليها، والعصافير التي تحوم حولها، ثم ترتفع إلى حيث أعشاشها على فروع أشجار الكافور بالداخل. تابع عصفورًا ذا ألوان بديعة، فإذا به يعلو ويحط على نافذة مواربة. فجأة انخطف «جعفر» إلى وجه مليح يطل على استحياء. انتبه الشيخ «صفي الدين» إلى ذهاب بصر الشاب في اتجاه النافذة فابتسم، وقال: هي «عبلة» ابنة الوجيه التي حكيت لك عنها.

كانت «خضرة» قد أسهبت في وصفها له حين التقتها لتستطلع حظها من الدنيا، فأدرك «جعفر» أن الخادمة لم تبالغ أبدًا. تعجب وهو

يمضي نحو باب السرايا من أن تظل مثلها بلا زواج، لكنه كان يدرك أن الجميلة الثرية لا يكون الطريق إليها مفتوحًا بسهولة، فمَن ذا الذي بوسعه أن يتقدم إليها دون أن يكافئها حسبًا ومالًا، ويكون وسيمًا أيضًا.

هو لا ينقصه شيء من هذا، لكن كشف حسبه وماله مبكرًا قد يبدد الغاية الكبرى التي توارثتها الأجيال في «آل صابر»، ويجد أن الزمان قد ادخرها كل هذه السنين، وحفظها الرجال، كي تتحقق على يديه.

قدم الشيخ «صفي الدين» الشابين إلى «حورية» على أنهما مريدان مخلصان، يعتبرهما ولديه، ويسكنان معه الزاوية. انسحب في نفسها جزء من بركته عليهما، فاستراحت لرؤيتهما، وسمحت لهما بأن يصحباه إلى غرفة الوجيه.

لم يخرج الشيخ عما يفعله حين يلقى العاجز، أمّ الثلاثة في صلاة الظهر، وأطال الدعاء للوجيه بالشفاء والبركة والسكينة، ودعا لابنه «زاهر» أن يرقق الله قلبه على والديه. الشيء المختلف هذه المرة أنه طلب للوجيه طعامًا، وجلس إلى جانبه يضع اللقيمات في فمه، ويمسح ما يتناثر منها على صدره بمنديل نظيف. كان «جعفر» و«عمر» يأكلان معهما، فلما انتهوا، نظر إلى الوجيه، وقال: مَن أكل طعام الكرام لا يخونهم.

فوجئ «جعفر» و«عمر» بالشيخ يقول للوجيه: لو أوكلت أمر الأرض إلى الشابين لانتهى بوارها.

أرسل الوجيه عينيه إلى الشابين، واهتزت شفتاه بابتسامة، وغمغم بما لم يعرفه «جعفر» و«عمر»، لكن الشيخ كان قد تعود على إيماءاته

وإشاراته، فأيقن من موافقته. عندها نهض ومشى خطوات نحو باب الحجرة، ونادى الخادمة، وطلب منها أن تستدعي سيدتها. كرر ما طلب أمام «حورية»، فقالت: لا أعرف أن مريدي الطريق لهم في الزراعة. فضحك الشيخ «صفي الدين» وقال: قامت الزراعة هنا في الزمن البعيد على أكتاف المجاذيب.

كان «زياد» يعرف هذا، إذ انتقل إليه من أبيه، الذي ورثه عن جده، حتى الجد الأول الذي خُصص له التزام، كبر حين خرج «الصوابر» من القرية، لهذا هز رأسه قليلًا، فأدركت «حورية» أنه يرحب بما عرضه عليه الشيخ، لكنها قالت: لا أعتقد أن شيئًا من هذا سيتحقق طالما «زاهر» يعتزم بيع الأرض.

ارتعشت شفتا «زياد» بابتسامة ساخرة، قرأتها زوجته، وقالت: لا نملك كل الأرض، فأغلبها معنا كحق انتفاع.

فوجئ «جعفر»، و«عمر» بما سمعاه، تقلبا بين فرح وحزن. فرحا لأن ما معهما من مال لن يكفي شراء كل ما يزرعه الوجيه، وحزنا لأن أرض «الجابرية» لن تعود إلى «الصوابر»، فبعضها يزرعه العمدة، وبعضها يملكه أهل الحكم، وهؤلاء يأخذون ولا يعطون.

سأل «جعفر»: وهل هذا يخفى على «زاهر»؟

أجابته «حورية»: لا، هو يريد بيع ما نملك، والحصول على خلو رجل من منتفع جديد.

(31)

احتارت النسوة والشبان الثلاثة في أي خيار يسلكون؟ المال الذي

معهم قد يكفي شراء الأرض المملوكة للوجيه، لكنها تمثل الجزء الأصغر مما يزرعه. جزء كبير من المال يكفي لاقتناص أرض الانتفاع، وما يبقى يُمكنهم من بناء بيت على طرف الأرض، أو إلى جانب الزاوية.

اقتحام هذه العقبة يقتضي عبور ما هي أكبر منها. فمَن ذا الذي يقتنع بأن ثلاثة شباب من مريدي شيخ، لا يملك شيئًا من حطام الدنيا، لديهم مال يشتري أرضًا ويبني بيتًا، اللهم إلا إذا آمن الناس بأنهم لصوص نهبوا بيت أحد الأثرياء في بلد بعيد، وفروا إلى «الجابرية» متسترين بقناع أهل الطريق.

وعدهم الشيخ «صفي الدين» بأنه سيجد مخرجًا لهم، فقال له «محمود» الذي كان قد انضم إليهم بعد أن أنهى مهمته في «إسنا»: المهم ألا تغمض عيوننا عن الأرض حتى لا يسبقنا أحد ويخطفها منا.

رد الشيخ «صفي الدين»، وقال: لن يرضى أحد بشراء أرض متنازع عليها.

(32)

اكتشفت «أم الخير» أن زوجها رجلًا ضائعًا. حين رآها تكدح عند المعبد نهارًا، ماهرة في التقاط الرزق، نصب شباكه حولها. أمطرها بمعسول الكلام، الذي لم يكن يملك غيره. لاحقها مرات واختلى بها في مكان بين المعبد والوكالة. حدثها عن أنه رجل «كسيب»، فإذا به عاطل، فاقد الصبر والمثابرة، يتنقل بين عمل وآخر؛ لأن أصحابه لا يطيقون بخله بجهده، وإثارته المشكلات مع الآخرين.

عمل مع مراكبية كانوا يحملون البضائع من أسوان إلى القاهرة، وعمل حمالًا في وكالة الجداوي، وقهوجيًا في مقهى قريب منها، وساعد نجارًا وحدادًا وصاحب دكان، وعمل سايس إسطبل في قرية قريبة، وعزق أيامًا في أرضها. ما إن يستقر في مكان حتى يتركه، متوهمًا أنه لم يُخلق لهذه الأفعال الشاقة.

ما إن أغلق عليهما باب غرفة استأجرها فوق سطح أحد البيوت حتى استملح البقاء في مخدعه، ينفق مما كانت هي قد ادخرته، وما أعطاه لها الذين ظلت سنوات في خدمتهم، وكلما حدثته عن خروجه للكد، قال لها: هناك عمل أفضل أنتظره.

اكتشفت ذات ليلة أن العمل الذي ينتظره لم يكن سوى السرقة. جاء إلى غرفته ذات ليلة أربعة رجال، خشنو الملامح، زائغو البصر. التهموا ما أعدته لهم من طعام. دخنوا الجوزة التي اصطحبوها معهم، بعد أن دسوا في المعسل قطعًا من الحشيش. كانوا يتهامسون حتى لا يصل حديثهم إلى سمعها، لكنها التقطت ما يكفي لتعرف أنهم عصابة.

صرخت فيه بعد انصرافهم: لن آكل من حرام.

لطمها على وجهها. دفعها في صدرها فأسقطها على الأرض. ركب فوقها وراح يمطرها صفعًا ولكمًا، وهي تصرخ غير عابئة بالفضيحة التي تندفع من النافذة إلى الجيران. قام وركلها بقدمه فتكومت تنتحب متحسرة على حظها الأسود الذي أوقعها في رجل لا يُعتمد عليه.

قاطعته أيامًا مكتفية بالبكاء كلما نظر إليها، لعلها تجد في قلبه

بقايا شفقة يمكن أن تنفذ منها إلى إقناعه بالابتعاد عن العصابة، والانخراط في عمل حلال. كان يعرف أنها بلا أهل، وليس أمامها من سبيل سوى البقاء معه حتى لو واصل الاعتداء عليها.

حين اشتعلت في جسده الرغبة واقترب منها صدته في عزم، وقالت: جسدي حرام على الحرامي. نظر إليها في غيظ. هجم عليها وألقاها على مفرش من القطن فوق حصير جديد. اعتلاها وثبت ذراعيها. رمى جسده عليها، بينما يده تجردها من سروالها، ثم التحم بها، وهي تجأر وتقاوم، حتى تراخت عزيمتها، فاستسلمت له، وهو يطعن ويعض رقبتها ولعابه يسيل عليها، ونار عرقه تبلل نارها، وسعاره يمرق في أحشائها، حتى وجدت نفسها تطوق جسده، ناسية أي شيء سوى ما هي فيه.

كان هو يؤمن أن المرأة إن شبعت من زوجها تحملت قسوته، وكانت هي قد احترقت سنين في انتظار مَن يطفئ نارها، فصار وقت المضاجعة فقط هو الذي يحل فيه بينهما الغفران والنسيان. لكن المرأة لا تكتمل في عينيها رجولة زوجها إلا إذا وسّع لها عيشها من كده، فكان وقت الخلاف والنكد بينهما أطول كثيرًا من وقت الاتفاق.

وجدت السخط يكاد يفتك بها ذات يوم فهددته قائلة: إن لم تنتظم في عمل حلال سأترك البيت.

قهقه ساخرًا، وقال: غرفة حقيرة ليست بيتًا، ولا أهل لك لتذهبي إليهم.

نظرت إليه في تحد، وقالت: أهلي سبقوني إلى «الجابرية»، وإن

عدت إليهم سيرحبون بي.

كان يعرف «الجابرية»، فطالما مر بها وقت عمله مع المراكبية، فقال لها: لو كنت عزيزة عليهم؛ لأخذوني معهم، ووجدوا لي رزقًا هينًا.

ذات صباح قال لها: سأغيب يومين فلا تقلقي. فانتهزت الفرصة للهرب. صرت ملابسها في ملاءة، وحملتها فوق رأسها متوجهة إلى المرسى. أقلها مركب شراعي إلى مرسى آخر قريب من «الجابرية»، كان المراكبية يستريحون عنده ساعة يتناولون فيها الطعام والشراب.

وصلت إلى بيت «نبوية» عند الظهر، فلما رأتها النسوة فرحن، وهن يظننها قد جاءت زائرة، فإذا بها تبكي على أكتافهن، وتضج بالشكوى من الرجل الذي ساقها إليه حظها التعيس. ولمّا سألنها عن سبب غضبها منه، اكتفت بالقول: يضربني ليل نهار.

لم تكن أي منهن قد تفادت ضرب زوجها ولو مرة واحدة في حياتها، فقلن لها: نكد ويروح لحاله.

حين عاد «حفني» إلى الغرفة لم يجدها، سأل جارة عجوزًا تسكن غرفة مقابلة، طالما كانت تسمع صراخ «أم الخير» وتشفق عليها، فقالت له: رأيتها تحمل بقجة هدومها قبل يومين، وأغلقت الغرفة ومشيت.

كان يعرف أنها بلا أهل في «إسنا»، فأدرك على الفور أنها نفذت وعيدها، ورحلت إلى «الجابرية». فكر في أن يذهب للتو خلفها، لكنه آثر أن ينتظر أيامًا حتى تبرد أعصابها، ويكون هو قد فرغ من

سرقة خططت لها العصابة، فيصبح بيده مال يوفر له نفقات السفر، ويظهره أمام «الصوابر» بمظهر القادر على الإنفاق، فيعزز حجته في استعادتها.

كانت «أم الخير» قد انقبضت فور دخولها بيت «نبوية». وجدت السيدات اللاتي عشن زمنًا في بحبوحة يضيق بهن المكان. يتحلقن وقت الطعام حول طبقين من الخوص كأي أسرة فقيرة، فإن جاء موعد النوم تلاصقن فوق حصر من البوص.

اقتربت ذات صباح من «رقية»، وسألتها: ما يجبرك يا سيدتي على هذا العيش، وأنتم في غنى عنه.

ابتسمت، وقالت لها: المضطر يركب الصعب.

عرفت في ثرثرات النساء أن الثروة التي حملوها معهم من «إسنا» تستقر منتظرة اليوم الذي تخرج فيه لشراء الأرض، وبناء سرايا تليق بالصوابر. حين همست في أذن «خضرة» سائلة إياها عما إذا كانت صناديق المال والذهب لا تزال موجودة أم فقدها الشبان وأمهاتهم وستطول حياتهم الشاقة، التي لا يحتاجون فيها إلى خادمات، أبلغتها أنهم قد دفنوها في أرضية الزاوية، إلى أن تأتي ساعتها.

ولأن هذه الساعة لا يعرفها أي منهم على وجه الدقة، أدركت «أم الخير» أن بقاءها هنا يمثل عبئًا على أناس لم يكفوا عن الإحسان إليها، حتى وهم في أحلك الظروف. فكرت في العودة، لكنها خشيت إن فعلتها يزيد «حفني» في الإساءة إليها، فصبرت حتى يأتي إليها، معولة على أن رجلًا مستعر الاشتهاء مثله لن يُطيق صبرًا على فراقها.

لم يتأخر «حفني». طرق باب بيت «نبوية» ذات صبح، وقابلته «أم الخير» بوجه عابس، وقلب طروب. قالت له «رقية»، حين طلب من زوجته أن تعود معه: لها رجال لهم القرار. وقادته «خضرة» إلى الزاوية، مشى أمامها، وهي خلفه تدله، دون أن تكشف عن وجهها حتى لا تفطن النساء إليها. كانت قد غيرت هيأتها، خلعت القرط المعلق في طرف أنفها، وأزالت الوشم من ذقنها، وارتدت جلبابًا مثل الذي ترتديه زوجات الفلاحين، ومع هذا قدرت حساب ظنون صاحبات الذاكرة القوية.

لمّا وصل «حفني» إلى الزاوية كان عليه أن يصبر على توبيخ الشيخ، وعتاب الشبان الثلاثة. كانت له قدرة عجيبة على تقمص الأدوار، فارتدى لباس الزاهدين، لا سيما بعد أن أدرك أن زوجته حفظت سره، ولم تتحدث سوى عن اعتدائه عليها.

ارتاب الشيخ «صفي الدين» فيه رغم تظاهره بالخضوع، لكنه قدم حسن الظن على ما سواه، ولم يرد أن يفرق بين رجل وأسرته، بعد أن همست «خضرة» في أذنه قائلة: ظهرت على «أم الخير» علامات الحمل.

لم يكن «حفني» يعرف، فقال له الشيخ: ضرب المرأة الحامل جريمة مضاعفة.

اضطربت مشاعر «حفني» حين سمع الخبر، وسرى في أوصاله إحساس تختلط فيه المسؤولية بالذنب، دون أن يعرف إن كان هذا سيستقر في نفسه، أم تجرفه نوازعه الشريرة. كان موعد صلاة العصر قد حان، فأمره الشيخ بأن يتوضأ مع الشبان، فقال: لا أعرف

الوضوء يا مولانا.

رمقه الشيخ بغيظ، وقال لـ «جعفر»: علمه، لعلها تكون أولى خطواته نحو الهداية.

صلى معهم، وأنصت إلى شروطهم بإمعان، ووافق عليها دون تردد. لم تكن سوى كف عن الاعتداء على «أم الخير»، ومراعاتها في شهور حملها، والإخلاص لوليدها حين يطل على الدنيا.

ما إن ركبا المركب نحو «إسنا»، حتى قال لها: هربتِ من الفقر إلى فقر، وليس بوسع مجاذيب ونسوة تفترشن الأرض أن يوفروا لكِ ما تستغنين به عن بيتك.

نظرت إليه في اشمئزاز، وقالت: مثلك لا يرى سوى ظاهر الأشياء.

لم تمر سوى أيام حتى عاد إلى غلظته معها، بعد أن أيقن أنها لن تلجأ إلى «الجابرية» مرة أخرى، ثم عيّرها بفقر مَن لاذت بهم، فصرخت في وجهه: ستكون لهم أرض وسرايات.

قهقه، وقال: رجعتِ من مشوارك واسعة الخيال.

أعطته ظهرها، وقالت في غيظ: لديهم ما يجعل ألفًا من أمثالك يتمنون أن يخدموا في بيوتهم.

استيقظ داخله اللص الذي فارقه أيامًا معدودات، حين رأى صدقًا في عينيها وهي تحدثه عن ثراء «الصوابر»، فقال: ربما تكونين على حق، لكن هذا لا يخلو من سر غريب.

وفاتح «حفني» أفراد العصابة، حين التقاهم في المقهى، بما سمعه

من زوجته، فقال له كبيرهم: جارها لتعرف أكثر. ولذا رأت منه في الأيام اللاحقة ودًا غير معهود، حتى جاءت ليلة ضاجعها فيها ثلاث مرات وهي تصرخ تحته من فرط اللذة، ثم مد ذراعه، وأخذ رأسها إلى صدره، وراح يمسد شعرها في حنان، وهي تغمض عينيها في امتنان. وحين أدرك أنها مهيأة للمرثرة، فتح باب الكلام عن «الصوابر».

كان يحاذر من سؤالها عما يريده، وإن كان قد وجد طريقًا إلى نفسها، لتبوح أكثر، حين قال: يا ليت ما تقولينه عن ثراء «الصوابر» يكون صحيحًا، سيعود على ابننا شيء مما لديهم، حتى لو كانت صدقة. لاذت بالصمت، وإن كانت قد استحسنت كلامه، فواصل: مَن يدري أن تكون لهم أرض وسرايا، لنخرج من هذه الغرفة الكئيبة، ونعيش هناك في «الجابرية». سبق لي الشغل بالفلاحة، وستكون فرصة طيبة لنأكل لقمة حلالًا.

فتح أمامها نافذة لوعد جديد، فقد كانت تعاني من الوحدة، وعلى قدر ما حزنت للحال التي آلت إليها الأسرة التي هبطت من ثراء إلى سترة ثم فقر عابر، فابتهجت لفكرة اللحاق بها في قابل الأيام.

لم يأتِ فجر هذه الليلة حتى كان «حفني» قد عرف أن للصوابر ثروة مخبأة في الزاوية التي زارها، وصلى بها، واعتقد شيخها أنها ستكون بداية طريق جديد يسلكه، لكن منذ متى كان الناس يقفزون فجأة من ظلام الدنس إلى النور المقدس إلا بمعجزة؟ وكيف للمعجزات أن تحط رحالها في هذه الغرفة الكئيبة؟

ونقل ما عرفه للعصابة، فابتهجوا، وقال كبيرهم: هذا ما يستحق

أن ننشغل به حتى نناله.

ووضعوا خطة أوعزت لهم بها شياطينهم، واطمأنوا في جلستهم إلى أنها نافذة، وستنتهي إلى اقتناص الخبيئة الثمينة، التي أهدتها الجبال في زمن بعيد، لتستقر في الطين.

تسلل اللصوص ليلًا إلى «الجابرية». كان القمر قد غاب مبكرًا، واستكان الزرع تحت الظلمة العميقة، يقض مضجعه نقيق الضفادع، وصرير الجنادب، ورفيف البوم الساعي إلى الفئران الشاردة، ونباح الكلاب من بعيد ينافسه مواء القطط. لكن شيئًا من هذا لا يصل إلى آذان الذين يغطون في سبات عميق، داخل الغرف المقبضة.

وصل اللصوص إلى قمح حان حصاده، بالقرب من الزاوية. ربضوا فيه يسترقون السمع حتى يطمئنوا إلى أن أحدًا لا يسمعهم أو يراهم. خلص لهم من طيات الظلام شبح يمشي فوق الجسر، ثم سمعوا دقات عكازه إن اصطدمت بحجر أو بقعة صلدة وسط التراب الناعم. قال كبيرهم: يبدو أنه خفير الزراعة.

فقال «حفني» هامسًا: ننتظر حتى يمضي بعيدًا.

لكن آخر قال: بالعكس، هذا ما نريده.

أشعلوا النار في القمح، وصرخوا كأنهم أصحابه، فصرخ الخفير، وزعقت امرأة هناك فوق بيت، ربما كانت تطمئن على كتاكيتها من هجوم القطط الضالة. كمن اللصوص بعيدًا عن سريان النار، ورأوا أربعة رجال يخرجون من الزاوية، ويجرون نحو ألسنة اللهب، وظهر رجال هناك يوسعون خطاهم جريًا، وهم في صراخ ولوعة.

حين انهمك الجميع في إطفاء النار، التي كان اللصوص قد وزعوها على أماكن عدة حتى لا يسهل إطفاؤها إلى أن ينتهوا مما يقصدون، تسللوا هم إلى الزاوية. رفعوا الحصر، وضربوا الفؤوس في أماكن متفرقة، حتى علق في أحدها شيء، فقال: هنا، احفروا هنا.

توالت الضربات في سرعة، حتى أطلت فوهة الزكيبة، فالتقطها اثنان منهم يسحبونها، بينما الآخرون يشرخون التراب المكدس حولها، حتى خلصت لهم، فرفعها أكثرهم قوة فوق كتفه. في سرعة خاطفة مد الرجال فؤوسهم إلى الأرض المنبوشة، فردوها إلى استوائها، بعد أن ضربوها بظهور الفؤوس، وكدسوها بأقدامهم، ثم خطفوا الحصر وفرشوها كما كانت، كي يؤخروا اكتشاف السرقة حتى الصباح.

راح حامل الخبيئة يهرب في اتجاه النهر، وبقية العصابة تجري خلفه، حتى وصلوا إلى الماء. كان في انتظارهم قارب أجّروه، حمله المركب في مجيئهم إلى المرسى القريب من «الجابرية»، وكان بالمركب رجل يحسن التجديف، فلما قفزوا إليه، راح يدفعه في اتجاه سريان الموج الخفيف، حتى ابتلعهم الظلام.

(33)

تكاثر الرجال على النار فأخمدوها، لكن نارًا أخرى ظلت مشتعلة في قلوب مَن خرقت أقماحهم. كان الشيخ والشبان الثلاثة الأكثر إقدامًا في ضرب ألسنة جهنم كي تخرس، فلمّا خرست، سمعت آذانهم كلمات الامتنان من الفلاحين، فشعروا بأن هذه الكارثة قد قربتهم من أهل «الجابرية».

مضوا وآذانهم حاملة عبارات الشكر والدعاء، حتى أسقطهم التعب أمام الزاوية فناموا متقلبين بين حزن على أقوات الكادحين، وفرح من هذا الدرب الذي فتح لهم فجأة قلوبًا لم يطرقوا أبوابها من قبل.

كان الشيخ أول مَن استيقظ عند صلاة الفجر، فدخل إلى الزاوية، شعر بأن قدميه تتعثران في تراب لدن. جلس في الظلمة الرائقة يتحسسه. ظن أن ما مسه جاء من عجيج أثاره الذين هرعوا نحو النار، وربما داسوا في لهفتهم أرض الزاوية بأقدامهم الحافية، فنبشتها أظافرهم الخشنة الحادة.

أيقظ الشبان، فتوضأوا، وصلوا فوق الحصير الذي ناموا عليه أمام الزاوية، فلمّا انتهوا، كان النور قد أخذ يزحف فوق الزرع، ثم يتسلل إليهم، حتى بان لهم ما أخفته الظلمة عنهم.

كان «جعفر» هو أول مَن دخل الزاوية، ليواصل نومه بعد هذه المعركة الحامية. وقعت عيناه على تراب لدن، فارتجف قلبه. تلفت حوله، فبان له نبش على طرف الحصير، فرفعها ثم صرخ. هرع إليه الشيخ والشابان ورأوه وهو يجثو على ركبتيه، ينبش بأصابعه في لهفة ووجع، فلم يجد الخبيئة مكانها.

جاء صوت القوال يخالط عزفًا حزينًا. سرى الرباب فوق الزرع، وتسلل كسيرًا من نوافذ البيوت الخفيضة، ثم اضطرب من فرط اللوعة والخرقة حين لامس دموع نسوة يبكين الآمال الضائعة:

غريب مكسور بلا مال

والخَلق بيردوا إيده

لا سند عدّل المال

ولا نخل ضلل جريده

الضُّحَى العَالِي

(1)

بيوت خاوية، وقلوب عامرة بالرجاء، وعقول تنظر إلى البعيد. ما كان على بعد خطوة اتسعت إليه المسافات، لكن الخيال الجموح، وعزم الرجال، قادر طوال الوقت على أن يردم الهوة بين المستحيل والممكن. وهكذا لم يفارق الأمل أحفاد الصابر الكبير في استعادة ما ضاع.

اتجهت الظنون إلى واحد من أهل «الجابرية»، لكن مَن هذا الذي عرف سرهم الدفين؟ كانت النسوة معزولات عن كل اللاتي في البيوت، جاراتهن ومَن هن أبعد. لم يتحدثن مع أي واحدة عن الخبيئة. الشبان الثلاثة كانوا يعرفون جيدًا أن ألسنتهم لم تتحرك ولو برهة في حلوقهم كاشفة عما كان مستقرًا في أرضية الزاوية. الشيخ كان أحرص منهم على السر. فمَن يا ترى قد فعلها؟ أيكون الحريق مدبرًا ليلهيهم عن ثروتهم؟ أم إن صدفة عمياء قادت شخصًا بلا ضمير للاستيلاء على ما عولوا عليه أن يعيد إليهم بعض مجدهم الغابر؟

كانت «نبوية» وحدها التي تخرج وتدخل، فلمّا سألوها إن كانت قد كشفت سرهم لأحد من أهل القرية، أقسمت على أنها لم تفعل هذا أبدًا، وكانت لوعتها لا تقل عن لوعتهم، وعقلها شارد مثلهم في كل الدروب، لعلها تهتدي إلى أول خيط لفك اللغز العجيب.

رآهم «صفي الدين» يصارعون حيرة قاتلة، فقال: ما لا يسعى

الرجال خلفه لا يُستعاد.

رد «جعفر» محذرًا: السعي قد يضاعف المتاعب.

لكن الشيخ أصر على أن يفعلوا كل ما يجب عليهم، حتى لا يعيشوا بقية أعمارهم متحسرين على ما جلبه لهم الصمت والحذر والخوف. نظر إليهم، وقال: لا يضير الشاة سلخها بعد ذبحها.

كانوا حقًا مذبوحين من الوريد إلى الوريد، فاستجابوا لما أراد، وتشاوروا في الأمر فوجدوا أنهم يجب أن يبدأوا من العمدة، أليس هو المتكفل بحفظ الأمن في القرية كلها؟

طرق الشيخ عند المساء بيت العمدة. حكى له ما جرى، والرجل يفتح عينيه اندهاشًا، ويحاول أن يتغلب على قلق الأسئلة التي تخزه: مَن هذا المجذوب والذين معه؟ أهي عصابة ظنت أن رداء المجاذيب كذبة تصون سرها كل هذه الأيام؟ أم هي أسرة غنية هاربة من ثأر؟ ولا يمكن أن تكون النذور والأعطيات الضئيلة قد تراكمت فصنعت ثروة حوتها ثلاثة صناديق؟

أدرك «صفي الدين» ما يدور في ذهن العمدة، فقال له: إن الشبان وأمهاتهم، جمعوا ميراثًا كبيرًا تركه لهم آباؤهم، وجاءوا لشراء الأرض التي يريد «زاهر» بيعها. سمعوا عن عزمه البيع، فسعوا إلى الشراء، وآثروا ألا يقدموا على هذه الخطوة قبل موافقة الوجيه «زياد»، فدفنوا مالهم انتظار يوم يحصلون فيه على موافقته، حتى يصح البيع قانونًا، ويزينه الرضاء.

وانزعج الشباب لكشف سرهم، لكن «صفي الدين» قال لهم حين

اختلى بهم في الزاوية: لا أحب أن يجري على لساني كذب، ويكفيني الكذبة البيضاء الكبرى التي وضعت نفسي فيها محبة فيكم. ثم صمت برهة، وواصل: ستثبت لكم الأيام أن ما نطقت به اليوم كان في صالحكم.

حقق العمدة في الأمر طويلًا. لم يترك رجلًا ولا امرأة في القرية إلا وسألهم، لكن الجميع نفوا أن يكونوا من السارقين. لم يجد العمدة ردًّا على الشيخ سوى القول: ليس أمامنا سوى انتظار ظهور آثار النعمة على أحد، أو يطلع علينا صبح فنجد أحدهم قد هرب من القرية.

لكن الأيام مضت ولم يتغير حال أي من الفلاحين، ولا هرب واحد منهم. ظلت واقعة السرقة لغزًا أعيا الرؤوس، وحكاية تروى في «الجابرية»، لكن كل مَن ثرثروا لم يدر بخلدهم أبدًا أن هؤلاء المسروقين هم من «الصوابر»، الذين كانوا في يوم من الأيام سادة هذا المكان.

(2)

بلغ اليأس في نفوس الشبان وأمهاتهم منتهاه. لم تعد لهم إلا السلوى التي كان يطلقها الشيخ «صفي الدين»، وهو يرسل ناظريه إلى القبور، ويقول: بدأ أوائلكم من الصفر.

يقف «جعفر» عند الضُّحى العالي فوق الربوة التي لم ينل منها الزمن، حيث تستقر الزاوية والمقابر، يوجه عينيه نحو الأرض البائرة. يرى النهر هناك يجري كعادته، ويقول: هنا ضرب المجاذيب فؤوسهم ذات يوم بعيد، فقام كل شيء.

(3)

يبدو أن القاع لن يلامس أي أرض، فكلما اعتقدوا أن الأمور قد حطت عنده، وجدوها تهوي ساقطة من جديد، حتى صاروا يظنون أنه قاع أبدي، أو أن قيعان الدنيا كلها قد سيقت إليهم، وفُرضت عليهم، حتى اندمغت فيهم. لكن كان عليهم أن يحاولوا مفارقة هذا القاع التعيس من جديد.

الفتية الذين قبضوا على الوعد، لم يكن بوسعهم أن يظلوا جالسين عند الزاوية، يتلقون الإحسان الضئيل. الأرض البور نادتهم، إلا أن صاحبها كان عاجزًا عن فرض إرادته على ابنه الراغب في أن تبقى على حالها ليسهل التخلص منها.

كانوا قد اعتادوا الكدح فوق عربات الكارو وخلفها، فصار لهم عناد البغال التي تجرها؛ لذا لم يكن من الصعب عليهم أن يرفعوا الفؤوس في أرض العمدة. طلبوا من الخولي أن ينضموا إلى الفلاحين، ورحب العمدة بهم؛ لأنهم أهل «رسمية»، التي بدا الطريق إليها مفتوحًا. الشبان وأمهاتهم لم يهللوا لنسبه كما كان يتوقع لأنهم ذوو ثروة، أما الآن فهم أجراء في أرضه، ونسوتهم يأكلن من ضربات الفؤوس فيها.

عاد إلى طرق بابهم، فرحبت النسوة، وتذكرن حديث «نبوية» عن الأوتاد الغليظة التي يدقونها في أرض «الجابرية» إن صاهروا العمدة. زفت «رسمية» إلى زوجها في ليلة شتوية، لتنام على فراش لين بعد أن كانت الحُصر الخشنة قد حفرت في جسدها علامات ظاهرة.

أعطى العمدة الأسرة الغريبة بقدر ما كان يتغلب على بخله. طلبت

منه «رسمية» أن يبني لها دارًا أخرى، لتبتعد عن مضايقة زوجته الأولى وخدمها، فتململ وتذمر، ثم وعدها أن يحقق لها ما أرادت بعد الحصاد. حين أتى الحصاد لم يفِ بوعده، وقال لها: «لمّا تولدي لي الولد سيكون لكِ ما تريدين».

أنجبت «رسمية» من العمدة ابنًا سمّاه «رشدان»، وبنى لها دارًا فسيحة، فأصبحت أمها وعمتها وامرأة «منازع» تجدن فيها متنفسًا من بيت «نبوية»، رغم أن «عمر» و«محمود» جعلا العيش فيه أفضل، حين قاموا بترميم جدرانه وطلائها، واشتروا له الأسِرّة والسحارات والأكلمة، والأواني الجديدة.

(4)

جاب «زاهر» الزمام باحثًا عن مشترٍ ومنتفع، لكن الكل كان يعرف أن أباه لا يرضى بهذا، فصدوه بذرائع عدة، إلا أنهم لم يغلقوا الباب انتظارًا لرحيل الوجيه القعيد. كانت «حورية» تعطي ابنها ما يطلبه من مال حتى يصرف ذهنه عن بيع الأرض، فكان يقبض على ما أخذ، ويغيب في المحروسة شهورًا ثم يعود.

عاد ذات يوم فانفردت به أمه، وقالت: إن بقيت تأخذ مما ندخره للزمن، بينما الأرض بائرة، سينفد كل شيء، ولن تجد ما تنفقه. وكانت قد أعيته الحيل ابتغاء البيع وأخفق، فنظر إليها، وقال: مَن بقي من الفلاحين يزرعون أرض العمدة. امتلأت عيناها فرحًا، وقالت: هذه مشكلة لها حل، فاتركها لي.

أرسلت خفير السرايا إلى الزاوية يستدعي الشيخ «صفي الدين»، فجاء يسبقه عكازه. اختلى إلى الوجيه يصلي ويدعو له. حين انتهى،

فاتحته فيما تعتزم فعله، فتهللت أساريره، وقال لها: انفضي عن رأسكِ الهم، مقضية بإذن الله. وأبلغ الشيخ الشبان الثلاثة بما سمعه، فشمروا سواعدهم، وقالوا: نحن أول مَن يضربون فؤوسهم في أرض الوجيه. ابتسم، وقال: لكنها أرض واسعة في حاجة إلى سواعد كثيرة.

كان الشيخ قد عاصر طرفًا من أيام الالتزام القاسية، فحدثهم عن الفلاحين الذين كانوا يهربون من ملتزم إلى آخر، ويعرضون جهدهم في سخاء ورضا. حدثهم في هذا، فوقفوا على جانب مما جرى لأجدادهم، وترحموا عليهم. فكروا في هذه اللحظة في ترميم قبورهم، فأعادوها إلى هيئتها الأولى، بل أحسن.

سألوا الشيخ عما فكر فيه كي يحقق طلب «حورية»، فقال لهم: يفيض الأُجريّة عن حاجة أصحاب الزرع في القرية القريبة من الزاوية التي تركتها.

كان زمام هذه القرية ضيق، ما تُفتح أرضها ذراعيها حتى تصدها الصحراء المترامية من الغرب. باتت الأسرة الواحدة على كثرة عددها تقدح في قراريط معدودات لا توفر لها سوى ما يملأ أنصاف البطون، بل أرباعها.

كان الشيخ مُطمئنًا إلى أن كلمته في هذه القرية مسموعة، فركب الماء إليها ذات صباح، ومعه «عمر». كان أول مكان دخله هو زاويته، فوجد المجذوب الذي تركه على حاله غارقًا في التسابيح بينما لا توجد إلى جانبه إلا كسور خبز يابسات، وصُرة من الكِشك الناشف، ومقطف استقرت في قعره بصلات، وزير مملوء حتى نصفه بالماء.

سأله عن حال الناس، فقال المجذوب: زادت حالتهم سوءًا، فهم يتناسلون بلا حساب، والأرض لم تزد شبرًا واحدًا. فاصطحب «صفي الدين» الفتى «عمر»، ودخلا القرية، ورآه الناس فأقبلوا عليه مرحبين، فقال لهم: تجمعنا صلاة الظهر في الجامع. وعقب الصلاة، قال له أحدهم: فقدنا البركة منذ رحيلك. ابتسم، وقال: جئتكم بالسعي مع البركة حتى بيوتكم.

حكى لهم عن أرض خصبة واسعة وبائرة، تنتظرهم هناك. راح يشرح لهم الآية القرآنية: «فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه، وإليه النشور». خلب حديثه كالعادة ألبابهم، فقال أحدهم: ثقتنا فيك بلا حد يا مولانا. فابتسم، وقال: لم أقطع كل هذه المسافة لأسوقكم إلى الضياع أو الهلاك. رد فلاح آخر: خذ مَن يفيضون عن أرضنا، فإن وجدوا أرزاقهم جارية، استقروا هناك، ولحق آخرون بهم.

كانت «حورية» قد أمدت الشيخ بالمال الذي ينقل به الرجال، فقاد مائة فلاح منهم إلى النيل ليقلهم مركب إلى «الجابرية» مع فؤوسهم ومناجلهم ومقاطفهم، وهم في سعادة غامرة، دفعتهم إلى أن يسكبوا غناءهم الصافي فوق الماء:

هنا من الرجال مية

والرزق يحب الخِفِّيّة

وراحوا يتطلعون إلى حياة جديدة، اطمئنوا إلى أنها ستكون أفضل من عيشهم، طالما هم في صحبة الشيخ الجليل. وصلوا إلى «الجابرية» عند أول الليل، تتابعوا فوق الجسر، الذي أكلت منه الأيام كثيرًا فانخفض، وقادهم الشيخ إلى الفسحة الممتدة بين الزاوية

والمقابر، فجلسوا يتهامسون، ثم تركهم ومشى نحو السرايا. كانت «حورية» قد رأتهم على الجسر يكسوهم نور القمر والغبار، فرقص قلبها في صدرها، وأمرت الخادمات أن يجهزن لهم طعام العشاء.

قال الشيخ لها: لن يطلع الفجر إلا وهم يركبون الأرض.

أعطته ضرة من النقود، وقالت: أعطِ كلًّا منهم أجر أسبوع، حتى يطمئنوا.

حملت الخادمات والخفر بلاليص الجبن القديم والعسل الأسود واللفت المخلل، وثلاث صحفات فخار مملوءة بالقريش، ورصات البتاو اللدن. ساروا خلف الشيخ حتى بلغوا موضع الرجال. ناداهم الشيخ لتناول طعامهم، فلمّا فرغوا منه أعطاهم أجورهم مقدمًا، فانشرحت صدورهم للعمل.

قضوا حاجاتهم في الأرض البائرة، ثم تراصوا نائمين على الأرض الصلدة، حتى أذن الفجر. صلى بهم الشيخ، وقادهم الشبان الثلاثة إلى البور. قادوا المحاريث المهملة، فجرتها الأبقار تشرخ الأرض المتكلسة. ضربوا فؤوسهم عزقًا وتقليبًا، حتى تشم الأرض الهواء، وتراها الشمس فيستيقظ ترابها المكدس من غفوته الطويلة.

جاءت بذور الفول فحفروا لها خفرًا متتابعة. رشوا بذور البرسيم على صفحات الأحواض المستوية. هرعوا إلى الطنابير والشواديف، يرفعون الماء، فيجري غامرًا الأرض الظمأى. لم يمر الأسبوع الأول، حتى كانت الأرض قد تهيأت لمواصلة دورها المعتاد. بعد أسبوع آخر، نبت فيها خضار، لتودع أيام الخراب.

(5)

وزع «صفي الدين» المهام على الشبان الثلاثة. جعل «عمر» هو «الخولي» على الفلاحين. كان «محمود» يجيد الحساب فمسك دفاتر الأرض. وأوكل إلى «جعفر» مهمة التواصل بين السرايا والفلاحين، وقال له: هذا أمر يحتاج إلى الحكمة.

صمت برهة، وقال: أنت يا مولانا خير مَن يفعل هذا.

ابتسم، وقال: لا يجب أن تشغلني الدنيا أكثر من هذا.

نظر «جعفر» في عيني الشيخ طويلًا، وقال: فلاحة الأرض ذِكر أيضًا يا مولانا.

استملح الشيخ ما سمع، وقال: أنا رجل بيني وبين القبر خطوة، أما أنت فأيامك أمامك، وأريد أن يشق فيك الوجيه والهانم، لتنبت جذورك من جديد في أرض قرية أنشأها جدك «رضوان».

(6)

تتابعت خطوات «جعفر» إلى السرايا. كان كلما دخل من باب الحديقة أرسل ناظريه إلى النافذة، لعل «عبلة» تطل منها، ثم ردها إلى أمام قدميه سريعًا، خوفًا من أن تضبطه مشغولًا بها. كانت هي قد انشغلت بالفعل. ما إن تلمحه داخلًا، حتى تدفن عينيها في شيش النافذة، لتراه ولا يراها، لكنه كان يحس أنها هناك واقفة أو جالسة في انتظاره، وأن هناك ما يدب في صدرها، مثلما يدب في صدره.

كان يهز أحيانًا رأسه في عنف لعله ينفض ما بها من انشغال، لكن هيهات، فالذي يشغله يسري في دمه، وينبض في قلبه، ولا سبيل

للتخلص منه بنفض الرأس، أو التلهي، أو دفن عينيه في الأرض وهو يتقدم نحو باب السرايا، فتنطلق نبضة عفيّة مع كل خطوة، ويتوه في خيالات عجيبة أليفة.

صار يحب الذهاب إلى السرايا ويخشاه، فمَن هو بعد أن ضاع منه ما معه، وصار مجرد أجير لدى الوجيه؟ لكن «حورية» لم تعامله أبدًا كأجير، إنما منقذ لهم من الإفلاس والضياع. طابت لها أخلاقه، وأدركت حكمته، حين رأته يمضغ الكلام جيدًا قبل النطق به. استملحت كل ما يبديه من علامات الرجولة، قوة وأمانة ووفاء، وهمة متناهية حيال الأرض، حتى قالت له ذات يوم: أتمنى لو كان «زاهر» مثلك.

خفض رأسه، وقال لها: لا أريد أن أقول لكِ إنني أعتبر نفسي في مقام ابنك، فربما يغضبكِ هذا.

ابتسمت، وقالت: كلامك يسعدني.

شجعه ما سمع منها على أن يستجيب لنداء عواطفه، ولا يكبتها مثلما كان يفعل بالأمس. جاءته «عبلة» في أحلامه، جميلة مثلما رآها، حين جاء إلى السرايا مع الشيخ أول مرة. سكن أذنيه صوتها الذي سمعه مرة واحدة أيضًا.

في يوم كان في البهو ينتظر الهانم، فإذا بالمحبوبة تظهر هابطة السلالم إليه. رمقها فارتج صدره. مدّ بصره أمامه لا يرى شيئًا، تائهًا عن المكان والزمان، حتى سمعها تقول له: مساء الخير.

هب واقفًا، وقال لها، دون أن ينظر إليها: مساء النور.

صمتت وهي تتطلع إلى خجله، وقالت مشجعة: أمي متعبة، وأرسلتني لمقابلتك.

نسي ما جاء من أجله، وقال بحروف متلعثمة: وددت لو أخبرت الوجيه بما تحتاجه الأرض.

مدت يدها نحو السلالم، وقالت: تفضل. ثم أفسحت له الطريق ليسبقها، فمضى متعثرًا في خطوات تفضحه، حتى بلغ الردهة المؤدية إلى غرفة الوجيه، وقال لها دون أن يلتفت إليها: أخبريه بقدومي.

غابت في الغرفة دقيقة واحدة، ثم عادت ووقفت إلى جانب الباب، وأشارت إليه ليدخل. رفع رأسه ليتبين موضع قدميه فرأى «عبلة» مرة ثالثة. التقت العينان بالعينين. انقدح شرر أقوى مما كان من قبل، وهو يرى ابتسامة عذبة ترف على شفتين حمراوين مكتنزتين، وقبلها بريق خاطف في عينيها، قال أشياء كثيرة، أسعدته وأربكته، فشعر بأنه قشة تتلاعب بها الريح.

مد يده وصافح الوجيه، ثم جلس فوق مقعد في مقابلته. كانت ابنته قد أسندت ظهره إلى وسادتين لينتين. لم تغادر الغرفة، فلم يفارقه الارتباك، ثم تشجع حين وجد الرجل يهز له رأسه، وابتسامة مرحبة ترتسم على شفتيه، فراح يبلغه بما يريد.

رغم ارتجافه جاء كلامه مرتبًا، ينم عن رجاحة عقل وسويّة. كانت أول مرة تسمعه يستفيض في شرح ما يريد، فملأها غبطة. تقدمت لتجلس بالقرب منه، عن يمينه إلى الخلف قليلًا، تحط عينيها على شاربه المقصوص في عناية، وجانب شفتيه اللتين تنطقان الكلام

على مهل، وكتفه العريضة، وكفه الممشوقة في قوة، وخاتم العقيق الذي يطوق بنصره. شعرت بأنه هو الذي كانت تنتظره كل هذه السنين.

لمّا انتهى، صحبته إلى باب السرايا، وقبل أن يخرج قالت له في خفر ودلال: لا تغيب عنّا. فمضى لا تقدر ساقاه على حمل قلبه الراقص، ولا أحلامه التي تهادت أمامه، وحطت على أحواض الورد، ثم ارتفعت إلى أغصان الشجر، وعراجين النخل. شعر بأن الدنيا قد أقبلت عليه، وأعطته في هذه اللحظة أكثر مما توقع. لم يشعر بنفسه إلا وهو يشد على يد الخفير الذي سار معه حتى باب الحديقة، ثم وجد نفسه ينظر إليه ويقول له: أنت زين الرجال.

خرج إلى درب يأخذه نحو الزرع والبيوت، والخفير ينظر إليه متعجبًا ويبتسم، ولا يدري ما الذي دفعه لأن يقول له هذا، بينما كان من قبل لا يتحدث معه إلا حين يلقي عليه السلام، أو يسأله عن الخادمة التي تنتظر قدومه لتصحبه إلى داخل السرايا.

(7)

لم تمر سوى ثلاثة أيام حتى وجد «جعفر» قدميه تأخذانه إلى السرايا. حمل في رأسه ذريعة للذهاب إلى هناك، أحكمها حتى تكون مقنعة لمَن يسمعونه. كان يريد أن يُفاتح الهانم في جمع السماد البلدي من حظائر الفلاحين، ورمي حفن منه تحت جذور الفول، لتتعافى، وأن يطمئن في الوقت نفسه على صحتها.

حين وصل إلى باب الحديقة وجد الخفير كاسف البال مرتبكًا، على النقيض مما كان يراه من قبل. تخوف من أن يكون بالسرايا

خبر غير سعيد يخص الهانم، لكنه طرد هذا الخاطر من نفسه. أوقفه الخفير عند الباب، وكان لا يفعل هذا، فأطلق الحيرة في شراييه. تركه ودخل إلى باب السرايا، ثم عاد، وقال له: الوجيه الصغير في انتظارك.

تعمد «زاهر» أن يترك «جعفر» جالسًا في البهو، أطول كثيرًا مما اعتاد. كان القلق يأكله، ولا يُسري عنه سوى أمله في أن يرى «عبلة» ولو ثانية واحدة، أو يسمع صوتها، حتى لو كانت فقط تنادي إحدى الخادمات. ظهر «زاهر» على السلالم متجهمًا، يرمي خطوات ثقيلة إلى أسفل، ورآه «جعفر» فنهض، ينظر إليه في توجس.

جلس «زاهر» في مواجهة «جعفر» دون أن يكلف نفسه تحيته، أو يأذن له بالجلوس. ألقى إليه نظرات مستهينة، اقتحمته من قدميه حتى ناصيته، ثم سأله: ما أخبار الأرض؟

أجابه في جدية: كل شيء طيب.

فاجأه بسؤال آخر: أين المسؤول عن الحسابات؟

أبرز «جعفر» دفترًا في يده، وقال: هذا دفتره، وكل شيء مقيد فيه.

مد «زاهر» ثلاثة أصابع من يديه يطلب الدفتر، فأعطاه «جعفر» له. وضع ساقًا على ساق، وفتحه ونظر في الأرقام المتتابعة، دون أن يفهم منها شيئًا، لكنه تعمد أن يبين تشككه في الحسابات، فقال: واضح أنكم تغشون الوجيه.

احتقن وجه «جعفر»، وقال: حاشا لله، لا يمكن أن نخون مَن أحسن

إلينا.

كان «زاهر» قد سمع فور عودته من المحروسة إلى «الجابرية» عن الغروة الضائعة، واعتبرها أكذوبة اختلقها هؤلاء المجاذيب ليرتقوا بأنفسهم وسط الفلاحين، ويقدموا أنفسهم إلى كبار القرية. نحى الدفتر جانبًا، وقال: يبدو أنك لم تتعلم كيف تخاطب مَن يُحسنون إليك.

شعر «جعفر» بإهانة شديدة، فقطع خطوات نحو الدفتر والتقطه، وقال: أشكرك يا بن الأصول.

كانت «عبلة» واقفة خلف الدرجة العلوية من السلم، تنصت إلى ما يدور، وتخشى أن يتهور «زاهر» كعادته، فيفعل مع ضيفهم ما يسيء. صدق حدسها، إذ انتفض أخوها واقفًا، والغضب يملأ عينيه، وصرخ: لا أنتظر منك شهادة يا خسيس.

احمرّ وجه «جعفر»، إلا أنه كظم غيظه، وهمّ أن ينصرف، فواصل «زاهر» صراخه: لا تمشِ إلا إذا أذنت لك. لكن «جعفر» أعطاه ظهره، وقطع خطوتين نحو الباب، فلحق به «زاهر»، وأمسك كتفه، وأداره نحوه، ثم رفع يده ليصفعه، فأمسك «جعفر» بها في قوة، ورفعها إلى أعلى، ثم دفعها إلى جانبه، وقال: لولا أنني في بيتكم لرأيت ما لا يرضيك.

كانت «عبلة» قد صارت بينهما، فطوقت صدر أخيها بذراعيها، وقالت: عيب عليك.

نظر إليها في غضب، وقال: أتنصرين هذا الحمار عليّ.

أراد أن يزيحها جانبًا ليخلص إلى «جعفر»، لكن «حورية» كانت تهبط السلالم في سرعة، وتصرخ: إياك يا «زاهر».. ستكون قطيعة بيني وبينك.

قبل أن تصل إليهما، كان «جعفر» ينسحب نحو باب السرايا، ومرق من نصفه المفتوح، بينما الخفير يقف على مقربة منه، وقد سمع كل ما دار.

(8)

عاد «جعفر» إلى الزاوية موزعًا بين حنق وانكسار. حكى ما جرى للشيخ «صفي الدين»، وأعاده على سمعي «عمر» و«محمود» فقرر الشبان الثلاثة أن يمتنعوا عن العمل في أرض الوجيه. في اليوم التالي، سلموا الدفتر إلى الشيخ ليعيده إلى الهانم.

حاول الشيخ أن يثنيهم عن قرارهم، الذي فيه ظلم لآل بيت يتمسكون بهم، ما عدا شخصًا واحدًا، لا يروق لهم ما يفعله، لكن «جعفر» قال في حسم: إن رضينا بما فعله «زاهر» اليوم سيجلد ظهورنا غدًا.

ذهبوا للتو إلى بيت العمدة، وأبلغوه أنهم راغبون في الانضمام إلى فلاحيه، فرحب بهم على الفور. وأرسلت «حورية» خفير السرايا ليستدعي «جعفر» إليها، لكنه اعتذر له، وقال: أبلغ الهانم أن مكانتها في قلبي لن يهزها أبدًا طيش ابنها، لكنها لا ترضى لي الهوان.

راق الرد «عبلة»، فزاد إعجابها بالفتى «جعفر»، وأيقنت أكثر، أنه وحده الذي يمكن أن يكون شريك حياتها في قابل الأيام، وليذهب

«زاهر» بحمقه إلى الجحيم.

ولما وجد «زاهر» أمه ممعنة في الغضب، حاول أن يهدئها فقال: سأرعى الأرض بنفسي، وأكف عن السفر، ولعل هذه التضحية تكفي لذهاب غضبك.

نظرت إليه في استهانة، وقالت: لا أثق بك.

اقترب منها متوسلًا: امنحيني الفرصة وسترين.

(9)

لو أن رجلًا قاسيًا يمسك عصا، ويضرب أناسًا يتوجعون، دون أن يفكر أحدهم في مقاومته، فمن المؤكد أن مَن يضرب سيئنهك بعد مدة. كذلك مَن يريد أن يسيطر على الناس بالبطش والغشم، لا يستطيع أن يُبقي رجاله وقدراته يقظة وقابضة على الأمور طوال الوقت. اللين في حزم هو أسهل الطرق التي يجب أن يسلكها مَن يحتاج إلى الناس ليساعدوه في رعاية ماله.

لم يدرك «زاهر» هذا، فلم يذهب إلى الفلاحين أول يوم بالخبز والوعد، إنما بالسوط والوعيد. ركب فرسة بيضاء، طالما امتطاها أبوه في أيام صحته. رمح على الجسر، يصرخ فيمَن يكدحون في الأرض، ويسبهم بألفاظ جارحة.

كان الشيخ «صفي الدين» قد أوصاهم بمواصلة العمل إلى أن يعود الشبان الثلاثة، فصبروا على سخف «زاهر» وغطرسته، أملًا في أن يأخذه سفر جديد، أو يدرك أن ما يفعله ليس هو ما ينفع. لكن الأيام مرت، ولم يتغير. تلكأ في دفع أجورهم، مؤجلًا إياها إلى موسم

الحصاد. كان عليهم أن يصبروا حتى ينالوها حين يأتي موعدها.

شكوا إلى الشيخ فكان يواسيهم، ويقول: لا يجب أن نتخلى عن الوجيه الطيب وزوجته وابنته، حتى يقضي الله أمرًا. كأن الشيخ كان يقرأ الغيب، أو حدثته نفسه بأن هذا الوضع لن يطول، فإما يذهب عنهم «زاهر» حين يبيع حصاد زرعه، ويسافر إلى ملذاته، وإما تتمكن الهانم من إقناعه بأن يفسح الطريق للشبان الثلاثة من جديد. لكن الغيب لم يأتِ بهذا ولا ذاك، إنما بشيء لم يكن أبدًا في الحسبان.

(10)

استيقظ أهل «الجابرية» ذات يوم على جلبة عارمة، فتحوا نوافذ البيوت الخفيضة. أطلت النسوة من فوق السطوح، فوجدن أمامهن الرجال الذين غابوا منذ سنين، يتقدمون في الشوارع الضيقة نحو بيوتهم، ضامري الأجساد متعبين.

كانوا بعض أولئك الذين ربطهم الجند وأخذوهم إلى حفر القناة. بعضهم فقط، فكثيرون منهم ماتوا تحت أكوام التراب الهائلة. هناك مَن هرب فأكلته الصحراء، أو أُطلق عليه الرصاص فسقط مضرجًا في دمه. بعضهم عاد بساق واحدة، أو ذراع واحدة. بعضهم سملت إحدى عينيه، أو صُمّت أذنه. بعضهم سكنت جسده جروح مندملة وخدوش تركت فيه علامات ظاهرة. أما انكسار النفوس فكان أفدح.

كانوا قد عرفوا ما حدث لهم جيدًا، وحددوا مَن تسبب في يتم أطفال، وقطع أرزاق آخرين، وحرمان زوجات في الفُرش الخشنة من لذة مؤجلة، وحرمان أرض من أن تنبت حبها تحت كد سواعد مخلصة. كان الغيظ يأكلهم، والزمن الصعب قد علمهم أن لا أحد

بوسعه أن ينتصر في صمته الطويل على الضيم.

في رحلة العودة بمركب من «القاهرة» إلى «الجابرية»، كانوا قد قرروا الانتقام ممن ظلمهم، وليكن ما يكون. لم ينسَ أي منهم المشهد الأخير لهم في القرية قبل أن يأخذهم الجند، بدأوا منه وفكروا طويلًا في كل ما جاء بعده، وهم يجلسون في ساعات راحة كانوا يلتقطون فيها أنفاسهم المبهورة بين كدح وكدح، وانتهى تفكيرهم إلى الإيمان الجازم بالانتقام.

اتفقوا على ما يريدون، وذات ليلة قفز خمسة منهم سور السرايا، من مكان بعيد عن عيني الخفير. احتموا بالأشجار وجذوع النخيل، حتى وصلوا إلى أول نافذة. انحنى أحدهم، فركب الرجال الأربعة ظهره تباعًا، وقفزوا إلى الداخل. كان أحدهم يعرف غرف السرايا جيدًا، فقد كان خادمًا فيها قبل أن يطرده «زاهر» ذات يوم لينضم إلى الفلاحين. قاد المتسللين إلى غرفة «زاهر»، وكان بابها مواربًا، وهو يستعد للنوم. دلفوا إليها سريعًا، فوجدهم أمامه. قبل أن يهب ليلتقط «الجربندية» المستقرة في الخزانة، أو حتى يصرخ، كانوا قد كتموا فمه بكوفية نزعها أحدهم من فوق كتفيه، ثم طرحوه أرضًا. مد أحدهم يده إلى وسادة لينة، وكتم بها أنفاس «زاهر»، وراح يدوس في عنف، وبقية الرجال يثبتون ذراعي «زاهر» وساقيه اللتين ترفرفان أملًا فى الإبقاء على حياة تذهب، لكنها ذهبت. تركوه جثة هامدة، وتراجعوا في حذر، حتى صاروا عند سور الحديقة، فقفزوا خارجه، وابتلعهم الظلام.

جاء ظهر اليوم التالي دون أن يظهر «زاهر» في البيت، وظنته أمه

قد عاد إلى سابق عهده وأثقل في الشراب الليلة الفائتة، لكن «عبلة» قالت لها: رأيته يقظًا عند انتصاف الليل، ولم يجهز شرابًا، ربما أتعبه الذهاب إلى الغيطان على مدار الأسبوع، فتأخر في النوم.

ارتسمت ابتسامة ساخرة على شفتي «حورية» وقالت: مسكين، لم يتعود على الكد.

أذن العصر ولم تُفتح غرفته، فأرسلت أمه خادمة لإيقاظه، فجاءت مسرعة وعلى وجهها صفرة، وقالت: ناديته كثيرًا فلم يستجب.

هرعوا إلى الغرفة. قلبوه يمنة ويسرة، فوجدوه خامدًا بلا حراك.

(11)

هرع أهل القرية إلى السرايا حين سمعوا صراخًا آتيًا من نوافذها. وقفوا عند السور يسألون، فقال لهم الخفير: سيدي «زاهر» مات.

أبلغوا العمدة فجاء مع شيخ الخفر وثلاثة من الخفراء. اختلى العمدة بالهانم في البهو، فقالت له: في الأمر شيء، فراشه مبعثر على غير العادة.

سألها إن كان شيء قد شرق من خزانته فنفت، وقالت وهي تبكي: كان أمس في كامل عافيته.

جاء خفير السرايا يجري، ثم وقف يلهث وقال: هناك آثار أقدام في طين الحديقة، من السور وحتى النافذة الجانبية.

صمت العمدة برهة، وقال: لا بد من إبلاغ الثُّمن.

جاء ضابط وعشرة من عساكره. تابع آثار الأقدام، حتى النافذة، ثم

وجد بعض الطين مطبوع على بلاط الردهة وغرفة «زاهر»، وبعضه يلطخ الملاءة البيضاء لسريره. نظر جيدًا إلى جثة «زاهر» فوجد وجهه قد مال إلى اللون الأزرق، وعلى رقبته خدوش أظافر حادة. أمسك بكفيه، فوجد في أحد أظافره دمًا متجلطًا، وشعرات بيضاء وسمراء. التفت إلى الهانم، وقال: من الواضح أنها جريمة قتل.

ردت «عبلة» في لهفة: لا أعتقد أن أحدًا في كل هذه القرية قد فعل هذا.

هز الضابط رأسه، وقال: هناك جرائم أغرب من الخيال، وعلينا أن نحقق ونرى. ثم التفت إلى العمدة، وقال: لا بد من إجراء تحقيق هنا، فربما نصل إلى شيء. وسأل الهانم وابنتها، إن كانت تساورهم شكوك في أحد، فنفتا تمامًا. طلب إحضار الخادمات وسألهن على انفراد، فأظهرت إجاباتهن له أنهن بريئات. ضيّق عليهن الخناق، فقالت إحداهن إن خلافًا دب بين «زاهر» وشاب اسمه «جعفر» يتردد على السرايا من حين إلى آخر.

طلب الخفير، وحاصره بالأسئلة، فحدثه عن أنه أول مَن رأى آثار الأقدام الحافية في طين الحديقة، وسأله أين كان الليلة الفائتة، فأجابه أنه كان ينام خلف باب الحديقة كعادته. طلب منه أن يمد إليه كفيه، وأمعن النظر في أظافره فلم يجد عليها آثار شيء. ملأ الضابط عينيه من الخفير جيدًا، فارتبك الرجل، ثم باغته بالسؤال: هل للقتيل أعداء أو خصوم في القرية؟

أجاب الخفير: لا، لم تكن له بين أهل القرية صحبة، ولم يختلط بالفلاحين إلا في الأيام الأخيرة.

صمت الضابط برهة، ثم سأل: ألم ترَ أو تسمع عن خلاف بينه وبين أحد.

تنحنح الخفير، وابتلع ريقه، وقال: مشاجرة بسيطة مع شاب اسمه «جعفر»، لكن..

قاطعه الضابط، والتفت إلى العمدة، وسأله: مَن «جعفر» هذا؟

أجاب العمدة: شاب طيب سكن قريتنا في السنة الأخيرة مع أهله، لكن لا أعتقد أن مثله يقتل.

تدخلت الهانم: هو واثنان من أهله يرعون أرضنا، ولم نرَ منهم سوءًا أبدًا.

طلب الضابط من الخفير أن يحكي له ما سمعه من هذا الشجار، فأخبره بكل ما يتذكره، وتدخلت «عبلة» وقلبها يرتجف: كنت موجودة، وتدخلت بينهما، ولا أعتقد أن ما جرى يمكن أن يؤدي إلى قتل.

التفت الضابط إلى العمدة، وقال له: سأنتقل إلى دارك، وأرسل خفرك لاستدعاء «جعفر».

كان «جعفر» قد وصله خبر موت «زاهر» فأسف له، وكان يعتقد أنه ربما سكت قلبه من فرط الشراب، أو أنه مجرد واحد من الذين يرحلون في شبابهم، لكنه وجد نفسه، وهو في الحقل، محاطًا بالخفر، وأحدهم يقول له: أنت مطلوب في دار العمدة.

سكنته هواجس وهو يسير معهم، سرعان ما كان يطردها على قدر إيمانه ببراءته. اعتقد أن الأمر لن يتعدى توجيه بعض الأسئلة له، ثم

يعود إلى الحقل، لكنه فوجئ بالضابط يوجه له تهمة قتل «زاهر»، ثم يأمر العساكر بالقبض عليه.

أراد العمدة أن يدفع الضابط في اتجاه بعيد عن «جعفر»، فأشار إلى قدمي الشاب، وقال: الأقدام التي تركت آثارها على الطين، لم تكن لشخص واحد، وكانوا حفاة، أما هذا الشاب فلم يرَه الناس يمضي في الشوارع إلا وهو يلبس نعلًا، حتى عند الوضوء لا يفارق القبقاب قدميه.

رفت ابتسامة خافتة على شفتي الضابط، وقال: ربما خطط للجريمة، ودفع لمَن ارتكبها.

ربطوا «جعفر» من يديه في سرج حصان الضابط، ومضى به، والعسكر يتبعونه جريًا على الأقدام.

(12)

نزل الخبر على «عبلة» كالصاعقة، أضناها فقدان «جعفر» أكثر مما أوجعها موت أخيها. ارتسمت في عين الوجيه الدهشة، فتضاعف حزنه. كان يُعوِّل على الزمن ليعلم ابنه كيف يكون مخلصًا للأرض، لكن ها هو فقد ابنه الذي أتى من صلبه، وابنه الذي ظن أن الزمن قد أهداه له. كانت «حورية» قد فاتحته فيما شعرت به بين ابنتها والفتى الذي سيق إلى السجن، فبدا في عينيه اطمئنان وغبطة. ضاع كل شيء في لحظة، وبدا غاية في القلق على مصير زوجته وابنته.

ارتاح الفلاحون الذين جاء بهم الشيخ «صفي الدين» لموت زاهر، وانضم إليهم العائدون من حفر القناة، بمَن فيهم القتلة، وكانوا

حريصين على أن يظل السر مدفونًا في صدورهم، وألا يحدثوا به أحدًا حتى زوجاتهم اللاتي انتظرن سنوات عودتهم من بعيد.

زار الشيخ «صفي الدين» سرايا الوجيه، وقدم له واجب العزاء، ثم حدثه في أمر عودة «عمر» و«محمود» إلى العمل في أرضه، فبان الرضاء في عينيه. أرسلت «حورية» الخفير ليستأذن العمدة فوافق. واصل الشابان عملهما، وكلهما أمل في أن تظهر براءة «جعفر» فيلحق بهما، فيتصل ما انقطع ذات يوم عصيب.

فتح الشابان آذانهما، يلتقطان أي أخبار ترشح من أفواه أهل القرية، لعل واحدًا منها يقود إلى تبرئة المظلوم، لكن الأيام مرت دون أن تنضح الصدور بشيء. وطلب الثمن العمدة فذهب راكبًا فرسه. عرف أن «جعفر» يصر على الإنكار، وكان الضابط قد سأله عن وجود شهود، فوعده بأن يسعى في التقاط الأخبار لعله يلقى شهودًا. وفور عودته طلب من الخفر أن يحدثوا الناس عما إن كان أحدهم قد سمع أو رأى شيئًا يدل على مرتكب الجريمة.

وسمع القتلة الخمسة هذا، فتنادوا للقاء ذات ليلة تحت شجرة الكافور. قال أحدهم: ستظل الجريمة تطاردنا طالما أن الشكوك تحيط بالشاب الذي قُبض عليه. وفكروا فيما ينبغي عليهم فعله، فاتفقوا على أن يذهب اثنان منهما إلى العمدة ويبلغانه أنهما قد سمعا «جعفر» يتوعد «زاهر» بعد أن خرج مكسور الخاطر من السرايا. أخذهما العمدة إلى الضابط، فقصا على مسامعه حكاية كان القتلة قد حبكوها جيدًا، ثم أعاداها أمام المحكمة، فقضت بسجن «جعفر» مؤبدًا، بعد اتهامه بكراء رجال من الفلاتية أو اللصوص لتنفيذ

الجريمة.

(13)

سيق «جعفر» إلى السجن. ألقوه بين القتلة واللصوص والعاجزين عن دفع ما عليهم من ضرائب. جلس أيامًا صامتًا، يصبر على كل محاولات دفعه إلى الكلام، ويرد بهدوء المتحرشين به في سبيل إخضاعه لسطوة قدامى السجناء، إلى أن فاض به الكيل ذات ليلة، فأوسع أقواهم ضربًا، ليصبح مسموع الكلمة بين السجناء أجمعين.

لم يفعل كسابقه، بل استعمل قوته وحكمته لصالح السجناء. سردوا عليه حكاياتهم الأليمة. بعضهم كان مظلومًا مثله. منهم الذين ارتكبوا جرائمهم تحت ضغط الحاجة الشديدة، أو بفعل سورة الغضب العارم. عدّ «جعفر» كل الحكايات تسرية وتسلية، إلا حكاية واحدة توقف عندها طويلًا، وكان معنيًا بسؤال صاحبها عن التفاصيل الصغيرة، وكأنه يتحسس موضع أقدامه في الأيام المقبلة.

كان الرجل من الفلاتية، سرق وقتل، وهرب إلى الجبل، ومكث فيه سنين طويلة، وهو يحسب أن المقام سيطول به على حاله، إلى أن ضُبط ذات يوم وهو يسرق جاموسة سمينة من حظيرة فلاح في قرية بعيدة. كاد أن يعبر بسريقته النيل، لكن أحد خفراء الزراعات رآه، وصرخ وهو يجري نحوه، فاستيقظ النائمون ولحقوا به، وأمسكوه. أوسعوه ضربًا، ثم ساقوه إلى العمدة، فحبسه في بيت العدة والكرباج، ومنه أخذوه إلى الثُمن مقيد اليدين.

كان الرجل يضحك، ويقول: الطمع هو الفخ الذي لا يمكن النجاة منه. ثم يبدي ندمًا على ما أقدم عليه، ويقول: أردت الهروب

بسريقتي، وكنت مطمئنًا إلى أنني سأصرع الخفير بضربة من خنجري حين يصل إليّ، لكن ضربة من عصاه الغليظة أسقطت خنجري، ولحق بي مَن استيقظوا.

كان «جعفر» يستعيد بحكايات هذا الرجل ما سكبه أبوه في أذنه وهو صغير عن جده «مهدي» الذي أقام مملكة كاملة من الفلاتية، لم يُسقطها الطمع إنما سوء الحظ. استعاد أيضًا كل ما يعرفه عن الجبل الذي جاد على أبيه «منصور» بثروة طائلة، ضيّعها هو في ساعة من الغفلة.

لكن كل هذه الحكايات تضيع من ذهن «جعفر» حين تباغته حكاية أخرى أليمة. كان أكثر ما يضنيه هو أن تؤمن «عبلة» بأنه قاتل أخيها. رأى وجهها على جدران العنبر يعاتبه. زارته في أحلامه فهب في ليالٍ كثيرة مفزوعًا، يداري دموعه. غافل الرجال وانفرد بنفسه يحدث محبوبته، ويؤكد لها براءته، وهو موقن أنها تسمعه.

لم يكن السجن يتعبه أكثر من الشوق، إلى الحبيبة وأهله، وإلى الأرض التي أخلص لها، وإلى العهد الذي يسري في أوصال «الصوابر» منذ زمن بعيد. كان هذا الشعور يضغط عليه بشدة، وكلما تذكر السنوات الطويلة التي عليه أن يقضيها بين جدران السجن، انتابته حالة من جنون، آمن بأنها هي التي ستقضي عليه وليس تقييد حريته.

تملكته رغبة في الهرب. كان قد سمع من الرجال حكايات الذين حاولوا الهرب من قبل، بعضهم صاده رصاص الحرس، وبعضهم أمسكوا به كدجاجة دائخة، بعد هرولة مضنية. هناك مَن أفلت

ليواجه عبء المطاردة المسكونة بالخوف والقلق.

لم يكن يشغله ما بعد هربه، فالمهم أن يصل إلى «عبلة» ويؤكد لها براءته، وبعدها يفر إلى دنيا الله الواسعة، أو حتى يعود ويسلم نفسه لسجانيه عن طيب خاطر، ليقتل هذا الجنون، الذي ينشب أظافره، ويطلق جمره، في رأسه وقلبه، كلما ساحت ظنونه دون أن يكون قادرًا على جمع نثارها المبعثر في المسافة بين سجنه وسرايا الوجيه.

أحكم خطته على مهل. لم يخبر بها أحدًا، حتى جاءت ليلة ونفذها في مهارة فائقة، أسعفته ليجد نفسه خارج السجن. جرى على قدر استطاعته، وأقدامه تدوس ظنونه وجنونه، وتفتح له الطريق إلى ما أراد، وليكن بعدها ما يكون.

(14)

رغم أن «جعفر» كان يعرف أن أول مكان سيبحث فيه عنه هو «الجابرية» غامر وذهب إليها. وكيف لا يفعل هذا وهي التي فيها الذين فكر في الهرب من أجلهم؟ حسبه أن بين اكتشاف هروبه والبحث عنه ساعات يمكنه أن يحقق خلالها ما يريد.

كان بيت «نبوية» في وسط القرية، فلا سبيل للذهاب إليه إلا بعد انتصاف الليل، فقصد الزاوية. وجد الشيخ مع «عمر» و«محمود»، عانقوه طويلًا، دون أن يسألوه للوهلة الأولى عن شيء، لكنه أبلغهم على الفور أنه قد هرب. لم يكن في حاجة إلى أن يثبت لهم براءته، فقد كان بصحبتهم ليلة مقتل «زاهر» لكن شهادتهما عدتها المحكمة مجروحة.

طلب منهم أن يأخذوه إلى النساء المنتظرات في وجع. انتظروا حتى انتصاف الليل، وذهب «عمر» أولًا ليستطلع الطريق، فوجد كل أهل القرية نيامًا. أيقظ النساء لانتظار القادم إليهن. جلسن على قلق وشوق، حتى وجدوه بينهن. عناق وبكاء ودعاء، واطمأن هو على أن حالهن يجري في ستر بعد أن عاد الشابان إلى أرض الوجيه، ومدت إليهن «رسمية» يد المساعدة.

قال لهن، وهن يستمهلنه للبقاء قليلًا: لا بد أن أمشي الآن. فسألنه عن المكان الذي سيقصده، فقال: لا أعرف، لكن سأبحث عن فرص وآتي للاطمئنان عليكم. وأمده «عمر» و«محمود» بكل ما لديهما من مال قليل، ليعينه في رحلته الآتية.

لم يخرج من الشارع قاصدًا الزراعات التي يلفها الظلام، إنما أخذته قدماه إلى السرايا. دخلها هذه المرة من المكان الذي تسلل منه قاتلو «زاهر». شب فوق السور، وصار في الحديقة، يستره الظلام والجذوع والفروع المتدلية على الأرض، حتى وصل إلى تحت النافذة الجانبية للغرفة التي تبيت فيها «عبلة». كانت مغلقة، فوقف حائرًا، ثم لمح شرفة مجاورة، ينيخ عليها جذع نخلة عالية. صعد وهو يكتم أنفاسه، حتى قفز عليها. كان بابها مواربًا، فدلف منه إلى الردهة. وصل إلى باب غرفة «عبلة»، وطرقه خفيفًا حتى لا يفزعها، إن دخل عليها وهي نائمة. تأخر فتح الباب، فهمّ أن يفتحه، لكن يدًا من الداخل فتحته، وامتلأت عيناه بوجه «عبلة» التي كانت ساهرة في هذه اللحظة تفكر فيه.

تضاربت مشاعرها بين اضطراب وحيرة وفرح، لكن المفاجأة

ألجمت لسانها، فهمس لها: هربت لأقول لكِ كلمة واحدة. أفسحت له الطريق، فدخل، وأغلقت هي باب الغرفة. نظر إليها طويلًا، وقال: أموت لو ظننتِ بي سوءًا.

هزت رأسها، وقالت: أومن بأنك بريء.

قال وهو يغالب دموعه: لا يشغلني إيمان أحد في هذا العالم ببراءتي إلا أنت.

نظرت إليه في إشفاق، وقالت: لم يخب ظني فيك أبدًا.

سحّت دموعها سخيّة، فمد أصابعه إلى خدها، ومسح الدموع على مهل. تلاقت أربع عيون في سرعة، وتزاورت أسرع، لكنها لم تلبث أن عادت يحدق كل منهما في الآخر. قالت العيون كل شيء، لكنه أطلق الكلمة التي ظل يحلم بالإفراج عنها في سجنه، فسحبها من أعماقه الدفينة، وقال لها: أحبك.

ارتبكت في فرح، وحاولت أن تستدير بعيدًا عن عينيه، وفمه الذي كان رفيف الكلمة المختزنة لا يزال قائمًا عليه، لكنه أمسك كتفيها في لطف، وقال: أريد أن أسمع منك، وبعدها سأذهب حتى إلى الموت راضيًا.

قالت وهي ترتجف: أبعد الله عنك كل شر. لم تقل الكلمة، لكنها لانت بين يديه، حتى وجدت نفسها تلقي رأسها على كتفه. طوقها بذراعيه وهو يجهش بالبكاء، وقال: لم أعد أريد شيئًا آخر في هذه الدنيا. فسكبت على ظهره كلمات أسعدته وأوجعته، إذ قالت: لا يزال ينتظرنا الكثير، ولن يُخيّب الله رجائي.

خلعها بلطف عن كتفه، ليجد جبينها الوضاح ماثلًا له، فلثمه في قبلة خاطفة. ارتجفت لكن شعورًا بالامتنان اجتاحها. كانت بقايا الدمع لا تزال على خديها، فمد هذه المرة لسانه ورشفها، ثم هبط إلى شفتيها والتقمها، وهي تحضنه بقوة، على قدر شوقها، والحرقة التي كانت تضنيها حين تستيقظ في الصباح على أحلام هانئة يلتحمان فيها، حتى الرعشة الأخيرة.

نظرت إلى النافذة، وقالت: أخشى أن تشعر بك إحدى الخادمات.

قطع خطوات نحو النافذة، ثم توقف، وقال: أخاف أن أظلمكِ إن طلبت منكِ انتظاري.

قطعت الخطوات إليه، وارتمت في حضنه من جديد، وقالت: لن أكون لأحد غيرك.

نظر إليها مليًا ليرى في عينيها أثر ما نطقت به، فقالت: أعدك.

زال عنه الكدر فجأة، وهز جسده كأنه يريد أن يرقص، فابتسمت، وقالت: يسكنني أمل كبير في أن براءتك ستظهر عما قريب. ثم سألته: إلى أين تذهب؟ رد وهو يمد يده إلى النافذة ليفتحها: لا أعرف الآن، لكن ما أعرفه أنني سأراكِ قريبًا.

ثم قفز إلى الحديقة في خفة، وابتلعه الظلام.

(15)

لم تنم «عبلة» من فرط الفرح. تقلبت كثيرا في مخدعها تستعيد ما سمعته من «جعفر» مرات ومرات. تمد يدها إلى جبينها الذي لثمه، وخديها اللذين ارتشف من فوقهما الدموع، ثم تحط أصابعها على

شفتيها فترتعش. لم تكن تفكر في أحزان تنتظرها حين تأتي أيام الفراق والانتظار، لكن أحزانًا أخرى اجتاحتها عند ظهر اليوم التالي، حين صرخت «حورية» من أعماقها: مات الوجيه.

حاولت التخفيف عن أمها، فقالت لها: ارتاح من ألم العجز والانكسار.

ردت وهي تتنهد في حرقة: الرجل حماية ولو كان عظمًا في قُفة.

وكأن «حورية» لم تطق العيش بعد رحيل زوجها، فلحقت به بعد أيام. وكان على «عبلة» أن تدبر حالها، وتجيب عن السؤال الكبير الذي أطلقته ألسنة الناس في القرية: كيف لفتاة أن تحافظ على إرث «الجوابر»؟

(16)

كان الفلاتي السجين قد رسم لـ «جعفر» معالم طريقه في الجبل. حكى الرجل في سخاء، ولم يكن يدري أن مَن يسمعه يستبين مكانه المقبل بين الهاربين. أعطاه أول الخيط، حين قال له: أي من البدو سيكون دليلك إلى الفلاتية.

لم يكن هذا بغريب عليه من الحكايات التي قصها عليه أبوه، فسأله: أي بدوي يعرف الطريق؟

ابتسم، وقال له: نحن نعيش في الجبال برضاهم، هم مستفيدون منا، وكثير من إبلهم وأحصنتهم سرقناها وبعناها لهم بثمن قليل أو أهديناها لهم.

خرج «جعفر» من «الجابرية» قبيل الفجر. وصل إلى النيل، حيث

كان يعرف مكان قوارب الصيد الرابضة، التي يربطها أصحابها إلى أوتاد أو في جذوع شجر يلثمها الماء. كان الصيادون ينامون في عشة بعد يوم عمل شاق، وسهرة راقت لهم في نسيم الصيف. فك قيد قارب، وأطلقه على مهل، وراح يجدف في خفة، حتى ابتعد عن الشاطئ قليلًا. زاد من تجديفه بهمة شديدة حتى بلغ الشاطئ الآخر.

ربط القارب في شجرة ليجده الصيادون نهارًا، وقطع الشريط الضيق المزروع بالذرة حتى صار في أول الجبل. ألقى نظرة يمنة ويسرة، دون أن يهتدي إلى مدق يأخذه إلى حيث يريد. كانت المسافة بينه وبين مغارة الفلاتية بعيدة، وعليه أن يجد مَن ينقله إليها مقابل بعض المال. لم يرَ أحدًا في هذا الصباح الباكر، فسار إلى صخرة عالية، وجلس تحتها، يرسل ناظريه إلى الصحراء المفتوحة، حتى رأى حين أشرقت الشمس قطيع ماعز يجري بعيدًا، وخلفه بدوي يمتطي جملًا. مشى نحوه، وأشار إليه، فلما بلغه، قال للرجل: أريد الذهاب إلى المعلم «فتيحة الجاسر».

نظر إليه البدوي طويلًا، ثم سأله: في أي شيء تقصده؟

أجاب على الفور: أحمل إليه رسالة عاجلة.

وجد البدوي مترددًا، فمد يده إلى جيبه، وأخرج ما قبضت عليه أصابعه من قطع النقود، فلما بانت في كفه، سرت سعادة في ملامح البدوي، وقال له: الطريق إلى المعلم طويل، وتحتاج إلى جمل أو حصان، وزاد وماء.

ابتسم «جعفر»، ووضع يده في جيبه دون أن يخرج شيئًا، وقال: دبر الأمر ولك مثل ما أعطيتك.

ساق البدوي ماعزه، وأمسك برسن الجمل، وسار إلى جانب «جعفر»، وقال: سآخذك إلى مَن يصحبك إلى هناك.

ظلا سائرين إلى أن بلغا أكواخًا متجاورة، فأوقفه البدوي، وترك الماعز ترعى إلى جانبه أحراشًا متناثرة. دخل إلى أحد الأكواخ، ثم عاد ومعه شاب أسمر تطل من عينيه نباهة ظاهرة، فنظر إلى «جعفر»، وقال له: اتبعني.

دخل به إلى حظيرة كانت بها جِمال وحمير، وقال له: اختر ما تركب. ثم فتشه ليطمئن إلى أنه مجرد من أي سلاح. ركبا جملين، تتدلى منهما قِربتين من الماء وضرتين من الزاد. انطلقا حتى بلغا مغارة الفلاتية عند العصر.

ما إن رأى «جعفر» المعلم «فتيحة» حتى قال له: جئتك برسالة من أحد رجالك في السجن.

كان السجين من أعز رجاله. واقتطف «جعفر» بعضًا من التفاصيل التي كان قد سمعها من السجين فاطمأن المعلم له، ولان كثيرًا حين قال له «جعفر»: حكى لي رجلك عن شهامتك وكرمك يا معلم. ومد يده إلى جيبه، وأخرج كل ما فيه من نقود، وأعطاها للمعلم، فنادى الرجال وعرفهم على الوارد جديدًا إليهم، وقال: ضيفي إلى أن يختار الانضمام إلينا.

كان «جعفر» قد حدثه عن أنه يبحث عن مكان آمن للاختباء بعض الوقت، إلى أن يدبر أمره، بعد أن يطمئن إلى أن ضابط الثُّمن لم يعد يسعى خلفه. قرأ معه الفاتحة على أن يظل مخلصًا للفلاتية، لا يعصي

لهم أمرًا ما دام بينهم، ولا يذيع لهم سرًّا حين يفارقهم، ولا يتأخر عن أن يُقدِّم لهم يد المساعدة إن احتاجوا إليها في أي يوم من الأيام.

(17)

ارتدت «عبلة» ملابس الرجال. ركبت الفرس الذي كان لأبيها، وخرجت ذات ضحى إلى الجسر، لترى الفلاحين وهم يكدحون في أرضها. توقفت تحت ظل شجرة كافور، ورفعت يدها تشير إلى «عمر»، وكان يحدث الفلاحين في شيء لم تسمعه، انتبه إليها، ومد بصره ليتبين مَن يستدعيه، لكنه لم يعرفه.

مشى إلى حيث هي، فلمَّا اقترب منها، قال في دهشة: لا أصدق ما أراه.

ابتسمت، وقالت: زهقت من قعدة البيت.

رمى عينيه عند قدميه، وقال في حياء: يعز علينا تعبك.

قالت في ثقة: وددت لو فعلت هذا منذ أن عجز أبي، لكنه كان يرفض.

ووجدها «عمر» تتردد كثيرًا على الحقول، فأمر الفلاحين ببناء تعريشة لها، وطلب من الخُصريّة أن يجهزوا حصيرًا تملأها، ثم فرش فوقها سجادة، أرسلتها إليه من السرايا، ومعها ثلاثة كراسي، لتجلس إليه ومعه «محمود» تراجع الحسابات، وتطلع على ما تريده الأرض من سباخ وبذور، وما يحتاجه الفلاحون من شواديف وطنابير وفؤوس ومناجل وسماد بلدي، وتنصت إلى شكواهم.

وجدت في الشابين أمانة وتفانيًا، فأطلقت يدهما في اتخاذ القرار،

وكان المردود دومًا طيبًا. كان كلاهما يعرف ما بينها وبين «جعفر»، فأخلصا في خدمتها، ولم تكن هي تبخل عليهما بجزيل العطاء، فاستردت أسرتا «الصوابر» و«آل بخيت» الكثير من عيشها المستور.

كان «محمود» فرحًا لأن قلب «عبلة» قد دق ورق لقلب «جعفر»، ويرى أن هذا من المعجزات التي أخفاها القدر من أجل أن تقرب «الصوابر» من استرداد مجدهم الضائع عبر أقرب الطرق وأسلمها. أما «عمر» فكان متقلبًا بين هذه المعجزات التي طالما انتظر أهله مجيئها بفضل بركة الراحلين، وبين مشاعره التي تحركت، دون إرادة منه، حيال «عبلة»، لكنه لم يدع هواه يغلبه. كبت أحاسيسه، بل قتلها. حوّلها إلى غبطة عارمة، وهو يقول لنفسه كلما وجد قلبه يريد أن ينبض: اختارت «عبلة» أفضل مَن فينا، وهذا دليل على أنها جديرة بالمحبة، وهو من إعجابي بها، وليس أمامي سوى أن أتمنى لها كل الخير.

فاتحت النساء «عمر» و«محمود» في أمر زواجهما، بعد أن صارا يملآن عيون الناس في «الجابرية»، فاختار كل منهما واحدة من بنات العمدة، وذللت «رسمية» بسطوة دلالها الطريق لهما، فرضي العمدة، ورحبت زوجته التي كان قد وصلها أن الشابين صارا محل ثقة «عبلة» وآلت إليهما إدارة أرضها الوسيعة.

بنى «عمر» و«محمود» بيتين لهما عند طرف القرية على قطعة أرض أهدتها لهما «عبلة» عن طيب خاطر. جاءا بالنجارين من أولاد «غطاس» فأعدوا لكل بيت ما يلزمه من أثاث. ابتاعوا من دكان اليهودي «أدرعي» الأواني. حين اطمأنا إلى أن البيتين صارا صالحين

للسكن، عقد مأذون القرية قران «عمر» على «هنيّة»، و«محمود» على «رضيّة»، وزفا إليهما في ليلة صدح فيها القوّالون على الرباب، وغنى المنشدون في حضرة ذِكر، بعد أن ذُبحت العجول والخراف من حظيرة «عبلة»، فأكل أهل القرية، وعاشوا ليلة سعيدة، لم يشهدوا مثلها منذ وقت طويل.

لم يمر سوى عام حتى رزق «عمر» بولد أسماه «رافع»، ورزق «محمود» ببنت أسماها «بديعة»، فعاد بيتا «الصوابر» و«آل بخيت» يدب في رحابهما وارد جديد.

لكن عام الفرح أبى أن ينتهي إلا ويطلق حزنًا في عروق الأسرتين، إذ ماتت «رقية» وتبعتها «ناعسة»، ودفنتا في قبرين على مقربة من قبر «رضوان». وما إن بدأ العام الجديد حتى مات «صفي الدين»، وحُفر له قبر إلى جوار الزاوية، ونُصب عليه شاهد، واكتسى بضريح راح الناس يقصدونه للبركة في الأيام اللاحقة.

(18)

سارت حياة العمدة «مرتجي الجابر» مع زوجته «رسمية» على أفضل وجه. اطمأن إليها، ونقل خزينة أمواله من بيت زوجته الأولى إلى بيتها. كانت غاية في الأمانة على ماله. تعرف أن أغلبه سيذهب إلى ابنها «رشدان».

لكن حياة الأزواج لا تمضي دومًا دون منغصات، قد تثيرها مشكلات صغيرة تنشب بين حين وآخر. إحداها تطورت ذات ليلة وهما في غرفة النوم. بلغ غضب العمدة مداه، فصفعها على وجهها، وقال لها: أنتِ بلا أصل، وجعلت منكِ هانمًا يوقرها الناس.

صرخت في وجهه: أنا هانم قبل أن أعرفك.

نظر إليها ساخرًا، وهي لا تزال تضع كفها على موضع الصفعة، وترتجف غاضبة، وقال: عشنا وشفنا الهانم التي جئت بها من بيت «نبوية».

صرخت مجددًا، وقالت له: كلنا أولاد تسعة.

عاد إلى سخريته، قائلًا: ليست كل البطون واحدة.

نظرت إليه في تحدٍّ، وقالت: البطن الذي حملني أفضل من البطن الذي حملك.

زاد غضبه، وهمّ أن يصفعها مرة أخرى، لكنها جرت من أمامه، وهي تقول: العين لا تعلو على الحاجب، وأهلي كانوا فوق أهلك زمنًا طويلًا.

ألجمته عبارتها، فتمتم بما لم تسمعه، ثم نظر إليها، وهو يستعيد حكاية ثروة أهلها الضائعة، ثم قال: لا يوجد في الزمام كله مَن هم أفضل من «الجوابر».

ضحكت هازئة، وقالت: يبدو أن أباك لم يحكِ لك عن أصل هذه القرية، أو أنه لم يسمع من جدك ما يحكيه لك.

غمغم في غضب، وقال: مَن أنتِ حتى يأتي ذكر أجدادي على لسانك؟

واصلت تحديها: أجدادك خضعوا لأجدادي، لكن الدنيا دوّارة.

عاد للسخرية: من الترك أنت؟ أم من الأسرة العلوية وأنا لا أدري؟

كشفت ما خبأته وأهلها سنين، وقالت: أنا من «الصوابر» على سِن وزمح.

قهقه غير مصدق: أي «صوابر»، لقد كان من بينهم معدمون وفلاتية ومجاذيب؟

أجابته: جدي الكبير «رضوان الصابر» هو مَن زرع أول قيراط في هذه الأرض، وبنى فيها أول دار، وجدك الكبير كان يتمنى رضاه وينافقه.

جلس العمدة مكانه غير مصدق. تاه في شرود طويل. راح ينظر إليها، بعد أن جلست أمام تسريحتها، تمشط شعرها في عصبية، موزعة بين ندم على كشف سر أهلها الذي خبأوه طويلًا وبين ارتياح بعد أن عرف العمدة مَن هي المرأة التي تعطيه جسدها كلما أراد، ويظن أنه قد أنعم عليها بالزواج منها.

تركها وخرج إلى صالة البيت، يُقلّب ما سمعه في رأسه، وآثار الغضب تتسرب من نفسه رويدًا رويدًا، فلمّا هدأ تمامًا دخل إليها، وقال: تخون المرأة زوجها إن خبأت عنه سرها.

التفتت إليه، وقالت: لم تسألني من قبل لأجيبك.

جلس على طرف السرير، وقال: ها أنا أسألك.

لاذت بدلالها الأخاذ، الذي تعرف أنه السهم الذي يمرق دائمًا إلى صميم قلبه، فلا يستطيع منه مهربًا، وسألته: ألا يُشرّفك أن يكون «الصوابر» أخوال ابنك؟

هز رأسه، وأجابها: يُشرّفني.

سألته: هل إن حكيت لك تصون سري؟

وفي محاولة منه أن يستدرجها لتحكي له كل شيء، قال لها: بيننا ابن تمنيته من الله طويلًا، وأنت وابنك عندي أغلى من أي أحد، ولا تنسي أن ما يضرك يضرني قبلك.

قامت إلى السرير، وجلست إلى جواره، وأزاحت عن رأسه العمامة، ثم أخذته إلى صدرها، وسردت على سمعه حكايتها كاملة، وهو شارد يتعجب من تصاريف الدنيا، التي تأخذ وتعيد، وتدفع الماضي في قلب الحاضر، دون سابق ترتيب.

أدركت أنه قد لان في يديها، فنزعت عنه ملابسه، قطعة قطعة، وهو مستسلم لها كعادته، منتظر عبثها به كيفما شاءت، حتى يصل إلى الشهقة الحارقة، ثم يرتمي في سبات عميق. لكن العمدة ظل مفتوح العينين، يحاول أن يطرد عن نفسه الوساوس والهلاوس التي سكنته، ثم قال لنفسه بصوت خفيض، لم تسمعه هي بعد أن غرقت في نوم عميق: لن يغفر لنا أهلنا أننا ضيعنا مجد العائلة في فرشة امرأة.

كعادته، بحث في كل هذا عما يفيده، الآن قبل الغد. برقت في رأسه فكرة اغتبط لها، وقال: قد تكون فرصتي الوحيدة لتصبح أرض «عبلة» في يدي، ولابني من بعدي، وهو عندي أهم مَن في هذه الدنيا.

(19)

انتظر العمدة حتى الضُّحى، ثم سار إلى سرايا الوجيه. أجلسته الخادمة في البهو انتظارًا لمجيء «عبلة»، التي كانت قد فرغت من إفطارها، واستعدت للذهاب إلى التعريشة لتباشر العمل في الأرض. نزلت إليه مرحبة، وطلبت من الخادمة أن تعد له القرفة التي كانت تعرف أنه يفضلها. راح ينظر إليها في حيرة، لا يعرف من أين يبدأ الكلام.

أدركت قلقه، فقالت له: يبدو أن معك خبرًا سيئًا، يثقل لسانك.

نظر إليها، وقال: ربينا الثعابين في جحورنا.

ملأها توجس، وسألته: أي ثعابين؟

تنحنح، وبلع ريقه، وسألها: هل تعرفين شيئًا عن الرجلين اللذين تسلما مراعاة العمل في أرضك؟

ابتسمت، وقالت: أعرف ما يعرفه كل الناس.

سحب رشفتين من كوب القرفة، وواصل: عرفت الليلة الفائتة ما لم يخطر لي على بال.

ثم حكى لها ما أبلغته به زوجته، وهي صامتة لا يبدو في عينيها أي عجب. فلما فرغ من كلامه، قالت له: صرت صهرهم، هم أخوال ابنك، وآباء أحفادك.

طوح يده في الهواء، وقال بحروف غاضبة: ورطة، لا أريد لكِ مثلها.

سألته على الفور: أي ورطة؟

بلع ريقه، وقال: ربما يدبر زوجا ابنتيّ ما يسلب منك أرضك، فيضيع على يدك ويدي كل ما كان لـ «الجوابر» في هذا المكان.

وسايرته لتعرف ما يفكر فيه، فسألته: إن كانت هذه مشكلة، فما حلها لديك؟

صمت برهة، واستجمع زمام أمره، وقال: لا أدعوك إلى طردهما، لكن أنبهك إلى ما قد يقع في قادم الأيام.

ابتسمت، وقالت: لم أرَ من «عمر» و«محمود» إلا الأمانة والإخلاص.

هز رأسه، وقال: مع هذا لا بد من الحذر.

قالت وعيناها ذاهبتان إلى شاربه الكث المتدلي على شفتيه: أحيانًا تكون البنت بمائة رجل.

تنحنح، وقال: أعرف أنك واعية إلى مصلحتك جيدًا، لكن قد تحتاجين إلى أحد من أهلك يساعدك في أن تظلي قابضة على زمام الأمر.

سألته، وكانت قد أدركت ما يرمي إليه: مَن يا ترى هذا الذي تفكر فيه؟

أجابها على الفور: اجعلي أمر الشابين تحت عينيّ، حتى لا نُفاجأ بما لا تُحمد عقباه.

ضحكت، وقالت: يا عمدة، لا أعتقد أن لديك وقتًا لأحد، فأنت مشغول بمتاعب العمدية وأرضك وزوجتيك.

وصمت، فواصلت: اطمئن، أنا أقدر خوفك على مجد عائلتنا، لكن

أنا معنية بهذا مثلك.

لم يجد ما يقوله، سوى: من واجبي أن أنبهك، والأمر لك، وعمومًا لا تترددي في الرجوع إليّ حين تحتاجين إلى هذا.

وقفت، فنهض العمدة، وكان قد فرغ من شرب القرفة، ووضع الكوب على طاولة صغيرة أمامه، وقال: من جانبي لن أقصر في الاطمئنان عليك من حين إلى آخر.

لكن العمدة لم يعاود زيارة السرايا مرة أخرى، فبعد أسبوع واحد من لقائه «عبلة» أخذته سكتة قلبية إلى العالم الآخر.

(20)

عاد أحد الفلاتية ذات مساء إلى الجبل، وقال وعليه علامات الحسرة: الفيضان أغرق القرى. وحكى عن موج عاتٍ كنس بيوتًا بساكنيها، وكيف كان الناس عاجزين عن مواجهة هذا الاجتياح الكبير. انهمك الرجال في حديث عن الماء، كيف فيه الخير والنماء والحياة، لكنه يكون أحيانًا شرًا مستطيرًا، في السيل والفيضان والطوفان. ثرثروا طويلًا بينما «جعفر» شارد لا يخالطهم الحديث. نظر إلى المعلم «الجاسر»، وقال له: لا بد أن أذهب للاطمئنان على أهلي.

قهقه الرجل، وقال: اجلس واحمد الله على نجاتك.

لكن «جعفر» ألح في طلبه، فقال الرجل: لا سبيل لعبورك النهر الآن، فاصبر حتى يهدأ الماء.

بقي على قلق، حتى عرف أن الماء قد غاض. ركب جملًا ووصل

إلى عشش البدو، فتركه عندهم، كما أوصاه «الجاسر». كانت الشمس تتوسط السماء، فمكث على الشاطئ الشرقي، حتى اقترب الغروب، ثم دفع لصياد كان قد أوحشه التقاط رزقه، فنزل إلى النيل فور تراجع الموج. بلغ الشاطئ الغربي مع حلول الظلام. كانت الأرض لا تزال زلقة، وبرك الماء تناثرت هنا وهناك، وطمرت تحتها الكثير من الزروع.

شخّص ببصره إلى الأمام الغارق في الوحل والظلمة، ووجد نفسه يواجه ما ليس له به سابق خبرة، فوقف محتارًا، لا يعرف كيف ينقل قدميه بعيدًا عن الأوحال. كان قد خلع حذاءه، ووضعه تحت إبطه، وشمر جلبابه عن ساقيه، وربطه حول خصره. تعثرت خطواته، لكنه كان يتلمس أي بقعة يابسة على قدر ما يجد، إلى أن اقترب من الجسر.

كانت الحقول خالية، وأضواء لمبات الجاز الواهنة تنبعث من نوافذ قريبة. هناك على اليسار أضواء أكثر جلاء، تهديها الكلوبات المعلقة داخل السرايا. أي طريق يسلك؟ هل يذهب إلى السرايا الآن، فهي الأقرب إليه؟ أم ينتظر حتى ينام الخفير والخدم بعد انتصاف الليل؟ لكنه لم يلبث أن اهتدى إلى المكان الذي عليه أن يبلغه حتى تمر الساعات فتخلو أمامه الشوارع إلى بيت «نبوية».

وجد حدًا مرتفعًا من التراب، صنعه الرجال ليحولوا دون دخول الماء، الذي طمر مواضع خفيضة من الجسر وساح نحو البيوت. مشى فوقه على مهل، وصعد به إلى أن صار أمام الزاوية. كانت مغلقة ومظلمة، وحولها تعوي ريح أطلقها المساء المخيف، تضرب

جوانب القبور، ثم تنحرف إلى الزاوية فتهتز سعفات الجريد، وأوراق البوص اليابسة، المثبتة في جدارها، باعثة رهبة في المكان.

فتح باب الزاوية، وكان يعتقد أن الشيخ قد نام مبكرًا، أو أنه جالس يتهجد في الظلام، لكن أدرك في النور الخفيف الذي أرسلته النجوم، أن المكان خالٍ. نادى بصوت خفيض، فلم يسمع سوى صوته. أين ذهب الشيخ؟ سأل نفسه، وغمره خاطر أن الرجل ربما يكون قد فارق الزاوية بعد أن أحاط بها الماء، وانقطعت السبل بينها وبين شوارع القرية.

خرج إلى القبور. وقف أمام قبر «رضوان»، وبعده إلى قبر «غنوم»، وقرأ الفاتحة على روحيهما، ثم امتطى القبر الأول، فصار بوسعه أن يرى البيوت جيدًا. لاحت له السرايا زاهية بالنور الأبيض، ورأى أشباحًا تتحرك هناك. ابتسم وهو يسأل: أي شبح منها للمحبوبة المنتظرة؟

انتبه إلى ضريح جوار الزاوية، فدار حوله، حتى وجد شاهدًا يدل على ساكنه، فبكى الشيخ الراحل بكاءً حارًا، وانخرط في قراءة أدعية، كان قد حفظها عنه، ثم دخل إلى الضريح، وقبل العمود البارز المسجى برداء أخضر، حيث اتجاه الرأس المدفون، وخاطب الراقد تحت الثرى بصوت خفيض: نم في سلام، وأعدك بألا يتوه مني الطريق الذي أخذك إلى هنا، وأخلصت له وكأنك من «الصوابر».

كان نباح الكلاب يتواصل بلا انقطاع، وسمع نداءات متقطعة بين حين وآخر. هذا ينادي زوجته. هذه تنادي أولادها. وتختلط الأصوات بنباح الكلاب ومواء القطط. جلجلت قهقهة صافية شقت الليل إلى

أذنيه، فقال لنفسه: يبدو أن الناس هنا قد اجتازوا محنة الفيضان.

ظهر قمر آخر الشهر في صفحة السماء، مرسلًا نوره الواهن، ليكشف بعض ما جرى للأرض. كان عليه أن ينتظره حتى يغيب، أو يهتدي به إلى حيث يريد. جلس يفكر، فأدرك أن الفيضان حال بين القرى وبين البندر حيث ضباط الثمن وعساكره، وأن الطريق إلى بيت «نبوية» ليس محفوفًا بالمخاطر. ربما لا يراه أحد، فالفلاحون يخلدون إلى النوم مبكرًا. حتى لو رآه البعض فقد لا يعرفونه، وإن عرفوه فمَن ذا الذي بوسعه أن يبلغ عنه مطارديه، والقرية معزولة على هذا النحو.

فك وثاق جلبابه، وارتدى حذاءه، ومضى على مهل نحو البيت. لم يقابله أحد في الشارع، إلا الكلاب والقطط الضالة، وعِرَس وفئران تجري نحو شقوقها في الجدران الطينية. طرق الباب بأطراف أصابعه، وانتظر. سمع حفيف قدمين آتيتين إليه. سمع صوتًا يسأل: مَن؟ وضع شفتيه في ثقب الباب، وأجاب: أنا «جعفر». انفتح الباب عن «نبوية»، التي ما إن رأته أمامها وخلفها نور اللمبة الواهن، حتى انخرطت في البكاء.

صافحها بقلب مرتجف، وأغلق الباب، وسألها: أين أمي؟

غلبت بكاءها، وقالت له: استرح الآن.

أجلسته فوق حصير جديدة مستقرة في جانب الصالة، وقالت له: سآتي لك بطعام، لا بد أنك جائع.

وملأت الظنون ذهنه، فألح في طلب أمه. جلست «نبوية» في

مواجهته، وحكت له كل ما جرى في غيابه. وضع رأسه بين كفيه وانتحب في شدة، بينما صدره يرتج ألمًا وحسرة على أنها رحلت دون أن يراها. جاءت «عزة» و«خضرة» فسلمتا عليه، وواسته كل منهما في شفقة، وأثارهما بكاؤه الحرور فتجددت الأحزان، وشاركتاه البكاء.

وعرف أيضًا بزواج وإنجاب «عمر» و«محمود» فقرر أن يغادر إلى بيتيهما. ولم يكن يعرف أين هو؟ فقالت «خضرة»: سأمشي أمامك إليهما، حتى لا ينتبه إليك أحد.

وجعلت بينها وبينه مسافة كافية، وهو يتبعها إلى أن بلغ بيت «عمر»، وكان يستعد للنوم، فخرج يفتح الباب متثائبًا، فلما رأى «جعفر» احتضنه بشدة، وأخذه إلى الداخل، وهو يقول: تأخرت علينا.

تنهد في حرقة، وقال: لم يأتِ إليّ خبر يطمئنني على سلامتي إن نزلت إليكم، ووجدت الفرصة بعد الفيضان.

أرسل «عمر» يستدعي «محمود» فجاء على عجل. جلس الثلاثة يستعيدون الحكايات حول الراحلتين، ثم سألهما «جعفر» بغتة، عن وقت وفاة الشيخ «صفي الدين»، وكان قد نسيه قليلًا في غمرة حزنه على أمه، فأبلغاه أنه فارق الحياة مع مطلع العام، وأنه أوصاهما بألا يتنازلا عن الحلم الذي يسري في أوصال العائلة كالدم في العروق.

نظر إلى «خضرة» فأدركت أنه يريد أن يسر إلى الشابين بما لا يريد لها أن تسمعه، فقالت: سأذهب للسلام على «هنية» وطفلها. ثم التفت

إليهما «جعفر»، وسألهما عن «عبلة» فحكيا له عن ارتدائها ملابس الرجال، والتعريشة التي نصبت لها على طرف الحقول لتباشر منها سير العمل، لكن الفيضان جرفها في طريقه.

أحضرا له طعامًا، فلم يجد شهية لتناول شيء منه، لكنه مد يده إلى لقيمات حتى لا يُغضب «عمر»، ثم شرب الزنجبيل أملًا في أن يساعده في التغلب على خشخشة تنبعث من صدره العريض. فلمّا سحب آخر رشفة، قال للشابين: أريد أن أرى «عبلة».

تبادلا النظر، وقال «عمر»: كيف تدخل إليها، وأمامك السور العالي والأبواب المغلقة، وخفير وخدم؟

ابتسم، وقال: لا تخشوا من شيء، فأنا أعرف طريقي إليها. ثم نهض، وقال: سأراها ثم أمضي إلى الجبل.

وسألاه عن مكانه، فقال: مكان آمن، وحولي كثيرون لا يبخلون عليّ بشيء.

قال «محمود»: أبلغنا عن مكانك، فربما فكرنا في زيارتك للاطمئنان عليك.

ابتسم، وقال: لا أفضل هذا، حتى لا تلفتا الانتباه إليكما. وربما يزعج هذا الفلاتية.

قال «عمر»: لن نجبرك على شيء، لكن لا تتأخر علينا.

دس كل منهما يده في جيبه، وأخرج ما به من نقود ومده إليه، فقال: لست في حاجة إلى نقود.

لكنهما أصرا، وكانت النقود رسوله إلى قلب «الجاسر»، لا سيما أنه لا يشارك الفلاتية الإغارة والسرقة أو العمل لحساب مَن يؤجرهم لقتل نفس، أو حرق زرع وبيوت، فأخذ المال في امتنان.

قال له «محمود»: عليك أن تذهب أولًا لعزاء «رسمية».

- عزاؤها في مَن؟

- العمدة، تعيش أنت.

كانت «خضرة» قد جاءت، فقالت: يحلو للناس السهر في الساحة المؤدية إلى بيتها، ولا أضمن أنها قد خلت منهم.

قال «عمر»: لا داعي لذهابك، وسنبلغها مواساتك، ونشرح لها عذرك.

مضى على مهل يستتر بظلام الجدران حتى وصل إلى سور السرايا. كان يعرف مكان الجزء المتهدم منه، فلما بلغه وجد أحجارًا قد رُصّت فيه، متعاقبة غير ملتصقة جيدًا. حاول أن يشب فوقه من مكان آخر فأخفق، فعاد إلى الأحجار. رفع ذراعيه حتى قبضت كفاه على أول حجر. زحزحه فانخلع في يديه. حمله ووضعه إلى جانبه، ثم فعل الأمر نفسه مع الذي يليه، حتى صار بمكنته أن يشب منه، ففعل. مشى يتخفى في جذوع النخل والأشجار، حتى وصل إلى غرفة «عبلة»، كانت نافذتها مواربة، ونور ينبعث منها. كمش مكانه فسمع حفيف قدميها في الغرفة. اقترب وناداها بصوت خفيض. خرجت ومدت بصرها في الظلام. كان النور خلفها يرسم له نصفها العلوي، فقال لها: أنا «جعفر».

وجمت، والفرحة ترقص في شراييها، وقالت له: اذهب إلى الباب،

سأفتح لك، الكل نائم.

واستقبلته في البهو الذي كان آخر عهده به الإهانة التي تلقاها من «زاهر». أخذ يديها في يديه، وقال لها: يقتلني الشوق إليك. همست له في تأثر شديد: تأخرت عليّ. رد وهو يُقبّل جبينها: «غصب عني».

طلبت منه أن يتبعها إلى غرفتها، وكان الطريق إليها آمنًا، إذ أتى غطيط الخادمات من غرفتهن يجرح السكون. اختلى بها، واحتضنها بقوة، وهي تبكي، ومن غيوم الدمع رأت النافذة مفتوحة، فخلعت جسدها من بين ذراعيه، وأغلقتها. وكانت اللمبة المعلقة في الجدار تصارع من أجل أن يبقى نورها المتداعي حاضرًا، لكن اصطكاك النافذة في قوة دفع هواء إليها فانطفأت، ولفهما الظلام. اهتدى إلى أنفاسها اللاهثة الساخنة، فالتحم بها في حضن جديد.

ووجد نفسه يقول لها، دون ترتيب أو تفكير: تتزوجيني يا «عبلة».

لم يسمع ردها، لكن الرد جاء في ضغطة قوية من ذراعيها، فانهال على وجهها تقبيلًا، ثم هبط بشفتيه إلى شفتيها، فالتقمهما، وعصرهما في حرقة، فاختلط لعابهما وهي تتنهد تاركة اللذة تسري في عروقها. مد ذراعيه، وحملها إلى السرير، وقفز فوقها يواصل تقبيل صدرها ووجهها وشفتيها، فلما شعرت بشيء يتمدد إليها صلبًا ساخنًا، ارتعدت ودفعته إلى جانبها، وهي تقول: لا تجعل الشيطان يغلبنا.

ماتت حرارته بغتة، وسبح بعينيه في الظلمة الرائقة المفروشة في سقف الغرفة، وقال: أخشى أن تمضي السنوات ولا ينطفئ الشوق.

صمتت برهة، ثم قالت: بوسعنا أن نفعل ما نريد.

مد ذراعه تحت عنقها ثم سحب رأسها إلى صدره، وسألها: كيف؟

قالت: أنت عرضت عليّ الزواج.. وأنا قبلت.

ارتسمت على شفتيه ابتسامة ساخرة لم ترها، وقال: ما الذي يُجبرك على الزواج ممن هو الآن فلاتي ضائع؟

أجابته على الفور: مع المحبة لا توجد عوائق.

لم يجد ما يرد به عليها، فواصلت هي: يمكننا تدبير كل شيء، ويبقى الأمر بين مَن نأتمنهم عليه حتى يأتي الوقت الذي يعرف كل الناس أن ابنة الوجيه قد تزوجت من أشجع الشباب وأنبلهم.

ارتاح لقولها، وانهمرت في رأسه خواطر وتدابير عما يجب عليه فعله، لكن كل شيء ضاع بغتة حين قالت: آن الأوان أن تنهزم الكراهية أمام المحبة، ويجمع «الصوابر» و«الجوابر» فراش واحد.

انتفض جالسًا، ونظر إليها، فوجدها تقول: عرفت كل شيء.

سألها: مَن أبلغك؟

- العمدة رحمة الله عليه عرف من زوجته «رسمية»، وأبلغني قبل وفاته.

- رجل مثله لم يخلُ قلبه من الأحقاد القديمة.

- أحقاده ماتت معه.

سألها في لهفة: وأنت؟

ضحكت، فوضع يده على فمها في سرعة، وقال: يسمعك أحد.

أزاحت يده، وقالت: حذّرني منكم، فأبغلته أنني لم أجد مَن في إخلاصكم ووفائكم.

أمسك كتفها اليسرى، وأدارها حتى تلاقى وجهاهما في الظلام، وشدها إليه، ثم غرقا في قبلة طويلة، ذابت فيها كل أحقاد الماضي، وقال لها: هي المرة الثالثة التي يلتقي فيها الصوابر والجوابر في الفراش.

(21)

أرادت له أن يخرج من الباب، لكنه سمع سعال الخفير، فقال وهو ينظر من النافذة: سأذهب على طريقة الفلاتية الذين صرت منهم. ثم أفزعه أن تظن به السوء، فقال لها: لم أشاركهم في شيء مما يفعلونه، وليس لي معهم سوى المقام المؤقت. صافحته، وهي تدوس على يده، وقالت: داخلك خير يغلب أي شر.

فتح النافذة على مهل، ومد يديه إلى جذع النخلة المسنودة إلى جانبها. قفز فصار فوقه ينشب أظافره فيه، ويهبط محاذرًا، حتى لامست قدماه الأرض. غاب بين الشجر والنخيل، ووصل إلى الجزء الذي أزاحه من السور. قفز وصار خارج السرايا.

كان عليه أن يمضي نحو النهر، متحسسًا طريقه بين الأوحال، يدفعه خوف من أن يراه أحد ويبطئه خوف من أن يسقط في بركة أو لُجة. وبينما هو يتوخى الحذر في سيره، ناظرًا تحت قدميه حتى لا تنزلقان، اصطدم بجسد فارع يابس، فرفع بصره، فإذا به رجل يمضي نحو القرية. التقت العينان بالعينين. مد «جعفر» يده بسرعة ليسحب الكوفية على وجهه، لكنه سمع الرجل يسأله: أهربت من

السجن يا «جعفر»؟

رد عليه في سرعة: «جعفر» مَن يا أعمى؟

ثم دفع الرجل بقوة، فأسقطه في الوحل، وجرى نحو النيل، لا يلتفت خلفه، حتى بلغ الموضع الذي تربض فيه قوارب الصيد. فك وثاق أحدها، وأخذ يجدف بقوة، غير عابئ بالجلبة التي يحدثها شق المجدافين للماء. انتبه أحد الصيادين، ونادى في الظلام: مَن هناك؟

لم يرد، وواصل التجديف، ولمّا بلغ منتصف النهر، خلصت له ثلاثة أجساد تجري على الشاطئ، ثم قفزت في قارب، راح يتبعه، لكنه اقترب من الشاطئ الشرقي قبلهم، وحين اطمأن إلى ضحالة الماء، ترك القارب وقفز. رفع جلبابه وأطلق ساقيه تشرخان الماء حتى وصل إلى اليابسة، وصعد سريعًا إلى الجبل.

(22)

عصر «جعفر» ذاكرته، فأفزعه ما جادت به عليه. أدرك أن الرجل الذي رآه وهو يتخبط في الأوحال والبرك هو مَن شهد عليه في المحكمة، ولم يكن يعرف بالطبع أنه واحد من قتلة «زاهر». حين حكى للمعلم «الجاسر» الذي كان قد آمن ببراءته، قال له: سيذهب هذا الوغد إلى الثُّمن للإبلاغ عما رآه، ويستجوب الضابط أهلك ليعرف مكانك.

قال مُطمئِنًا إياه: لم أبلغهم بمكاني أبدًا.

نظر إليه «الجاسر» مليًا، وقال وهو يتكئ على الحروف: هذه مسألة لا ينفع فيها الإنكار.

قرب «جعفر» وجهه منه، وقال وهو ينظر في عيني المعلم طويلًا، وقال: لم أكذب عليك من قبل.

هز «الجاسر» رأسه، وقال: عليك أن تمتنع عن زيارة أهلك حتى ينجلي الأمر.

بدا على وجه «جعفر» أسى وحيرة، فقال له «الجاسر»: لا تخشَ على أهلك، بوسعهم أن ينكروا زيارتك لهم.

صمت «جعفر» برهة، وقال: ليس هذا فقط ما يحزنني.

وانتظر «الجاسر» أن يبوح له «جعفر» بما يوجعه، فلم يتأخر عليه، حدثه عن رغبته في الزواج؛ لأن مثل محبوبته لا يجب أن تنتظر أكثر من ذلك، وكيف كان يعتقد أن المسافة بينه وبينها قد ضاقت، وأطلعه على ما فكر فيه من أن يتزوجها سرًا، لا يعرف بهذا سوى أهله، وهو يضمن كتمانهم الذي اختبره طويلًا، ثم يهبط إليها من الجبل مرة واحدة كل شهر، وكيف تبدد هذا في لحظة مشؤومة رآه فيها الرجل وعرف مَن هو.

ضحك «الجاسر»، وقال: يهبط بعض رجالي إلى زوجاتهم تباعًا كما تعرف، لكن هذا يتم في حذر شديد.

قال «جعفر» وهو يتنهد: حتى هذا خرمت منه.

شد المعلم على يده وقال: لا تحزن، لديّ حل مؤقت إلى أن تنكشف الغمة.

عرض عليه أن يبني كوخًا بين البدو، وسيوفروا له الحماية، ويقيم فيه مع عروسه الأسابيع الأولى لزواجه، ثم تهبط هي إلى القرية،

ويعود هو إلى المغارة، بعد أن يضبطا مواعيد اللقاء تباعًا. وصمت برهة، وقال: شرطي الوحيد أنه إذا شك فيها أحد وتبعها إلى الجبل، وأمسكوا بك، لا تدل علينا أبدًا.

قهقه «جعفر»، وقال: أعتقد أن العروس سترفض من الأساس هذا العيش الخشن.

وأبلغه مَن تكون هي، فسأله على الفور: هل تحبك؟

أجابه وهو يزاور عينيه بعيدًا: نعم.

ابتسم «الجاسر»، وقال: سترضى، طالما لا حل أمامكما سوى هذا.

شرد «جعفر» في خواطر مضطربة، وتطلع إلى الصحراء الممتدة أمام عينيه، فرآها تضيق على اتساعها، وشعر بأن شيئًا ثقيلًا يقبض على صدره. أدرك المعلم ما يضنيه، فقال له: لديّ طريقة تطمئنك على أهلك.

رفع وجهه إليه ليسمع منه، فقال: ثق بي، فأنا أستطيع أن أفعل الكثير من أجلك، وغدًا سترى.

هز «جعفر» رأسه، وقال: أعرف أنك على قدر وعدك يا معلم.

(23)

أبلغ الرجل رفاقه في القتل أنه قد رأى «جعفر». تنادوا ليلًا، والتقوا عند الزاوية. جلسوا في بقعة صلدة تفصل بين قبور «الصوابر» و«الجوابر»، وتشاوروا في الأمر طويلًا. قال أحدهم: علينا أن نبلغ الثمن.

تدخل الثاني: ربما يجدد هذا النظر في القضية، وتحوم حولنا شبهات نحن في غنى عنها.

قال الثالث: أخاف أن يفكر «جعفر» في الانتقام.

بلع الرابع ريقه، وقال: هو لا يعرف القتلة.

رد الثالث: لكنه يعرف مَن شهدا ضده.

كان الخامس يجلس منصتًا جيدًا إلى ما يسمع. تطلع إليه الرجال ليعرفوا رأيه. حك ذقنه بطرف إصبعه، وقال: نعرف أن «جعفر» لم يقتل، وصعب على شاب مثله، سمعنا عن استقامته، أن يُقدم على مثل هذه الجريمة. وطالما أن السر مدفون بيننا نحن الخمسة، فلا خوف على الإطلاق.

تنحنح أحدهم، ثم تساءل ساخرًا: هل هناك سر يبقى بين خمسة؟

قال الخامس: نعم، إن كان كشفه سيأخذهم إلى السجن.

طأطأ الأول رأسه، وقال: لا أعتقد أن السر لا يزال بيننا فقط.

نظروا إليه في اندهاش، وقال الثالث: يبدو أنك لم تلتزم بالكتمان.

لاذ بالصمت، وزاغ بصره في اتجاه الخلاء المظلم، ورفت شفتيه بكلمات حبيسة. وكان الخامس يراقبه جيدًا، فقال له: يبدو أن السر قد خرج منك.

لم يرد، فواصل الخامس: لا تخفِ علينا شيئًا. نحن في مركب واحد، وعليك مصارحتنا لندبر أمرنا.

زفر في تألم، وقال: أرجو أن تسامحوني.

لم ينطق أي منهم، وتطلعوا إليه، ليواصل كلامه. بلع ريقه، وقال: لم أقل لأحد سوى زوجتي.

قهقه الرابع وقال: النساء لا يصبرن على سر، خصوصًا زوجتك.

هز رأسه رافضًا ما سمع، وقال: هي تعرف منذ سنين، ولم تقل لأحد.

قال الثالث وهو يمصمص شفتيه على ما آلت إليه الحال، وقال: ربما قالت ولم تخبرك.

لكن الخامس قال بعد أن تطلعت إليه العيون ليدلي بدلوه: لو كانت قد فعلتها، لدار الكلام ووصلنا، فقد مرت على الجريمة سنوات.

(24)

أرسل «فتيحة الجاسر» إلى قرية «الجابرية» رجلًا اسمه «هريدي الجرجاوي» يبيع الملح الجبلي. تمر جماله بالفلاتية في غدوه ورواحه. يمكث عندهم ليستريح وتنيخ جماله تلتقط أنفاسها، ويزودهم بما يملحون به طعامهم. كان المعلم يثق فيه كثيرًا، فانتظر حتى جاء، وسأله: هل تبيع الملح في «الجابرية»؟

أجابه وهو يستعيد أسماء القرى التي يمر بها، وقال: لم أدخلها سوى مرة واحدة.

ضحك «الجاسر» وقال: أريدك أن تذهب إليها مرة ثانية.

هز رأسه مرحبًا، وقال: «غالي والطلب رخيص».

شرح له المهمة التي كلفه بها، وقال له: حذار أن يعرف بمهمتك أحد

غير مَن أعنيهم.

طلب من «جعفر» أن يصف له بيتي «عمر» و«محمود»، فرسم له خط سيره. وأعاد على سمعه تحذير المعلم، وقال: هذه خدمة لن أنساها لك أبدًا.

جاب بائع الملح القرية من أدناها إلى أقصاها، ينادي على بضاعته، فتخرج النسوة لابتياع ما معه، إما بالنقود أو بأقداح القمح والذرة والشعير والفول. عند بيت «عمر» توقف طويلًا، ونادى ناظرًا إلى النوافذ. فُتحت إحداها في الطابق العلوي وأطلت «هنيّة» وهي تسحب طرحتها على وجهها، ومدت إليه سلة من خوص في قعرها قروش، وقالت له: خذ الفلوس وضع الملح.

اقترب من النافذة، وقال لها: من عيني، لكن لديّ رسالة إليك.

- أي رسالة؟

تلفت حوله ليتأكد من أن أحدًا لا يسمعه، وقال: رسالة إلى السيد «عمر».

- لم يأتِ من الغيط.

- أرسلي مَن يستدعيه.. إنه أمر ضروري، وليقل له مرسالك أنك أنتِ مَن تريدينه.

أرسلت خادمتها إلى الحقول، فلم يتأخر مجيء «عمر». اقترب من البيت فوجد بائع الملح لا يزال مكانه، يختلق ذرائع كي يطيل بقاءه. أناخ الجمل، وراح يعدل على ظهره زكيبة الحبوب التي جمعها لقاء بيع ملحه، ويضرب كتل الملح بشاكوش من الحديد. ألقى عليه

السلام، ودخل إلى زوجته، فأبلغته بأن بائع الملح يقول إنه يحمل رسالة إليه. خرج إليه، وناداه، بعد أن فتح باب البيت على مصراعيه، وقال له: تفضل. فدخل على الفور، وقال له: لديّ رسالة إليك من ابن عمك «جعفر».

ولمّا انتهى مما يحمله، ابتسم «عمر» وقال: لا، لم يأتِ أحد من الثّمن إلى بيوتنا، ولم يرسل الضابط في استدعائنا.

وسأله «عمر» إن كان «جعفر» قد عرف الرجل الذي قابله في الوحل، فأجابه: أحد اثنين شهدا ضده. فقال «عمر»: جاء الرجلان إلينا قبل سنين نادمَين، وقالا إنهما أبلغا المحكمة بما سمعاه فقط، ولم يكن أي منهما يحسب أن الأمور ستنتهي بسجن جعفر.

ـ هل صدقتهما؟

ـ الخلاف بين «جعفر» و«زاهر» في تلك الليلة المشؤومة سمع به كثيرون، حتى خادمات السرايا، وهن أيضًا أبلغن الضابط بما جرى، حين استجوبهن، وكذلك فعل الخفير.

- عمومًا، من الحكمة أن تطوي الشاهدين تحت جناحك، حتى لا يبلغ أحدهما عن مجيء «جعفر» إليكم.

- هما يعملان مع الفلاحين في الأرض، ولم نرَ منهما سوءًا.. الانتقام لا يجري في دم «الصوابر»، وعفا الله عما سلف.

(25)

اطمأن «جعفر» إلى أن الثّمن لم يعد يسعى خلفه. كان الضابط وعساكره قد داهموا بيت «نبوية» عقب هروبه فلم يجدوه. طلب

الضابط من العمدة أن يضبطه إن رآه، ثم توقف الأمر عند هذا الحد. ربما نسيه الضابط في زحام انشغاله بمآسي الفلاحين، وأفعال المجرمين. ربما تم نقله إلى مكان آخر. ربما هرب سجناء آخرون، وتوزع انشغاله بين الهاربين. ربما هو دعاء أمه، التي لم تكن تكف عن رفع يديها إلى السماء لأجله، أن تُعمى عنه عيون مَن يقصدونه بسوء، ولأنه بريء فقد استجاب الله لها.

كان الثُمن في كل بلد قد اعتاد وقائع الهروب. هروب من السخرة في حفر القناة. قبلها هروب فلاحين من كل ملتزم باغ. هروب مجرمين إلى الجبال. هناك مَن كانوا يعبرون الحدود إلى بلاد بعيدة. الهروب كان أمرًا معتادًا، والهاربون لا يجب عليهم أن يتصرفوا وكأن حياتهم قد انتهت في لحظة الفرار.

لتمضي الحياة كما كان ينبغي لها أن تجري، وليذهب أي شيء إلى الجحيم. مَن يعوض الشباب الذي تجف نضرته بتدفق السنين؟ ما الذي يطفئ نار الشوق، أو يغني عن دفء اللقاء؟ ليتصرف كما لو كانت جريمة لم تقع، ولا يمنعه الحذر والخوف من مواصلة العيش كما تمناه.

اقترب من «فتيحة الجاسر» ذات صباح، وقال: أنتظر ما وعدتني به يا معلم.

ابتسم، وقال: لا يستغني رجل سليم عن النساء.

كان للمعلم زوجة تدين بالمسيحية اسمها «روزينا»، عشقها في شبابه وعشقته، وأنجب منها ثلاثة أولاد وبنتًا، ولم يكن يطيق الابتعاد عنها طويلًا، فكانت تأتيه متخفية إلى الجبل، ليختلي بها

أيامًا في مغارة أخرى صغيرة على مقربة من مغارة رجاله. في مرات قليلة كان يهبط إليها محاذرًا في الليالي المظلمة، مستغلًا أن بيته على طرف القرية.

لم يكن أي من أهل القرية، إن رآه، قادرًا على الإبلاغ عنه خوفًا من انتقامه، بل كانوا يعدونه مصدر حماية لهم، إذ لا يجرؤ لص على التسلل إلى قريتهم، وهو يعلم أن منها هذا الرجل، الذي يتحاكى الناس بشجاعته وقسوته. مع هذا كان «الجاسر» يطلب من رجاله الحذر، ويقول: لا يأتي الغدر إلا من رجل جبان.

نظر «الجاسر» إلى «جعفر» وسأله عما إذا كان بحوزته مال، فقال: كنت أفرغ ما بجيبي في يدك، لكنه لا يكافئ كرمك.

- سأعطي البدو مالًا ليبنوا لك دارًا بسيطة بينهم.

- دَين سأسدده لك فور مقابلة أي من أهلي.

- هذا فقط؟

- لك فوق دَينِك حلوان كبير.

اكتمل بناء الدار. غرفتان من الحجر المرصوص في عناية، ربطته عجينة من الماء والرمل والحصى، فوقهما تعريشة من الجريد والبوص، وله نافذة تطل على الصحراء الممتدة إلى بعيد. دخله «جعفر» موزعًا بين فرح بحياة أخرى، ولو مؤقتة، وخوف من ألا يروق هذا المكان لـ «عبلة»، وهي مَن اعتادت شكنى السرايا.

سأل نفسه، وهو ينظر إلى كثيب من الرمل يجاور صخرة عالية: ربما تكون متطلعة إلى مغامرة.

كان عليه أن يبلغها بما انتهى إليه، فعبر النهر ذات ليلة، ودخل غرفتها كما اعتاد. أنصتت إليه، وسألته: كيف أعيش بين أغراب؟

نظر إليها في تودد، وقال: ليس عيشًا دائمًا، إنما هو مكان نلتقي فيه بين حين وآخر، حتى تنتهي مطاردتي.

صمتت تحت وطأة اضطراب مشاعرها، فواصل هو: البديل أن أعود إلى القرية، وليكن ما يكون.

طفح انزعاج في مقلتيها، وقالت: لا، هذا خطر عليك.

أبلغته أنها راضية بما دبره، لكنها اقترحت عليه بديلًا: يمكننا أن نعقد قراننا سرًا، ولتبقى في السرايا لا تبرحها، وأنا أضمن الخفير والخادمات، وأنت بالطبع تضمن أهلك.

ندت عنه ابتسامة ساخرة، وقال: سجن جديد.

نظرت إليه في غيظ، وسألته: أتسميه سجنًا وأنا فيه؟

أغمض عينيه قليلًا، ثم فتحهما، وقال: لا أريد أن أكون كمحظيات القصور، أنا اعتدت البراح.

واتفقا على أن تأتيه هي بين حين وآخر، ويأتي هو إن سنحت الفرصة. انتظر حتى سافر الليل بعيدًا، وانطلق إلى بيت «عمر»، فرحًا بما انتهى إليه مع «عبلة»، فقال له: ابقَ عندي حتى أدبر الأمر. وذهب في صباح اليوم التالي إلى شيخ الجامع الذي كان هو المأذون أيضًا، وقال له: أريدك في مهمة، على أن تبقى سرًا بيننا.

- خيرك عليّ وفير، والكريم لا يُضام.

ـ الأمر يخص ابنة الوجيه.

- لم تبخل على الجامع بشيء كلما قصدناها، كما كان يفعل المرحوم «زياد» عن طيب خاطر.

خرج «عمر» من عند الشيخ إلى السرايا، وأبلغ «عبلة» بما دبره، فوجد منها ترحيبًا. في الليلة التالية قصد الشيخ السرايا، وتسلل إليها «جعفر»، وتبعه «عمر» و«محمود» و«عزة»، فعُقد القران، وسط بهجة الخادمات، ولم يشعر أحد من أهل القرية بما جرى.

قضى «جعفر» سبع ليالٍ في السرايا. في الليلة الثامنة عاد إلى الجبل.

(26)

شاع في القرية بعد أيام أن ابنة الوجيه تحب النزهة في النيل. أجّرت قارب صيد، وكانت تركبه مع خادمتين وخفيرها، ويجدف الصياد بها في اتجاه الموج ساعة، ثم يعود بها إلى القرية. كانت تريد للناس أن يعتادوا ارتيادها النهر، فصار لها ما أرادت.

جاء «عمر» بالقفلاط إلى حديقة السرايا ليصنع لها مركبًا يليق بها. جهز ألواح الخشب والغراء والحبال، وظل شهرًا كاملًا يعمل حتى صار المركب جاهزًا. جهز الفلاحون مرسى من الأحجار قريبًا من المكان الذي يربط فيه الصيادون قواربهم.

حملوا المركب على عربة كارو عريضة يجرها بغلان، ثم دفعوه إلى الماء، و«عبلة» واقفة في مقدمته، بينما الفلاحون يتطلعون إليها من الغيطان فرحين لفرحها، وهم الذين لم يروا منها إلا كل خير.

قيل إنها تريد أن تبحر بالمركب إلى المحروسة. وصلها ما يردده الناس، فوجدتها فرصة كي يستقر في أذهان الناس أسباب ما أقدمت عليه. ذهبت إلى المحروسة بالفعل، لابتياع ما تريده لبيتها الجديد البسيط. تعلمت في هذه الرحلة على يد المراكبي المؤتمن، كيف تفرد الشراع، وتدفع المجاديف، وتُهدهد الموج، وتُحايل الريح.

كانت كلما نزلت إلى المركب قال الناس إنها ذاهبة إلى المحروسة، أو إلى أي من البنادر المتتابعة على النيل لنزهة أو شراء ما يلزمها من حاجيات. أعجبت بها نساء القرية، وكن يعشن خاضعات في قبضة الرجال. لم تكن أي منهن تعرف أن «عبلة» خاضعة أيضًا لرجل، لكن ليس خضوع الحاجة والخوف وكسر الجناح وهشاشة القوارير، إنما الخضوع الذي تفرضه المحبة على العاشقين.

وكانت تركب الماء، حتى يرسو المركب في مرسى جهزه أهالي النجوع المتناثرة شرق النيل، فتجد حصانين في انتظارها، واحد لها والآخر للخادمة، ويربط المراكبي المركب ويبقى بين مَن يعدون الطعام للمسافرين إلى أن تعود السيدة، التي ما إن تتوغل قليلًا في الجبل، حتى تجد «جعفر» ينتظر على حصان ثالث، ليسيرا نحو عشهما البسيط.

أراد «جعفر» أن يبني في الجبل بيتًا آخر يليق بـ «عبلة»، لكن المعلم «فتيحة الجاسر» قال له: لا تشذ عن الناس حولك، فيطمعوا فيك. وكان قد نصحه أن يخفي عنهم مَن تكون زوجته، ليتعاملوا معه على أنه مجرد فلاتي يتعشم فيهم أن يوفروا له الحماية، لقاء مال قليل يدفعه لهم بين حين وآخر.

وفاتح «جعفر» زوجته في ضيقه من إنفاق أهله عليه، وإنفاقها هي على نفسها، دون أن تبخل عليه بما يتقبله منها في خجل. قال لها ذات ليلة: لا بد أن يكون لي رزق.

- وهل قصرنا معك في شيء؟

- يخجلني أن أمد يدي، وأنا لا أزال في كامل قوتي.

سرى أمام عينيها في هذه اللحظة طيف «زاهر»، فقالت: كسب القوت واجب، ولو كان من عمل بسيط.

كان قد فكر في الأمر، وطلب أن تمده بعشر نعجات وخمس عنزات وكبش وتيس مليح، وناقة عفيّة، على أن تكون شريكة له، يرعاها في الجبال كما يفعل البدو، وما تدره من ربح يكون له ثلثه ولها الثلثان. وافقت، لكنها اشترطت اقتسام الربح، فعدّ هذا من كرمها، ثم التفت إليها، وقال:

- ربما يعرك أن يكون زوجك راعي غنم.

ـ مهنة الأنبياء، وما جدك وجدي الكبيرين سوى أجيرين في الأرض.

- لا تنسي أنهما من المجاذيب أيضًا.

- كلام ذاب في الزمن ولا دليل عليه إلا ما يتناقله الناس.

- أيًا كان، المهم الآن أننا نصنع حكاية جديدة للفلاحين والمجاذيب والبدو والفلاتية أيضًا.

- قلت كل شيء ونسيت الأهم، إنها حكاية العشق.

بنى حظيرة إلى جانب بيته، وأمدّته «عبلة» بما طلب. أرشده العربان إلى أماكن الرعي، وطالبوه بأن يكونوا هم شراة خرافه حين تكبر، فوافق ممتنًا. انطلق بقطيعه الصغير يبحث عن الأحراش، وما ينبت في الرمل من بذور تحملها الريح، ويسقيها المطر. كانت «عبلة» تحمل إلى قطيع زوجها، كلما صعدت إلى الجبل، زبطًا من البرسيم وأجولة من التبن، توضع على ظهر الناقة من مرسى النيل حتى الحظيرة. لم يبخل على أغنام الأعراب وإبلهم ببعض ما يأتيه من الوادي، ففرحوا بهذا الخير الذي أتاهم من حيث لا يحتسبون.

ساعده أحد العربان في تعشير كبشه للنعاج، وتعشير تيسه لعنزاته، ولقح جمل ناقته، فزاد قطيعه بعد شهور، وولدت ناقته قعودًا. بعد عام ونصف دخل جيبه ما باع به الخراف والتيوس. ترك النعاج والعنزات الجديدة تزيد من قطيعه. صار بوسعه أن يوفر ثمن طعامه وشرابه، وما يعطيه للبدو لقاء حمايته. كان يذهب إلى المعلم «فتيحة» حاملًا خروفًا وتيسًا يذبحهما رجاله فيأكلون لحمًا طريًا، ثم يدس في جيبه بعض المال، ويقول له: من بعض خيرك يا معلم.

توطدت علاقته بالعربان، وعدُّوه واحدًا منهم، وهذا لم يكن عليهم بالأمر الهين في بادئ الأمر. عرض عليهم ذات يوم أن يبني زاوية إلى جانب أكواخهم وعششهم فرحبوا. ولمّا كبر القطيع طلب من كبير العربان أن يؤجر له مَن يساعده، فأمده بصبيين عارفين بأماكن الرعي.

ووجد «جعفر» لديه بعض الوقت للراحة، فقرر أن يقضيه بما يفيد. عرض على العربان أن يعلم أولادهم القراءة والكتابة، فأسعدهم هذا.

جاءته «عبلة» بالقراطيس وألواح الإردواز، وكانت تشاركه تعليم البنات في أيام وجودها معه. منحته مهمته الجديدة مكانة بين البدو، وضاعفت إحساسه بذاته، وأدرك أن سنوات هروبه لم تذهب في تدبير الأمان والقوت فقط، كأي حيوان شارد.

وقالت له «عبلة» ذات ليلة: يبدو أن في بطني جنينًا من صُلبك. فطار من الفرح، لكنه حط على الأرض من الخوف، وقال لها: هذا معناه أن يعرف أهل القرية بأمر زواجنا. طمأنته قائلة: حين يقترب موعد الولادة سأمكث في البيت، ولن يعرف سوى الخادمات، حتى يصير بوسعنا أن نعلن على الناس كل شيء.

وحرصت إن ذهبت إلى التعريشة الجديدة التي بنيت لها، على نحو أفضل من تلك التي جرفها الفيضان، أن ترتدي جلبابًا فضفاضًا، ولا يقترب منها إن كانت في الحقول سوى «عمر» و«محمود».

وذات ليلة مقمرة، جاءت «عبلة» لحبيبها بطفل يشبهه أسمته «ناجي»، مستبشرة بهذا الاسم أن ينجو أبيه من يد السوء التي تطارده.

(27)

جاءت الشهور العجاف. لم تسقط الأمطار على الهضاب البعيدة، فغاض النيل، وبانت في قلبه جزر صغيرة. تراجع الماء في الترع، وجفت القنوات، فعطش الزرع. جاهد «عمر» و«محمود» كي يساعدوا زروعهم على أن تجد ما تروي به ظمأها. هبطوا بالطنابير إلى حافة الماء، تغرف ما وسعها، وتلقيه في قنوات حفروها في الأرض التي انحسر عنها الماء على طرف النهر، تنتهي بحفر عميقة.

يتلقاها رجال آخرون يجلسون إلى الشواديف، يرفعون بها الماء إلى القنوات.

كان عملًا مضنيًا، عجز عن القيام بـه كاملًا كـل الفلاحين الذين يكدحون في أرضي الوجيه والعمدة الراحلين. لكن الجسر امتلأ ذات صباح بجماعات منهم هجروا قراهم بعد أن جف زرعهم. جاءوا حفاة جوعى، بعضهم يجرون خلفهم بهائمهم الضامرة. كانوا يقصدون البندر، إذ وصلهم أن بعضًا منهم قد شردوا في شوارعه، يتلقطون طعامهم من القمامة، أو يمدون أيديهم إلى أهل الإحسان.

خرج إليهم «عمر» وأوقفهم. عرض عليهم العمل معه فرحبوا. انضموا إلى السُقاة، فزادت الطنابير والشواديف. بعضهم كُلِّف بملء الجرار الضخمة وإلقاء مائها في القنوات التي تنتهي عند رافعيه حتى أول الزرع. شاركت نسوتهم وعيالهم في العمل. لم يكن بوسعهم جميعًا أن يغمروا السرائب والأحواض بالماء، لكنهم تمكنوا من أن يبقوا زروعهم على قيد الحياة.

جاء لهم «محمود» بحُصر وفرشها في البقعة الفسيحة التي تجاور الزاوية، فكان هناك مبيتهم. فتحت غرف الخزين فخرجت منها بلاليص المش والعسل، وقفف البصل، ورصات البتاو. علقت على الكوانين آنيات يغلي فيها العدس والويكا والأرز، توفر لهم طعامًا على قدر حاجتهم. كانوا على استعداد للكدح مقابل الطعام، لكن «عمر» حدد لكل منهم قرشين صاغًا يقبضهما كل أسبوع.

شهد أهل «الجابرية» للرجلين اللذين أتيا أول ليلة بعيدة إليهم مع ثالثهم الغائب بالحكمة والقدرة، وهم يتلقون أخبار الجوع الذي

يجتاح القرى حولهم، فيجبر أهلها على الفرار.

ظنت «عبلة» أن الحكومة سترأف بهم هذا الموسم، لكن الصرّاف طرق البيوت يُحصّل الضرائب. قطع بعض الناس من أقواتهم ودفعوا. عجز آخرون عن الدفع، فهُددوا بعرض أرضهم في المزاد، لكن «عبلة» ومعها «عمر» و«محمود» دفعوا عن العاجزين.

(28)

خلا منصب العمدة في «الجابرية»، وفكر الناس فيمَن يشغله. فاتحوا إمام المسجد، فقال لهم: نشاور ساكنة السرايا. تململوا من أن يوكل الأمر إلى فتاة، حتى لو كانت تفعل أكثر من فعل الرجال، فقال لهم: صاحبة أغلب أرض الزمام التي ترتزقون منها، لا بد أن تكون لها كلمة. فوضوه في استشارتها، فقالت: لا يوجد في القرية خير من السيد عمر. تمنت في هذه اللحظة لو كان «جعفر» طليقًا ليتولى المنصب، لكن ما بوسعها أن تفعل وهو لا يزال هاربًا من مطارديه؟ ذهب «عمر» و«محمود» على رأس وفد من رجال القرية إلى الثُّمن، حاملين هدايا ثمينة إلى الضباط، فعادوا آخر النهار يتراقصون على الجسر خلف عمدتهم الذي صار، وهو راكب فرسه، يتطلع إلى دنياه الجديدة، ويقرأ الفاتحة في سره على أرواح أجداده.

أوكلت «رسمية» إلى أخيها «عمر» رعاية ما ورثته وابنها عن العمدة الراحل، وهو النصف، وكان بيد «عمر» ما ورثته زوجته عن أبيها، فصارت أغلب أرض القرية خاضعة لأمره، لا سيما بعد أن وثقت فيه «عبلة».

استلهم «عمر» و«محمود» تجربة «جعفر» التي كانا يطّلعان عليها

كلما ذهبا سرًا لزيارته، فبنيا حظيرتين واسعتين على طرف الحقول، بعيدًا عن الزاوية والمقابر، وجاءا بقطيع من الأغنام والماعز، وصغار جاموس وبقر، واستأجرا رجالًا لرعايتها.

لم يمر سوى عامين حتى قصدهما جزارون من كل القرى لشراء العجول والتيوس والكباش. حين فاض هذا عن قدرة الجزارين، جاءا بالقفلاط، وافقت «عبلة» أن تمدهما بالمركب، فتحمل ما تُغله الحظيرتان إلى سوق البهائم في البندر، فتراكمت في خزينتيهما أموال، عوضت ما ضاع منهما في سالف الأيام.

جدد «عمر» الزاوية والمسجد، ووسع الكُتّاب بعد أن زاد أولاد القرية المقبلين على التعلم، ثم حوله إلى مدرسة، بعد أن تواصل معه مسؤولون عن المعارف في القطر المصري. قدم لهذا تبرعًا سخيًا، وشاركت «عبلة» بتبرع مثله.

شهدت القرية لأول مرة قدوم معلمين عينتهم الحكومة، لتعليم الأطفال اللغة العربية ومبادئ الحساب والعلوم. جاء «عمر» بشيخ آخر يساعد إمام المسجد في أداء هذه المهمة. كان كلما سمع صوت الأطفال وهم يتلون آيات القرآن، ابتسم وقال: كان أجدادنا يحبون هذا الصوت اللين، وحرصوا دائمًا على ألا ينقطع.

وحين وقف في اليوم التالي فوق الربوة العالية، وترامت أمامه البيوت الخفيضة ماثلة لناظريه، قال في توجع: كان اسمها «الصابرية».

وفاتح «محمود» في أمر إعادة الاسم القديم إلى القرية:

ـ حلم سكن رؤوس الأجداد، وآن الأوان أن نحققه.

- أنت تعرف أن هذا كان يفرح أجدادي أيضًا، لكن علينا ألا نفتح باب المشكلات.

- أي مشكلات، وقد صرت عمدة القرية؟

- قد يغضب هذا ابنة الوجيه، ولا تنسَ أننا أقلية وسط الجوابر.

تنهد «عمر» في حرقة، وقال: تشتت أهلنا في البلاد، ولا أعرف كيف يجتمعون.

حلقت فوق رأسيهما طيور غريبة. صنعت دوائر متلاحقة، وتقاربت حتى صارت دائرة واحدة ترسمها الأجنحة، ثم تناثرت كل في طريق. نظر «عمر» إليها، وتساءل: يعود الطير الغريب إلى موطنه، فمتى يطير «الصوابر» إلينا؟

(29)

استدعى ضابط الثمن ذات صباح العمدة الجديد فذهب إليه على الفور. وجد عمد القرى هناك يجلسون في حيرة، وتختلط في رؤوسهم الظنون. قال أقدمهم في المنصب: لا يحدث هذا إلا في الأحداث الكبرى.

تبادل العمد النظرات، وقلوبهم ترتجف، فواصل الرجل: يبدو أن مصيبة قد وقعت.

رد أحدهم: الأحوال في قرانا مستقرة، ولم نسمع عن أي حدث وقع في الزمام كله.

جاء إليهم الضابط، فوقفوا يحيونه، فأشار إليهم بالجلوس، وجلس هو على مقعد يتصدر مقاعدهم، وقال: قامت هوجة في المحروسة، وعليكم ضبط الأمور في قراكم.

عرفوا منه أن قائد الجيش واسمه «عرابي» قد تمرد على ولي النعم، وطمأنهم بأن هذه الفوضى ستمر بسلام. قال «عمر»، وكان أحدث العمد: بيننا وبين المحروسة سفر طويل.

رد الضابط في حسم: الفتنة انتقلت إلى بعض القرى، خصوصًا في الوجه البحري، وعليكم الانتباه والحذر.

(30)

وصل إلى «جعفر» خبر ما يجري. أبلغه أحد البدو أن كبيرهم قد تلقى رسالة من قائد الثوار، يدعوه فيها إلى تأييده، وقال له: الحكم مرتبك، ويده القابضة قد فلّت ولو قليلًا.

وجد «جعفر» الفرصة سانحة كي يهبط إلى الوادي وهو آمن. فعين أهل الحكم لا ترى سوى مَن يبايع الثورة، أو يتحمس لها، ولو بقلبه. جاء ليلًا كعادته، لكنه دخل هذه المرة من باب السرايا. استقبلته «عبلة» مبتهجة، وقالت: لا تتركنا طالما الهوجة جارية، فعين الحكم غافلة، وضباط الثمن خائفون من نزول القرى.

قضى «جعفر» أيامًا لا يبرح السرايا. كان مطمئنًا إلى أن قطيعه يرعى هناك في سلام. قرر ذات صباح أن يذهب إلى الأرض، ليشرف على سير العمل فيها، لكن «عبلة» لم تتحمس لقراره، وقالت له: ابنا عمك وعمتك لا يقصران في شيء.

قال لها: أشتاق إلى رائحة الطين، وعرق الفلاحين، وإن شعرت بأي خطر فطريق هروبي معروف.

كان «عمر» قد أوكل أغلب أمر أرض «عبلة» إلى «محمود» بعد أن آلت إليه العمدية، واختار معه خوليًا معروفًا عنه همته وخبرته في الفلاحة، فواصل العمل في الأرض سيره على نحو أبقى رضاء صاحبتها، واطمأن «جعفر» حين راجع دفتر الحسابات، وقال لزوجته: الرجال ذوو الثقة كنز ثمين.

(31)

عند ظهر أحد الأيام جاء رجل غريب إلى القرية. سأل عن سرايا الوجيه. دله الناس عليها، فدخلها على عجل، وقال للخفير: أريد مقابلة الوجيه.

نظر إليه الخفير متعجبًا، وقال له: الوجيه توفي منذ سنوات.

هز رأسه، وقال: رحمة الله عليه، كان رجلًا مخلصًا.

وساد بينهما صمت، قطعه الرجل قائلًا: أين ابنه؟

تشكك الخفير في الرجل، وقال لنفسه: ربما يكون من عسس الثمن، ويسعى وراء «جعفر». أوقفه عند الباب، وسأله: لماذا تريده؟

تلفت الرجل حوله، وقال بصوت خفيض: معي رسالة إليه من قادة الثورة.

هز الخفير رأسه، وقال له: ابقَ هنا لأستئذن أصحاب السرايا.

نادى الخادمات فلم تسمعه أي منهن. كرر النداء وانتظر، وصعد

السلالم إلى البهو العلوي، فوجد «جعفر» يلاعب ابنه «ناجي»، و«عبلة» تراقبهما باسمة. لما رأيا الخفير نظرا إليه في دهشة، وكانت «عبلة» لم تعتد صعوده إلى الطابق العلوي إلا نادرًا. وقف أمامها، ويده ممتدة إلى بندقيته يعدل وضعها على كتفه، وقال: رجل يقول إنه رسول الثوار إلى الوجيه.

انتفض «جعفر» واقفًا، وسأله: أين هو؟

- أوقفته بالباب.

قطع «جعفر» خطوات نحو السلالم، لكن «عبلة» أوقفته، ثم نظرت إلى الخفير، وقالت: أدخله إلى البهو السفلي، واطلب من خادمة أن تعد له ما يشربه.

حين انصرف الخفير أمسكت بيد «جعفر»، وقالت: يبدو أنك قد نسيت ما أنت فيه.

- لا يقتل الخطر سوى خطر جديد.

- إنه الجنون.

- بل هي المغامرة.

- الرجل جاء للوجيه، يبدو أنه لم يسمع بخبر رحيله، فدعني أقابله.

- إن كانت مخاطرة كما قلت، فكيف أدفعك إليها، وأختبئ أنا كالفئران.

مضى يهبط السلالم، حتى خلص إلى الرجل. صافحه بحرارة، وقال له: أهلًا برسول الأبطال.

تشجع الرجل، وقال وهو يرشف من كوب الزنجبيل الذي أحضرته الخادمة: الرجال في المحروسة يحتاجون إلى كل رجل شجاع في بر مصر. فهز «جعفر» رأسه، وقال له: تأكد من أنك لن تذهب من هنا مخذولًا.

تهلل وجه الرجل، وقال: هذا الشبل من ذاك الأسد، فالوجيه لم يتأخر أبدًا في مد يده للبلاد، كلما كان يطلب منه هذا.

ابتسم «جعفر»، وقال: يحزنني إبلاغك أن ابن الوجيه لحق بوالده، والدوام لله وحده.

ترحم الرجل على «زاهر»، وقال: أعرف أنه كان له ابن وحيد.

وصارحه «جعفر»: أنا في مقام ابنه، وزوج ابنته.

تردد الرجل قليلًا، ثم أفصح عن مهمته: نجمع موافقة الوجهاء وكبار الملاك على مطالب قادة الثورة، ونفتح الطريق لأهل القرى الراغبين في الانضمام إليهم.

مد «جعفر» يده وقبض على يد الرجل، وقال: طلبك مجاب، لكن أخبرنا بما علينا فعله.

أبلغه الرجل أنه يريد أن يضع اسمه في قائمة المنضمين إلى مطالب الثورة، وألا يمنع أيًا من أهل القرية يرغب في الانضمام إلى الثائرين، سواء بالذهاب إلى المحروسة أو الالتحام بالرجال الغاضبين في البنادر.

قال «جعفر» على الفور: شرف لي أن يكون اسمي بين هؤلاء، وسننادي في القرية عمن يرغب في الانضمام إليكم، وسنتكفل

بنفقات رحلته وإقامته في المحروسة أو البندر.

نهض الرجل واقفًا، وقال: عيون الرجال تدل عليهم.

وكتب اسمه رباعيًا في ورقة معه، ثم همّ بالانصراف، فاستوقفه «جعفر»، وسأله: ألست في حاجة إلى شيء آخر؟

ابتسم الرجل، وقال: ما حصلت عليه يكفي ويزيد.

واستمهله «جعفر»، وصعد إلى الطابق العلوي، وفتح الخزينة التي كان يدخر فيها مالًا تحصل عليه من بيع خرافه وتيوسه ونوقه، خطف صرة تحوي ثلاثين جنيهًا من الذهب، وهبط سريعًا، ومدها إلى الرجل، وقال: يحتاج الرجال هناك إلى مال يساعدهم على الاستمرار في عملهم الجليل.

لكن الرجل رفض تمامًا، وقال له: إن أردت هذا، فعليك أن تقدمه بنفسك إلى قادة الثورة في «القاهرة».

انصرف الرجل، وترك «جعفر» وقد سكنته روح جديدة، لم يعرفها من قبل. لأول مرة يزول عنه الخوف، كأنه لم يولد في نفسه أبدًا. رأى وهو يصعد السلالم رجالًا وضعوا رؤوسهم على أكفهم، تشمخ أنوفهم في عزة، وتثير نداءاتهم هدير الجماهير الغفيرة التي تهتف لهم. تجسد أمامه الذل كأنه ورقة شجر يابسة، فداسه بقدمه على الدرجات الرخامية، التي كانت «عبلة» واقفة على أعلاها، تنظر إليه في عجب، ويصلها ما يسري في نفسه.

قالت له بين وجل وإعجاب: يطل الحماس من عينيك.

قال لها في جدية: لم يُخلق الرجال للاختباء.

(32)

ذات مساء فزع أهل القرية لصراخ مدو. هرعوا نحو الصوت الزاعق، فوجدوا امرأة تهيل التراب على رأسها أمام بيت خفيض. ظهر خلفها رجل يمد يده ليسحبها إلى الداخل، لكنها تقاوم متشبثة بالأرض. كانت تقول له في تحد: سأفضحك يا قاتل.

نظر الناس إليه متعجبين من قولها، فهو كان واحدًا من الذين عادوا من السخرة، ليواصل كدحه في الأرض، دافنًا رأسه بين رؤوس المغلوبين الصامتين. استبقها، وجلس القرفصاء، ومد كفه وأغلق فمها، لكنها حركت رأسها في سرعة، وعضت أصابعه بقوة، حتى صرخ. أفلتت منه، ونهضت مسرعة، فحال الرجال الواقفين بينه وبينها. وسمعوها تقول في إصرار: هانت العشرة عليك يا قاتل؟

عاد الناس إلى عجبهم مما تقوله. سخر أحدهم منها، وقال ضاحكًا، وهو ينظر إلى الرجل النحيل: لا تكذبي على الرجل، فهو لا يقدر على قتل نملة.

ملأها الغيظ فأفلت منها السر، وقالت، بعد أن استدارت إليه وهو بين سواعد رجال يمنعونه من الهجوم عليها: هو قاتل «زاهر»، ومعه أربعة كلاب.

صرخ زوجها فيها بقوة: اسكتي يا بنت الكلب.

لكنها واصلت تحديها، وقالت: ستعرف الآن مَن الكلب يا عويل.

وزعقت فيمَن حولها: أفسحوا الطريق. فتباينت الأجساد التي كانت قد تزاحمت أمام البيت، ووجدت المرأة لها مسربًا بينها. راحت

تسرع نحو دار العمدة. وظن زوجها أنها قد جرت إلى بيت أهلها، فراح يقول للناس: أصابها جنون، وتتوهم أشياء غريبة.

حين استقبلها العمدة في صالة بيته، قالت له: ابن عمك بريء من قتل «زاهر»، فزوجي هو القاتل ومعه أربعة.

لم تمضِ سوى ساعة واحدة حتى كان الرجال الخمسة متحفظ عليهم في بيت العدة والكرباج، يقف أمام بابه الخفراء الخمسة الذين أتوا بهم من البيوت، واضعين البنادق في رؤوسهم، ثم يدفعونهم بدباشكها كلما تباطئوا ليسألوا عن سبب القبض عليهم.

أدخل «عمر» المرأة إلى الرجال الخمسة، فواجهت زوجها بما قاله لها ذات ليلة بعيدة، بينما العمدة يتفرس في ملامح الرجال الأربعة، ويقرأ ما يدل عليه الانزعاج الذي سكن ملامحهم، وهو يهز رأسه، ويقول: شاء الله أن يظهر القاتل بعد كل هذه السنين.

أرسل العمدة في طلب «جعفر» فأتى على عجل. كان يحسب أن ابن عمه قد وصله خبر الرجل الغريب الذي أتى إلى السرايا، ويريد أن يعرف ما جرى، لكنه فوجئ بما لم يدر في خلده.

سيق القتلة إلى الثمن، ومعهم المرأة شاهدة. ضيق الضابط الخناق عليهم، فاعترفوا. ردت إلى «جعفر» براءته وحريته. صار عليه أن يتخذ قرارًا كان يشغل رأسه، دون أن يداهمه إحساس بأنه سيفعل ذلك ليس عن شجاعة ولا إقدام، إنما هو انجراف المضطر أو الذي لا يبالي، أو المحاصر الذي يفر من قدر إلى قدر.

(33)

عبثًا حاولت «عبلة» أن تثني «جعفر» عن قرار الالتحاق بالثوار. قالت له غاضبة: أنت لم تخلق إلا للأرض.

وكان يؤمن بأن الأرض تأتي وتذهب بإرادة ظالمين يسكنون قصور المحروسة، ويشربون عرق الغلابة، الذين يرونهم مجرد دود أعمى يرعى دون توقف، فقال لها: ربما ينتصر أهل البلد، فتزيد أرضنا، أو نتملك أرض الانتفاع.

ولأول مرة تسخر منه بإشارة من يدها، ورعشة رسمت على شفتيها، وقالت: أو ينهزمون ويضيع منا كل شيء.

رد في غيظ: لن يعرف أعداؤنا أنني زوجك.

صرخت فيه: لكنني أنا أعرف، وكفى غربتك الطويلة عني، التي ما إن انتهت ببراءتك حتى رحت تبحث عن غربة جديدة، وكأنك تفر مني.

قطع الخطوات التي تفصل بينهما، وأخذها في حضنه وهي تبكي، وقال: ليس من المروءة أن نصمت الآن.

بكت على كتفه، وقالت: فقدت أهلي، فلا تيتم ابنك صغيرًا.

داس على حروف الكلام، وهو يقول: سيفخر ابني بي سواء عدت سالمًا أو دُفنت وأنا أجاهد في أرض بعيدة.

خلعت جسدها من ذراعيه، وتركته يدخل إلى غرفته، وأسرعت هابطة السلالم، نادت الخفير، وقالت له: اذهب إلى العمدة وأبلغه أنني أنتظره الآن.

جاء «عمر» يرفل في عباءة من الجوخ الأسود. دخل إلى بهو السرايا فوجد «عبلة» أمامه واقفة وعلى وجهها انزعاج شديد، وقالت له: «جعفر» أصابه جنون.

وكلما حكت له باختصار ما يفكر فيه، ابتسم وقال: العرق دساس.

غاظها رده، فسألته في اشمئزاز: أي عرق؟

أجابها من جوف زمن بعيد: قيل لنا إن جدنا الأول كان محاربًا.

هزأت منه، وقالت: لم يأتِ مجدكم إلا من الأرض، وجدك «رضوان» كان فلاحًا.

قال لها بصوت خفيض: أنا أتحدث عمن كان قبل «رضوان».

اقتربت منه، وقالت: أرجوك أن تساعدني في إقناعه بعدم الرحيل.

انتبه إلى أن قرار «جعفر» سيجر عليه متاعب لا قبل له بها، بل قد يكلفه العمدية في غمضة عين إن وصل الخبر إلى الثُمن، فسألها: أين هو؟

سبقته على السلالم حتى انتهيا إلى حيث يجهز «جعفر» ما يستعين به في الرحلة. لما رآهما، نظر إلى «عمر»، وقال: لا أنتظر منك سوى توديعي في صمت.

رد «عمر» في تودد: لم تعتد مني الصمت حين تهجم الأهوال. وراح يحكي عن اللقاء الذي جمع فيه الضابط عمد البلاد، ثم قال: إن صممت على ما في رأسك، فلتعلم أن خسارتنا قد بدأت من الآن. وباغته رد جعفر: احسبني لا أزال مطاردًا بسبب جريمة تبين لك

أنني لم أرتكبها، وإن شئلت عني قل لمَن يسألك إن حياة الجبل قد أعجبتني، وعدت إليها.

كانت «عبلة» متقلبة بين إعجاب بزوجها وخوف من مصير قد ينتظره وينتظرها، لكن الإعجاب غلب الخوف برهة، فقالت: ليقضي الله ما شاء.

رد «عمر» غاضبًا: الله لا يريد بعبده أن يرمي نفسه إلى التهلكة.

نظر إليه «جعفر» باسمًا، وقال: هلاك الرجال في جُبنهم.

هز «عمر» رأسه، وقال: قاتل الله العناد الذي أورثه لنا الأجداد.

(34)

انشغل «عمر» في الأيام اللاحقة بموت «نبوية»، فانتقلت «خضرة» إلى بيت العمدة. كانت قد صارت عجوزًا، تحتاج إلى مَن يعينها على مواصلة الحياة. لم ينسَ لها «عمر» ما فعلته في سالف الأيام فلم يقصر في توفير عيش يليق بامرأة قدمت لأهله الكثير.

انشغلت «عبلة» بتربية ابنها «ناجي». خصصت له غرفة في السرايا يتلقى فيها دروسًا إضافية إلى جانب ما يتعلمه في المدرسة. لم تنسَ دورها المتواصل في رعاية أرضها. كانت قد اعتادت غياب «جعفر»، لكنها هذه المرة كانت أشد قلقًا عليه.

جاءتها ذات صباح المرأة التي اعترفت ضد زوجها، وقالت لها: نجيت زوجك، وأرحت أخاك في قبره، لكن أتعبت نفسي.

تطلعت إليها في حيرة، فواصلت: كان عائلي، ولم تعد في البيت

كسرة خبز واحدة.

فطنت «عبلة» إلى ما يجب عليها أن تفعله، فاستدعت النسوة الخمس عند المساء. جئن منكسرات يسكن عيونهن العشم والرجاء. جعلت اثنتين لتنظيف فناء المدرسة وفصولها، حيث الحُصر التي يجلس عليها الأولاد، والمقعد الذي يجلس عليه المعلم. كلفت اثنتين بملء الأزيار الموضوعة إلى جانب الزاوية والمسجد والمدرسة. أبقت الأخيرة مع خادمات السرايا. خصصت لكل واحدة منهن أجرًا أسبوعيًا يكفي لإطعام أولادهن وكسوتهم.

قالت للأخيرة التي اختارتها خادمة جديدة: اخلعي ملابسك في الحمام، وصبي عليها ماء مغليًا، ثم اعصريها وانشريها على أي شجرة خارج السرايا لتقدحها الشمس، ثم ارتدي ملابس من البيت. كانت «عبلة» تعرف أن شقوق جدران الطين في بيوت الفلاحين تسكنها البراغيث والبق، ولا تريد لأي من هذه الحشرات التي تجعل الفلاحين يقضون لياليهم في جحيم، أن تتسلل إلى السرايا.

جعلتها كلما أتت تخلع ملابسها في غرفة صغيرة على جانب سور السرايا، وترتدي ملابس نظيفة، فإن انتهت من عملها مع حلول المساء، تخلع لباس الخدمة، وترتدي ملابسها التي أتت بها من بيتها، وتنصرف، لتأتي صباح اليوم التالي. كانت تأمر الخفير أن يدخل الغرفة كل أسبوع ليرشها بسموم قاتلة للحشرات.

مضت الأيام عليها ثقيلة. كان طيف «جعفر» يطاردها في كل مكان. في مخدعها حين تتقلب فيه ليلًا يصهرها الشوق إليه، وحين تلمح النخلة الواقفة عند نافذتها، وعلى مقاعد البهو، وفي

الردهة المؤدية إلى الغرف، وفي الحديقة التي تحلق فيها العصافير والفراشات.

تمنت لو كانت عصفورة بوسعها أن تطير نحوه حيث يكون، أو موجة تجري في النهر الذاهب إليه، أو دفقة هواء تعاند ما اعتادته الطبيعة فتسري من الجنوب إلى الشمال. كانت كلما رأت المرأة التي اعترفت ضد زوجها، تقول لنفسها: نصرة الحق واجبة.

انقطعت أخبار «جعفر»، لكن ما يجري هناك في المحروسة كانت تنقله الأفواه من قرية إلى قرية حتى يبلغها. يحمله المراكبية الذين يأخذون البضائع إلى «القاهرة». يتحدث به الوجهاء وهم يتوجسون من تبدل الأحوال إلى غير صالحهم. تصل إرساليات إلى العمد تجدد التنبيه عليهم بأن يحفظوا الأمن، ويلجموا أي راغب في الانضمام إلى الثوار.

ووجدت «عبلة» نفسها تقول للعمدة حين جلسا في التعريشة المشرفة على الحقول: لا نعرف شيئًا عن ابن عمك الغائب.

صمت برهة، وقال: الأحداث هناك تهدأ ثم تفور من جديد.

سألته إن كان يقدر على الوصول إلى «جعفر»، فقال: سأرسل مَن يأتينا بأخباره.

وبينما رسوله يضع قدميه في مركب ذاهب إلى المحروسة، فزع أهل القرى لخبر رج النفوس، وغابت التفاصيل الصغيرة في غمرة الحدث الجلل، الذي لم تكن «عبلة» تدري أنه سيغير حياتها إلى الأبد.

(35)

قال الناس إن الجيش الإنجليزي نزل في القناة التي شارك أهل «الجابرية» في حفرها قبل سنوات، وأن قادة الثورة اصطحبوا الجنود لملاقاة الغزاة في «التل الكبير». زاغت الأبصار، وبلغت القلوب الحناجر. شُرعت الآذان لتلتقط أي خبر، بينما تكاثفت في الجو غيوم سوداء، وانطلقت همهمات مسكونة بالخوف والرجاء.

خيّم الصمت على السرايا نهارًا، وفي الليل هجمت الكوابيس المنذرة. هبت «عبلة» مفزوعة، وقد جف ريقها. مدت يدها وصبت من الدورق الزجاجي ماء في جوفها، لعلها تستكين، لكن ما رأته في نومها جعلها لا تشعر أبدًا بالارتواء. كانت قد رأت «جعفر» يمتطي صهوة فرس أبيض، وسط حشد من جُند مدججين بالبنادق. كان وجهه يضيء كأن القمر قد نزل من عليائه واستقر فوق عنقه. كان يزعق ويصمت، يبكي ويضحك، ويشير بيده إلى الأمام، ثم ينطلق. رأت حمم نار تندفع صوبه، لكنه لا يرتد إلى الوراء، بل يتقدم، ويصد النار بصدره، ثم فجأة وجدت الفرس وحيدًا.

صرخت تنادي عليه، لكنه لم يرد. شخصت ببصرها لعلها تراه، فلم ترَ سوى دخان فضي، يتلوى صاعدًا إلى السماء. جرت نحوه، وأمسكت ذيله، فجذبها نحو الفضاء، وهي ترفرف كيمامة فرت من صيادها. راحت تجذب خيط الدخان إلى أسفل، لتعود به إلى الأرض، لكنه تسرب من يديها، فوجدت نفسها تهوي سريعًا، حتى يرتطم جسدها بالرمل، بينما لحن حزين ينطلق داعيًا إياها إلى السكون.

(36)

جاء إلى «الجابرية» غريبان ذات صباح. الأول بهلول، رث الثياب،

تحط على رأسه عمامة خضراء مشبعة بالعرق والتراب، وفي عنقه عُقد من الخرز مختلف الألوان. مشى في الشوارع يدب بعكازه، فيثير حوله الغبار. يتوقف أمام البيوت، وينادي مَن لا يراه الناس، أهو شيخه البعيد؟ أم شخص ظلمه؟ أم آخر قد يلقاه في قابل الأيام؟ لا أحد يعرف.

مدت النسوة والصغار كسور الخبز والبلح، لكنه رفض أن يأخذ من أحد شيئًا، وطلب فقط جرعة ماء. شرب حتى ارتوى، ثم سأل أحد الأولاد: أين الزاوية؟

دلوه عليها فمضى نحوها صامتًا هذه المرة، حتى دخلها عند الضحى، وأغلقها عليه. بلغ مجيئه العمدة فأرسل خفيره يرى أي رجل هو، فعاد إليه يقول: مجذوب، ربما بلغه فراغ الزاوية فأتى ليُعمّرها.

وتذكر العمدة أيامه مع الشيخ «صفي الدين»، فقال: ليكن طعامه وشرابه من بيتي.

حين زاره «عمر» بعد أيام في الزاوية، نظر إليه طويلًا، وسأله: ألست أنت الذي تركك الشيخ «صفي الدين» في الزاوية البعيدة؟

هز رأسه، وقال: نعم، لكني تركتها منذ سنين، حين تأخر هو في العودة إليّ، وجاورت الشيخ «عبد الرحيم القناوي» سنوات، حتى حلمت به يدعوني للمجيء إلى هنا.

ربت «عمر» كتفه، وقال: مقدور ألا تخرب لنا زاوية.

ثم أشار إلى هيئته، وقال: لم يكن الشيخ «صفي الدين» مثلك. كان يحرص على نظافة ثيابه، ولا ينقطع للتسابيح، وفي آخر سنوات

عمره كان يذهب إلى الأرض ليرعى شغل الفلاحين، ويرى في هذا جوهر الطريق إلى الله.

صمت الرجل برهة، وقال: ليس لديّ غير هذه الثياب، وما علقته في عنقي أعطاه لي بهلول عند ضريح «القناوي» وهو مقبل على الموت، وأوصاني بارتدائه، ولا أريد أن أخون وصيته.

ابتسم «عمر»، وقال: حين تعرق في الأرض، ستدرك أن هناك وصية أعظم عليك الالتزام بها.

لاذ المجذوب بالصمت، فواصل «عمر»، وهو يشير بيده إلى الزروع: كانت كل هذه أرضًا بورًا، فضرب فيها المجاذيب فؤوسهم في زمن بعيد، فصارت كما تراها عامرة بالخير.

وأرسل إليه ثوبين نظيفين، وأوصى الخولي بأن يجذبه إلى الزرع، وقال له: أريد للأرض أن تلمس قدميه فتحل بركته فيها، كما كان يفعل الأولون.

الرجل الثاني كان بدويًا ممن ترك «جعفر» عندهم قطيعه، وكانوا قد باعوا وأخذوا أجر رعيهم، وجاء أحدهم بما يفيض إلى «عبلة». كان آخر غير الذي اعتاد أن يأتي إليها منذ أن فارق صاحب القطيع «الجابرية» وذهب لينضم إلى الثوار. قابلته في البهو السفلي. مد يده في جيبه، وأخرج ضرتين من النقود، وقال: هذا حقك.

كان يبدو عليه انكسار، وفي عينيه كلام كثير حبيس. وكانت هي قد حرصت على أن يبقى القطيع هناك في الجبل، حتى لا ينقطع رزق الذين يقومون على رعايته. نظرت إليه طويلًا، وهو صامت يحط

ناظريه عند قدميه، وسألته: أتريد أن تقول شيئًا؟

تنحنح، ورفع وجهه، وقال: جمعتني الأقدار هناك برجل شجاع.

دب في صدرها التوجس، وسألته في لهفة: أي رجل؟

- زوجك «جعفر».

وكان الرجل الذي أرسله «عمر» قد عاد قبل يومين دون أن يأتي بخبر جديد. اهتزت لما قاله البدوي، وأمطرته بأسئلة حائرة: هل رأيته؟ كيف حاله؟ أين هو؟ لماذا لم يأتِ معك؟ متى يأتي؟

بلع البدوي ريقه، وقال: هو في مكان أحسن.

سألته، مغالبة فزعًا راح يضرب صدرها: أي مكان؟

تلجلج قليلًا، ثم استقامت عبارته: عند ربه. ثم راح يتلو الآية: «ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتًا. بل أحياء عند ربهم يرزقون».

صرخت فهب البدوي واقفًا، وقال: عرفت منه أنك امرأة قوية.

أغمضت عينيها، ومادت بها الأرض، واندلع نشيج في صدرها، فكتمته، لكنه لم يلبث أن انفجر فأجهشت بالبكاء، وقالت له: متى وقع هذا؟

ولمّا أخبرها بيوم استشهاد «جعفر»، أدركت أنه اليوم التالي لهذه الليلة التي داهمها فيها الكابوس الغريب. كان الرجل قد صحب «جعفر» إلى المحروسة، فيوم رحيله أوقف المركب عند المرسى المؤدي إلى أكواخ البدو، وذهب إليهم ليوصيهم بقطيعه، ويطلب

منهم أن يراعوه وكأنه معهم، ثم يعطوا زوجته حقه من بيع الخراف والتيوس والجِمال. كان يومها يتحدث في حماس عن الواجب الذي ناداه، وتأثر البدوي به، وكان يعرف أن الثوار قد خاطبوا شيخ القبيلة ليساندهم، فقال له: لن أتركك وحدك.

عبثًا حاول أن يثنيه عن قراره. قال له الرجل: ربما تحتاج في غربتك إلى مَن يخفف عنك.

طلبت منه «عبلة» أن يحكي لها كل شيء بالتفصيل، كأنها كانت مع الغائب، ففعل الرجل، حتى وصل إلى الساعة الأخيرة في حياة «جعفر»، فسألته: أين دُفن؟

أجابها وريقه قد جف من الحزن والعرثرة: دفناه في «التل الكبير» مع شهدائنا الأبرار.

سألته، وهي لا تستطيع أن تكبت دموعها: هل تعرف مكان جثته؟

هز رأسه، وقال: نعم.

(37)

صار الناس كأن على رؤوسهم الطير. عادت الهامات منكسة من ثقل الهموم والقهر الراكد فيها. وتساءل مَن نجا من المقتلة: كيف لا ينظر إلى الأرض مَن خاب أمله؟ كيف لا ينكسر مَن يفتقد إلى قوت يومه؟ وكيف لا تتعفن آراء تافهة يبديها المنتفعون، ويحركها نفاق رخيص، بعد أن هجرها السعي للحرية والكرامة؟ وطرح العارفون سؤالًا أعمق: كيف ينتصر بلد أهين أهله بتدبير محكم؟

وسط الأسئلة التي لا إجابات فاصلة عنها، جيء برفات «جعفر»،

وحمله الدوكار الذي كان قد اشتراه «عمر» قبل سنة، ليعاد دفنه إلى جانب أجداده الراحلين. يومها أبلغت «عبلة» ابنها بما جرى لأبيه، وأخذته إلى قبره، فجلس أمامه يجهش بالبكاء. مدت يدها إلى خده، وكفكفت دموعه، وقالت له: كن رجلًا جسورًا مثله.

ربته ليكون كما أراد له أبوه، فكانت تصحبه معها إلى التعريشة، ليسمعها وهي تحاسب الخولي في جدية ودقة، تراجع ما تم إنفاقه على البذور والسبخ وفلاحة الأرض، وتقدر ما ستغله في موسم الحصاد. لم تجعل هذا يشغله عن تحصيل العلم، فأظهر فيه نجابة، شهد له بها شيوخه. وتوجه أحدهم ذات يوم إلى «عبلة»، وقال: يُستحسن أن يواصل طريق العلم في الأزهر.

سكنت الفكرة رأس «عبلة» واستشارت «عمر» فقال لها: أخشى أن يأخذه الطريق كما أخذ جده «محفوظ».

لكن الولد الذي كان قد طاله الوعي من أوسع الأبواب، قال: لا غنى عن مكان ولدت فيه، ولن أترك أمي وحدها إلا سنوات، حتى أحصل على العالمية كما قال شيخي.

شد «عمر» على يده، وقال: كأني أسمع «جعفر».

ذات صبح شد المراكبي القلوع و«ناجي» واقف على مقدمة المركب يطالع «الجابرية» وهي تغيب رويدًا رويدًا، حتى ابتلعتها المسافات والنخيل والشجر.

(38)

استيقظت «الجابرية» ذات صباح على أحذية غليظة تدق شوارعها

المتربة. فزع الناس لما رأوه. أغلقت النساء الأبواب، وربضن داخل البيوت يمددن الآذان إلى ما يجري. كان الرجال يستعدون للذهاب إلى الحقول، فتسمرت فؤوسهم فوق أكتافهم. كل واحد منهم ظن أن الأذى سيطوله، لكنهم لم يلبثوا أن عرفوا مَن يقصد الضابط وعساكره. قصدوا بيت العمدة، فجاءهم على عجل بلباس النوم، نظر إليه الضابط وقال: هرب مسجون من قريتكم، بعد أن قتل أحد الحراس.

لم يكن هناك مساجين في القرية سوى الخمسة الذين قُبض عليهم في قتل «زاهر»، فسأل العمدة: مَن هو؟

- اسمه «برهوم أبو تعلب».

كان هو الرجل الذي شهدت امرأته ضده، فخاف «عمر» من أن يقصد السرايا بسوء، حين يعرف أنها خادمة فيها. قال للضابط: لم يأتِ إلى هنا، ربما يكون قد صعد الجبل.

قال الضابط في حسم: عليك أن تفتح عينيك جيدًا، وليبحث خفرك عنه في الزراعات.

ثم سأل الضابط: أين بيت الهارب؟

فتش العساكر البيت فلم يعثروا سوى على أولاد الرجل، بينما كانت أمهم قد غادرت إلى السرايا. سأل الضابط عن بيوت أقربائه فلم يترك أيًا منها دون تفتيش، لكن هذا لم يأتِ بجديد، فغادر القرية مكلفًا العمدة بالتحري والبحث، حتى يعثر عليه. وفتش الخفر الزراعات. دخلوا غيطان الذرة والقصب، تطلعوا إلى النهر والجسر،

ومدوا أبصارهم إلى هامات النخل والشجر، وشاركهم الفلاحون البحث، لكنهم لم يجدوا أثرًا للهارب.

كان «عمر» قد هرع بنفسه إلى السرايا لينبه «عبلة»، ثم اطمأن إلى قيام السور الذي يحيط بها على حاله. صرخ في الخفير: افتح عينيك جيدًا، ولتكن بندقيتك عمرانة دومًا. إمعانًا في الحرص طلبت «عبلة» من زوجة الرجل أن تبقى إلى جانب أولادها، وتغلق باب ونافذتي بيتها بإحكام، فربما هرب لينتقم منها. وكلف «عمر» اثنين من خفره لتبادل الوقوف على باب بيت المرأة، فإن خرجت لأي سبب فليذهب أحدهما معها، حتى تعود.

مضت الأيام دون أن يظهر الرجل، وقال شيخ الخفر: لا بد أن يكون قد انضم إلى الفلاتية.

صمت «عمر» برهة، وقال: إن فعلها صار أشد خطرًا.

قلل شيخ البلد من الأمر، وقال: لن يجرؤ على القدوم إلى هنا، فهو يعرف أننا سنرسله إلى السجن مرة أخرى.

طوح «عمر» يده في الهواء مستهينًا بما سمع، وقال: مَن أدراك أنه لا يفكر في الانتقام مني أنا. ألست مَن قبض عليه وسلّمه إلى الثُّمن؟

رد شيخ الخفر: عندها يكون قد حفر قبره بيده.

(39)

هاجم «عزة» مرض شديد، فانشغل «عمر» بمرضها، وأدرك أنها النهاية. أخفق المُزيِّن والعطار في مداواتها، وراح جسدها الذي غزته بُقع سوداء، تؤكد شيخوختها الواهنة، يتداعى حتى أسلمت الروح

ذات ليلة مظلمة. غسلوها بعد انتصاف الليل، وحفروا لها قبرًا إلى جانب «رقية» و«ناعسة»، وحمل الرجال نعشها، وساروا به على ضوء المشاعل إلى المقبرة.

وبينما كانوا منهمكين في دفنها، دوت صرخات عالية من السرايا، وانطلقت رصاصات تمزع السواد والسكون. وقف المشيعون يتطلعون إلى مصدر صراخ الحناجر، وفرقعات البندقية. وقال «عمر»، وهو يهيل آخر حفنة من التراب على قبر الراحلة: وقع المحظور.

جرى مغبرًا نحو السرايا، وخفره والفلاحون يتبعونه وفي يد بعضهم مشاعل يذبل نورها، حتى بلغوا السرايا. كان الخفير يقف عند بابها الخارجي فوق رجل ملقى على الأرض ينزف ويتوجع، وفي يده سكين عليها آثار دم يجف. ملأ «عمر» عينيه منه، وعرف أنه «برهوم». سأل الخفير عما جرى، فأجابه وهو يرتعش: تسلل هذا اللص إلى السرايا، واعتدى على السيدة «عبلة».

أمر «عمر» رجاله أن يأتوا بالمزيّن ليرى جُرح «عبلة»، وهرع إلى داخل السرايا، وخلفه الرجال. لكنه أشار إليهم عند الباب أن يقفوا منتظرين، وصعد إلى الطابق العلوي. حين دخل إلى غرفة «عبلة» وجدها ملقاة على سريرها تنزف، وحولها الخادمات يتقلبن في خوف وحيرة، وهن يحاولن وقف الدم النازف، دون جدوى.

صرخ «عمر» في إحداهن: هاتي المزيّن.

وقال لأخرى: اطلبي من الخفر أن يأتوا إليّ بالدوكار.

جلس إلى جانب «عبلة»، وهي تنظر إليه بعينين غائمتين. كان الدم ينزف من كتفها اليسرى، مد يده، وأزاح جلباب النوم عن الكتف، فأطل الجرح غائرًا. تحسسه بأصابعه، وقال: الحمد لله، الطعنة بعيدة عن القلب. لكن أناتها راحت تتصاعد، وجسدها يتراخى في استسلام، وفي عينيها رجاء مَن يتشبث بالحياة.

قال «عمر» للخادمة: هاتي برطمان البن. سكب في راحة يده حتى امتلأت، وكبس الجرح بأطراف أصابعه، وداس عليه خفيفًا، وهي تكبت صراخها من فرط الألم. انفطر قلبه لوجعها وضعفها الذي لم يعهده فيها من قبل، فوجد نفسه يأخذ رأسها على فخذه، ويمد أصابعه إلى شعرها الطويل الذي انثال فوق صدرها، ليبعده عن الجرح، ثم أمسك يدها، ليختبر النبض فوجده يجري سريعًا.

قال لها وهو يغالب دموعه: اجمدي، أنتِ قوية، ستكونين بخير.

رغمًا عنه سقطت منه دمعتان على خدها الأسيل، ففتحت عينيها لترى في عينيه آلاف المعاني المطمورة تحت إرادة الكبت والحرمان الطويلين. لمَّا وصله ما وصلها، ارتجف خجلًا ووجلًا، وقال لها: أنتِ الغالية دائمًا.

ولم يكن في شروده ينتبه إلى الخادمات، فلسعه صوت إحداهن، حين قالت: غالية وعالية يا سيدي.

وقالت له «عبلة» بصوت خفيض متقطع: أوصيك خيرًا بابني «ناجي».

رد في جزع: هو في عيني، لكن ستظل عيناكِ عليه، وترين أولاد

أولاده.

دخلت خادمة أخرى، وقالت وهي تلهث: الدوكار جاهز.

كان المُزيِّن قد وصل قبلها. مسّ الجرح بأصابعه، فوجد البن قد ساعد على تجلط الدم، لكنه أوصى بنقلها إلى مستشفى في البندر. طلب منها أن تشرب ماءً كثيرًا. أتى «الدوكار» فأسندتها الخادمات حتى ركبته، وإلى جانبها «عمر»، يجفف عرقها بمنديل من قطن ناعم، ويهمس في أذنها: اجمدي يا ست الستات.

راق لها ما خاطبها به، وكانت تسمعه منه لأول مرة. فتحت عينيها قليلًا، فرأت انخطاف لونه من فرط الجزع، فقالت له: لا تخف، سأكون بخير.

أزال الطبيب البن المخلوط بالدم، وطهّر الجرح جيدًا، ورش عليه محلولًا يخدره، ويهيئه لإبرته، التي كانت كلما انغرست في الجلد واللحم تأوهت متألمة، بينما «عمر» يتقافز مكانه، كأن الإبرة تنغرس في لحمه. رآه الطبيب على حاله هذه، فقال له: واضح أن زوجتك لها في قلبك مكانة عالية.

سمعت هي ما قيل، فصمتت ولاذ «عمر» مثلها بالصمت، وساح كلاهما في خواطر متشابهة، بل متطابقة. وفي رحلة العودة، قالت له في صوت مسكون بالامتنان: أشكرك على كل ما فعلته لي.

ملأ عينيه من الكتلة البيضاء التي حطت على كتفها من القطن والشاش الأبيض، وقال: جُرحك جُرحي، والله أعلم.

ابتسمت، وقالت: حب «جعفر» لك لم يأتِ من فراغ.

لسعه ذكر اسم الراحل، فشعر بخجل وغيرة في آن، لكنه تماسك، وقال لها: كان أخي، بل كنت أراه نفسي.

صمتت برهة، ثم قالت له: رحمه الله، والبركة فيك.

أراد أن ينطق شيئًا، لكنه بلعه، وكانت هي قد اعتدلت في جلستها، فرأت شفتيه ترفان في صمت، لكن عينيه نطقتا بما لم يجرؤ على قوله. كان فيهما ما رأته في عيني «جعفر» حين كان يأتي إلى السرايا لمقابلة أبيها وأمها مثقلًا بعشقها، ثم وهو يتسلل إلى غرفتها، أيام أن كان على باب البوح لها بما يكنه صدره.

(40)

اندمل جُرح «عبلة» وانفتح جُرح «عمر». صار ألم الجسد شيئًا هينًا في وجه ألم الروح. تراجع الأول مع الدواء الذي وصفه الطبيب ومع غيار القطن والشاش المغموس في المحاليل المطهرة، الذي واظب المُزيِّن على تجديده يوميًا. أما الثاني فكان يتجدد نزيفه كل يوم.

التهبت مشاعر «عمر»، فغرق في عشق «عبلة»، ولم يدرِ كيف يبرأ منه. كبته في الماضي البعيد القريب، حين وجد «جعفر» في طريقه، وأدرك أن الفتاة التي مال إليها تعشق غيره. ذهب «جعفر» بلا عودة، لكن العشق لم يذهب. كان شرارة خابية تحت أكوام من الرماد الكثيف، ما إن أُلقي فوقه حطب جديد حتى اشتعل. كان أرضًا قاحلة، ما إن انهمر فوقها المطر حتى نبت فيها كل ما تختزنه من بذور حملتها الريح في غفلة من الجميع. كان خيطًا من نور يحجبه ظلام دامس مسكون بالخوف والحيرة والحرمان، ما إن انقشع حتى فج عفيًا يبدد كل ما يقع أمامه.

جلس في السلاملك يستعيد الوقت الذي قضاه مع «عبلة» في رحلة قصيرة اندمل فيها جرحها. ذهب الوقت ولا يمكن إرجاعه، لكن التفاصيل التي سكنته هجمت كعاصفة. سكناتها وحركاتها، صمتها وهمساتها، وكل ما كان يطل من عينيها.

ووجد نفسه مثقلًا بهموم تنوء بها الجبال، فنهض وسار نحو الزاوية. كان المجذوب قد عاد من الكدح في الأرض، ألقى فأسه إلى جانبه، وجلس في اتجاه القبلة يطلق لسانه بالتسابيح. وقف على باب الزاوية، فرآه المجذوب، ملأ عينيه من وجه «عمر»، وقال له: لا يحتار مَن عرف الطريق.

- ليس طريقًا واحدًا، إنما تشعبت أمامي الدروب.

- بل هو درب لا ثانٍ له، إنما هي الظنون والمكابرة.

اقترب «عمر» من المجذوب، وجلس إلى جانبه، وسأله: كأنك تعرف لماذا أتيت إليك؟

- الصب تفضحه عيونه.

- كبرنا على الصبابة يا عم.

- العشق لا يستأذن أحدًا، ولا يختار وقتًا، وما دام القلب ينبض، يتسلل إليه، ولو كان المرء يمشي على ثلاث.

ورآها «عمر» ثاني كرامة للمجذوب بعد نزوله الأرض يكدح مع الفلاحين، لكنه سأله: كيف عرفت بحالي؟

ابتسم المجذوب وقال: لا اختلاف في المحبة. لاذ «عمر» بالصمت،

فواصل المجذوب: محبة الخلق من محبة الرب. في الاثنين انكسار، وذهاب هيبة تلقيها أوهام الدنيا في نفوس الغافلين. ثم نظر المجذوب إلى باب الزاوية، حيث لاح الزرع والسماء، وقال: في التردد حسرة بالغة.

أدرك «عمر» أن المجذوب قد اقتحمه. بدت نفسه أمامه عارية، فقال له: أخشى من الصد، ولا أقدر عليه.

ابتسم المجذوب، وقال: الطريق واحد، ومفتوح أمامك، فاقطعه في خطوات قليلة، وستجد كل شيء ميسرًا.

اكتسى وجه «عمر» بالسرور والطمأنينة، وهب واقفًا، وهو يقول للمجذوب: إن كان ما تقول فلك الحلوان.

هز المجذوب رأسه هازئًا، وقال: حلواني أن أراك قد قتلت الحيرة والظنون.

سار نحو السرايا، وصعد إلى غرفة «عبلة» مدفوعًا بطاقة جبارة، اختزنها في نفسه، وأغلق عليها كل الأبواب والنوافذ، ليبقيها على حالها التي كانت عليها وهو في الزاوية. ما إن جلس في مواجهتها، حتى قال لها: آن لوجعي أن يلحق بوجعك.

ابتسمت، وتطلعت إليه، وهو يبعد عينيه عن عينيها، ثم قال: لم يزر النوم عينيّ منذ عودتي من المستشفى.

كان التعب باديًا على مُحيّاه، وليس في حاجة إلى شرح حاله، فسألته: ما الذي يُتعب عمدتنا؟

صمت برهة ثم قال بصوت غارق في التبتل: لا يُتعبني غيرك.

لم تندهش، ولم تنطق بشيء، وتطلعت إليه من جديد تاركة إياه يكمل، فقذف الكلمة التي كبتها طويلًا، وقال: أريدك في الحلال.

كان إحساسها قد سبق لسانه منذ أيام، لكنها، وكعادة الأنثى في مثل هذا الموقف، أبعدت عينيها سريعًا عن ملاقاته، فأدرك هو ما عليه أن يقوله: لا أريد ردًا منك الآن، قلّبي الأمر في رأسك، وعليّ أن أغلب قلق الانتظار. وأمهلها أسبوعًا، لكن قلقه العارم دفعه في اليوم الخامس إلى السرايا. التقته هذه المرة بوجه باسم فاطمأن قلبه، لكنه فوجئ بها تقول له: لا بد من أن أشاور ابني.

ـ هو يعرف جيدًا أن الشرع لا يمنع زواجنا.

- ليت الأمر يقف عند هذا الحد.

هرب الجزء الأكبر من طمأنينته، وتطلع إليها في ود، وسألها بصوت غارق في الرجاء: هل هناك عقبة أخرى؟

- زوجتك ستغضب، ولا أريد أن أفعل ما يخرب البيوت.

اكتسى وجهه بمسحة من الغضب، لكنه كتمها، وقال: منذ متى كان رجالنا ينتظرون رأي النساء؟

ـ لا تنسَ أنها قريبتي، وهذا يزيد الأمر صعوبة.

مد يده ليمسك يدها، لكنها سحبتها في رفق، وسمعته وهو يقول: سأفاتحها، وأنا واثق من إقناعها.

اعتدلت في جلستها، وقالت: لا أعرف أن زوجة ترضى بضرة.

لم يجد بدًا من مصارحتها، فقال: تزوجتها دون حب، ولم أظلمها،

ولم أنقص من حقها شيئًا. ثم استجمع شجاعته، وقال: أصابها برود منذ انقطاع دورتها الشهرية، وتتهرب مني بحجج واهية.

احتمت بالصمت الخجول من جديد، فواصل هو: لم ينبض قلبي يومًا لامرأة إلا أنت.

رفعت عينيها إليه، وسألته: منذ متى؟

أجابها دون تردد: حين رأيتك أول مرة، ثم كتمت مشاعري بعد أن أسرّ إليّ «جعفر» بما بينكما.

ابتسمت، وقالت: هذا نبل منك على أي حال.

أطربه قولها، وأراد أن يطمئنها، فقال: دعي لي «هنية»، وسأحرص على ألا أكسر قلبها.

نظرت إليه بطرف عينها، وقالت ساخرة: لو طالني ما طال «هنية»، فهل تبحث عن ثالثة؟

نظر إليها في تمعن، وقال: تختلف النساء في هذه، وعمومًا فأنا يكفيني منك أن أرى وجهك الجميل.

ضحكت، وقالت: صرت تقول كلامًا جميلًا يا عمدة.

تنهد، وقال: يتجمل الكلام في حضرة الجميلة.

ضحكت وقالت: ما أدراني أن تكون «هنية» قد سمعت هذا من قبل.

أفاق من نشوته، وقال: سأفلح في إقناعها.

لكن «هنية» صرخت في وجهه حين فاتحها، وقالت: أكلتني لحمًا وترميني عظمًا يا ظالم؟

كانت ذريعته حاضرة، فاقترب منها في تودد، وقال: أدخل عليها السرايا دومًا، وتأتي هي إليّ في التعريشة، لمراجعة حسابات الأرض، وأريد أن أخرس الألسنة.

أجهشت بالبكاء، فوضع يده على رأسها، وقال: لست أول رجل يتزوج فوق امرأته.

أزاحت يده في غضب، وقالت: لم أقصر في شيء حتى تمد عينيك إلى واحدة غيري.

زاد من حيلته، فقال لها، مؤكدًا كلامها: لا أنكر إخلاصك وكرمك.

واعتقد أنها في طريقها إلى الرضا، فقال: أعاهد الله على أن أعدل بينكما. لكنها فاجأته بما لم يكن في حسبانه، وقالت له في حسم: لن أقبل بضرة، فإن عزمت على تنفيذ ما في رأسك، فلتفعله دون أن أكون على ذمتك.

سألها في جزع: ما معنى هذا؟

أجابته بنبرة قاطعة: تطلقني.

ثم نهضت، وقالت: سأذهب إلى بيت أخي «رشدان»، وأنتظر، فإما أن تُراجع نفسك، أو ينتهي ما بيننا.

ثم التفتت إليه، وقالت: لكنني لن أسامحك أبدًا.

(41)

لم يمانع «ناجي» في زواج أمه، وأفهمها «عمر» أن غضب «هنية» سيأخذ بعض الوقت، لكنها ستعود في النهاية إلى بيتها، وقال: تفك الخط، وربما منحها هذا عقلًا متزنًا، سيهديها إلى ما في صالحها.

ضحكت «عبلة»، وقالت: كان أبوها يأتي بها أحيانًا لتحضر دروسي، وأشهد أنها امرأة ذكية، تستوعب ما تسمعه سريعًا، لكنها ضيقة الصدر، غيورة. كانت على النقيض من أختها التي لم تُقبل على التعليم، لكني كنت أراها متسامحة.

هز «ناجي» رأسه، وقال: تداوي الأيام جراحًا عميقة.

كانت «عبلة» مطمئنة إلى محبة «عمر»، ومستجيبة لنداء يسكنها عن حاجتها إلى رجل. كانت على رزانتها لا تقوى على العيش دون مَن يدفئ لها فراشها. عاشت سنوات تنتظره قبل أن يظهر «جعفر» في حياتها، وما إن قابلته حتى أخذته منها المطاردة، فلما مكث إلى جانبها تركها ساعيًا خلف نداء آخر، لم تقتنع هي بأنه سبب كافٍ ليُكتب عليها الفراق من جديد. طالما عضت بأنيابها على الوسادة الخالية إلى جوارها، وهي تستعيد اللحظات التي تحلق فيها خارج كل شيء، وهو يغرس داخلها آخر امتداد لحرقته العارمة. تعلمت معه أكثر أنها لا يمكنها الاستغناء عن رجل.

لم يكن «عمر» أقل وسامة وقوة من «جعفر»، ويزيد عنه إخلاصًا للعمل في الأرض، وحرصًا على تعزيز ماله، بلا شح ولا إسراف. لم تنكر «عبلة» حين كانت تجلس إليه لتراجع معه تكاليف الأرض وعوائدها، أنها تمنت لو كانت مهارته في هذا قد حلت في نفس «جعفر»، وهي عندها ليست بالأمر الهين الذي تريده في رجلها، كما

رأته في أبيها الوجيه.

كان قد وافق على طلبها بأن يقيم معها في السرايا، وحين تململ، قالت له: لم أعتد غير هذا المكان، ولا أريد أن أسلب «هنيّة» بيتًا ستعود إليه. لكن «هنية» لم ترجع. صممت على الطلاق، واستردت أرضها التي كان «عمر» يزرعها، فانتقل الإشراف عليها إلى أخيها «رشدان» ومعه ابنها «رافع» الذي كان أقرب إليها من أبيه، حتى إنه غضب لغضبها، وصحبها إلى حيث استقرت، وهو يقول: الأم أولى بولدها.

(42)

اكتشفت «هنيّة» بعد طلاقها أنها امرأة مسكونة بضغينة فوق طاقتها. كانت قد كبتتها طويلًا، ولم تجد لها مصرفًا. لم تكن في حاجة إلى التفكير في إيذاء أحد، ولا التخطيط للإضرار بأحد. قضت سنوات شبابها الأولى حبيسة في دوار أبيها العمدة، لا تزورها لحظات حقد إلا حين تسمع عن زواج أي من فتيات القرية اللاتي يصغرنها سنًّا، لكنها كان تعزو تأخر زواجها هي وأختها إلى أن أحدًا من شباب القرية لا يجرؤ على طلب يد أي منهما، وهم فقراء لا مال لهم، حتى جاء الشبان الثلاثة الغرباء، وامتلكوا الجرأة، ثم أتاهم المال.

لم تنسَ أمها، التي كانت بنت عم أبيها، أن تحكي لها الحكايات القديمة، لكنها لم تنشغل بها كثيرًا؛ لأن «الجابرية»، وقتها كانت خالية من «الصوابر». لم تجد مَن تدفع إليهم حنقها وغضبها، وعدتهم جزءًا من الماضي البعيد، الذي يُستعاد على سبيل التسلية، أو ليثبت مَن

يحكيه كيف كان قويًا وانتصر، وآلت إليه الأمور.

طالما سمعت من أبيها، يقول عن الوجيه: أخشى أن يكون آخر رجالنا الكبار، فابنه لا يُبشر بخير.

وحين قالت له: أنت كبير أيضًا يا أبي.

ابتسم وقال: بين «الجوابر» درجات، لم تختلط، ولا ينساها الناس.

لم تجد «هنيّة» ما تنوي الحديث فيه لأخيها «رشدان»، فقال لها مختصرًا الطريق: لا ينتصر مَن استعجل.

ارتاحت لقوله، وسألته: هل تدبر أمرًا يعيد إلى أختك كرامتها؟

أجابها في تململ بسؤال أيضًا: هل يريحك أن أقتل «عمر»؟

ضربت صدرها بيدها، وقالت: هذه الهزيمة بعينها. تساق أنت إلى السجن، وترث «عبلة».

ربت كتفها، وقال: عليك أن تصبري، ولا تنسي أننا الطرف الضعيف في هذه المعركة.

فطنت إلى ما يعنيه، وقالت: إن كانت أرضنا أقل، فليست الأرض كل شيء.

ابتسم في مرارة، وقال: تربينا على أنها سبب القوة الوحيد في بلادنا.

نظرت في عينيه مليًا، وقالت: عزوتنا أكثر، فهو الوحيد من رجال «الصوابر» هنا، فابن «جعفر» قد يأخذه طلب العلم في الأزهر إلى غير رجعة، وابن «عمر» من رحم أختك، يميل إلينا.

تنهد في ضجر، وقال: يبدو أنكِ قد نسيتِ أن أغلب «الجوابر» يدينون بالولاء للسيدة «عبلة»، ويتحركون دومًا بإشارة من يدها.

عضت على أسنانها، وقالت: خائنة، لم تخلص لحكايات الأجداد.

قهقه «رشدان»، وقال لها: تسبين أباك، وتسبين نفسك، فهو تزوج من ابنة «الصوابر»، التي هي أمي، وعقد قرانك راضيًا على أحد شبابهم.

تنهدت في حرقة، وقالت: أبي لم يعرف إلا بعد أن قُضي الأمر.

ضحك «رشدان» وقال: كنت سأقدر كلامك لو أن أبانا طلق زوجته فور أن أخبرته بنسبها، وطلبت أنت الطلاق فور أن عرفت مَن يكون «عمر».

ثم صمت برهة، وقال لها: ابنك انحاز لأمه، وإن فعلت مثله سأكون مع أمي.

صرخت فيه من جديد: لا تقارني بمَن ماتت.

تثاءب وقال لها: لا تعتقدي أن حقدي على «عمر» يعود فقط إلى رغبتك التي انفجرت فجأة، إنما هو خوفي من أن يكبر أكثر بعد أن وضع يده على مال «عبلة»، ويبتلعني في طريقه.

هنا فتح «رشدان» الباب لأخته، لتخبره بما فكرت فيه طوال الأيام الفائتة. اغتصبت ابتسامة عجلى، وقالت: إن لم تكن لك أرض مثلهم، فيمكنك أن تسبقهم إلى ما يرفعك فوقهم سريعًا، وتسترد العمدية التي ضاعت منا في غفلة.

سألها، متلهفًا: ما هو؟

تنحنحت، ثم انخفض صوتها، وكأنها تخشى أن يسمعها أحد: الصناعة.

نظر إليها متعجبًا، وقال: لم نرث عن أجدادنا سوى الزراعة، ولا نعرف غيرها.

ابتسمت، وقالت: الصناعة تحتاج إلى مال، وأنا سأساهم بما لديّ، أما مَن يصنعون فيمكننا أن نؤجرهم، كما نؤجر الفلاحين لأرضنا.

واقتربت منه، وقالت: قبل سنة، جاء إلينا رجل يهودي من «قوص» وعرض على «عمر» إنشاء معاصر قصب لصناعة العسل والسكر والزيوت، لكنه رفض.

انتبه أكثر إلى ما تقول، وسألها: أتعرفين اسم الرجل وعنوانه؟

- اسمه «قطاوي» ومعروف للناس جميعًا في «قوص».

(43)

عاتبت «رضيّة» زوجها «محمود» لأنه لم يتدخل ليثني «عمر» عن قراره. أنصت إليها، ثم سألها هازئًا: أيحزنك حال أختك أم تخافين أن أفعل مثل «عمر»؟

ارتفع صوتها وهي تقول له في تحد: افعلها، وسترى ما يجري لك.

وكان قد اعتاد منها حدة، منذ أن عرفت أنه من «آل بخيت»، وأن أجداده كانوا خدمًا في سرايات «الصوابر» وأجراء في أرضهم، وأن النسب الذي قام بينهما كان اضطرارًا أيام «نجع بحر»، فلم يجد سوى

ابتسامة يمرر بها الموقف، وقال: دائمًا ما تقلبين الهزار جدًا.

عادت إلى سيرتها الأولى، فقالت: لا هزار في مثل هذا الأمر، ولا أسمح لك بأن تنطق بهذا، بل مجرد وروده على خاطرك مرفوض.

ضايقه أن تُمعن في الحديث معه بهذه الطريقة، خاصة أنها كانت تبدو متعمدة إهانته، فوقف غاضبًا، وقال لها: لم أعد أطيق ما تقولينه وتفعلينه.

وكان يظن أن كلامه سيجعلها تكف عن التطاول، لكنها تمادت، وقالت: أنت قبلت أن تعيش ظلًا للصوابر.

تطلع إليها غاضبًا، ثم نهض يريد أن يغادر البيت، لكنها رشقته بسهم قاس: لا تريد أن تنسى أصلك القديم.

توقف، ثم اقترب منها، ونظر إليها فوجد في عينيها تحديًا وعنادًا، فلطمها على وجهها. جن جنونها، وصرخت: أتضرب ستك يا خدّام؟

همّ أن يلطمها من جديد، لكنه تمالك نفسه، وقال لها، وهو يعض على ضروسه: الخدم أفضل من «الجوابر»، آكلي السحت والقتلة.

ثم قال لها، وهو يهم للخروج من البيت: أعود فلا أجدك هنا.

وجد نفسه يسير نحو الزاوية. كان الليل يرمي عليها سوادًا كثيفًا، تثقبه لمبة جاز واهنة الضوء، معلقة في جدارها، تهدي نورها إلى الحصير المفروش خارجها. جلس ينظر إلى بحر الظلام الممتد فوق الزروع، ثم حط بناظريه على القبور، حيث الصمت الجليل. خرج من رأسه شبح، تراقص هناك، تهيأ له أنه لفاتنة «آل بخيت» التي صارت سيدة الجميع في الزمن القديم، فوجد نفسه يناديها: عمتي

«بديعة»..

سمعه المجذوب فخرج إليه، وكان قد عرف صوته، فقال له: يتسع الخلاء لمَن ضاق صدره بالهموم.

رفع إليه وجهًا كسيرًا، وقال: لا يريد أهل هذه القرية أن ينسوا الماضي البغيض.

ابتسم المجذوب، وقال: كان ذهبت، ويكون ذاهبة، وسيكون مآلها إلى ذهاب.

فطن «محمود» إلى مقصود الكلام، فقال: لا شيء يذهب طالما الحكايات تولد، وترددها الألسنة على الدوام.

قال المجذوب: لا يميز بين الناس سوى التقوى.

ضحك «محمود» ساخرًا، وقال: لا مكان لها في صدور يسكنها الغل والفساد.

جلس المجذوب إلى جانب «محمود»، ومسح بكفه على رأسه، وتلا سورة «الناس» ثلاث مرات، ثم قال له: ساعة شيطان وذهبت، فلا تجعله يغلبك. لاذ «محمود» بالصمت، فواصل المجذوب: ليس هناك أسوأ من خراب البيوت.

وأدرك «محمود» أن الرجل قد وصله ما جرى، فقال: أهانتني يا مولانا.

قال المجذوب: لا تخلو البيوت من غضب، والرجل العاقل مَن لا يقرر وهو غاضب.

قال «محمود»: عزمت على تطليقها.

نظر إليه المجذوب في إشفاق، وقال: لا تُقدم على شيء بغيض.

ثم طلب منه أن يقوم معه إلى القبور، فلما صارا بينها، رفع المجذوب يده، وأشار إليها، وقال: هنا يُدفن الفرح والحزن، والهدوء والغضب، مع أصحابه.

تنهد «محمود» في حرقة، وقال: ليت الحكايات قد دُفنت معهم أيضًا.

(44)

لم توافق «هنيّة» أختها على ترك بيتها، وقالت لها: لا تخيبين مثلي، وتفسحين الطريق لامرأة أخرى، تحصد ما زرعت.

رفعت رأسها إليها متعجبة، وقالت: كأن ضرب أختك لا يجرحك.

أخذت رأسها بين كفيها، ونظرت طويلًا في عينيها، وقالت: ولدت الفرصة ليكون «محمود» معنا، فلا تُضيّعيها.

وسألتها في جزع: أي فرصة؟

صمتت برهة، وقالت: لا يجب أن يبقى زوجك تابعًا أعمى لطليقي الغادر.

وضعت يدها على خدها، حيث أثر الصفعة كان لا يزال باديًا عليها، وقالت: لن يصبح الخادم سيدًا.

ضحكت «هنية»، وقالت: هو كذلك لأنه لم يجد مَن يفتح عينيه على ما يجب عليه أن يفعله.

كانت قد أحكمت في رأسها تدبيرًا، تُبعد به «محمود» عن كنف «عمر» فيصير عقله وقلبه مع «الجوابر»، ثم قالت: لم يخلُ الزمن من بعض رجال «آل بخيت» وقد مالوا إلى «الجوابر».

سكن الكلام رأس «رضيّة»، لكنها قالت: طردني من البيت.

- دعي هذه لي، ويكفي أن غضبك قد فتح لنا الطريق.

- أي طريق؟

- حين يأتي مَن أرسلنا في طلبه، ستعرفين كل شيء.

(45)

جاء «قطاوي» إلى «الجابرية» على عجل. جلس مع «رشدان» في السلاملك القديم. جفف عرقه بمنديل قطني أزرق، وقال: حدثت العمدة عن باب رزق واسع، لكنه أغلقه.

ابتسم «رشدان» ساخرًا، وقال: دعك منه، فرأسه سيظل، طوال عمره، مدفونًا في الطين.

ثم اقترب من «قطاوي»، وقال: أنا جاهز لأسمع منك.

حدثه «قطاوي» عن السكة الحديدية التي سيمدها الإنجليز لتمر بـ «الجابرية»، وقال له: كل شيء سيتغير بعدها، والذكي مَن ينظر إلى الأمام.

سأله «رشدان» عن الصناعات التي يمكن إقامتها في القرية، فأخبره بأن أفضل صناعة في مكان يزرع فيه القصب هو العسل الأسود والسكر، أما القطن فيخرج الزيت من بذوره، وما تبقى تضاف

إليه أشياء أخرى، ويصبح علفًا لتسمين العجول.

وسأله قطاوي: كم عدد رؤوس الجاموس في القرية؟

قهقه «رشدان»، وقال: لم أفكر في عدها من قبل. ثم حك ذقنه وقال: جرت العادة في بلدنا منذ زمن طويل أن كبارها يشاركون الفلاحين على الجاموس والبقر والغنم، إلى جانب ما يربونه في حظائرهم. وصمت برهة، محاولًا أن يستجمع عدد الماشية التي يملكها، وما هو ملك «عبلة»، وما في حظيرتي «عمر» و«محمود».

أخرجه «قطاوي» من شروده، قائلًا: من الآن عليك الاهتمام بكل شاردة وواردة في «الجابرية» وما حولها من قرى. وأخبره بأن بإمكانهم جمع الألبان من الفلاحين، ويا حبذا لو صنعوا معملًا لإعداد الجبن والقشدة، ووضعها في صفائح، لتصديرها إلى البنادر، ثم قال له: ابني «ليشع» لديه خبرة طويلة في هذا.

سأله عن الطريقة التي تجري بها صناعتهم، فقال: عليك رأس المال، وعليّ الخبرة مقابل ربع الأرباح.

اكتسى وجه «رشدان» بالحيرة، فمن أين يدبر كل ما هو مطلوب، كي ترى «الجابرية» على يديه ما لم تره من قبل. لكن «قطاوي» اختصر له المسافة، فقال: ليس كل المال نقودًا، إنما أرضك التي علينا أن نزرعها بمحاصيل تحتاجها صناعتنا، فإن لم تكفِ عليك أن تؤجر المزيد من الفلاحين، أو نشتري منهم ما نريد.

فتح «رشدان» خزانته وأحصى ما فيها، وقدّر أثمان حُلي زوجته وأختيه، لكن ما جمعه لم يكن كافيًا لإقامة العصارات والمعامل.

فكر في الاستدانة ليُطلق ما يريد، لكن «هنيّة» قالت له محذرة: نبدأ بعصارة القصب، ومن تراكم الأرباح نقيم ما بعدها.

سألها إن كان من الأفضل أن يبيع جزءًا من أرضه، فقالت غاضبة: لن يستفيد من هذا سوى «عمر».

وكان ابنه «بهاء» يدخل عليهما السلاملك، فنظرت إليه، وقالت لأخيها: لا تترك ابنك بلا أرض، فمهما صنعنا، فهذا يمكن أن يتبدد بين ليل ونهار، أما الأرض فلا أحد يحملها على ظهره ويمشي. فقهقه وقال: لكنه يمكن أن يحمل خيرها ويحرم أصحابها منه. ثم قال لها في جدية: نرهن الأرض، ونستردها فيما بعد.

إلا أنها رفضت هذا الخيار، وقالت: إن دخل «محمود» شريكًا معنا، فلن نكون بحاجة إلى الاقتراب من الأرض بيعًا أو رهنًا.

قهقه من جديد، وسأل: وهل يقبل بعد ما عيّرته به أختنا؟

ولأنها أحكمت التدبير، قالت في ثقة: سيكون معنا. أنا أضمن هذا.

قامت على الفور، وتوجهت إلى بيت «محمود». كان يجلس حزينًا في صالة بيته، يمضغ في بطء طعام العشاء، ويحملق في السقف شاردًا. جلست إلى جواره، وقالت، وهي تمد يدها إلى كسرة خبز: مَن أكل خبز الناس وجب عليه أن يخلص لهم.

شعر بخجل؛ لأنه نسي أن يدعوها إلى العشاء، وقال: لو علمت بزيارتك لطلبت من الخادمة أن تعد لكِ وليمة.

ضحكت، وقالت: بصلة المحب خروف.

رفت على شفتيه ابتسامة، لم تلبث أن ماتت، وسألها: أين المحبة فيما فعلته أختك؟

- وبختها أنا وأخي، وندمت على ما قالته.

- يخرج المكتوم وقت الغضب.

- في كثير من الأحيان يدفع الغضب صاحبه إلى الهلوسة.

- لم أتعود في أختك الجنون.

- لكنك اعتدت فيها الرعونة. إنها الصفة السيئة التي نعرفها فيها منذ صغرها، وطالما حذرناها من عدم مضغ الكلام قبل النطق به، لكنها لم تتعلم شيئًا.

وسألها «محمود» إن كانت قد جاءت إليه بطلب من زوجته، فوجدت الفرصة سانحة أمامها، وقالت: لم أرها نادمة على شيء مثل حالها الآن.

ارتاح «محمود» لقولها. بلع اللقمة الواقفة في فمه، بعد أن ظل يلوكها طويلًا، وكأنه يفرغ فيها شحنة الغضب الذي تمور به نفسه، وقال: لو كانت نادمة حقًا، لانتظرت في بيتها حتى أعود، واعتذرت.

اقتربت «هنية» مما تريد، فقالت: أرادت أن تُمهد لاعتذارها، فوسطتني بينكما.

لم ينطق، ومد يده على مهل إلى طبق الجبن، فغرس فيه كسرة بتاو جديدة، فقالت «هنية»: لا أظن أن رجلًا كريمًا مثلك يرفض وساطتي. ووجدت في ملامحه بعض الرضا، فواصلت: لن تكسر

خاطري، إن جئت بها لتشاركنا العشاء.

صمت، فنهضت، وخرجت سريعًا إلى بيت أخيها، وعادت ومعها «رضيّة»، التي نفذت وصية أختها دون تردد. جلست القرفصاء إلى جانب زوجها، وقبلت رأسه، ثم سحبت يده، فتركها لها. طبعت فوقها قبلة، وقالت: سامحني.

وتدخلت «هنية» على الفور: المسامح كريم.

ورأى «محمود» ابنه واقفًا، وفي عينيه فرحة بعودة أمه، فقال: ساعة شيطان وراحت.

وكان على «هنية» أن ترمي الطُعم الآخر لصيدها، فقالت: تراك «رضية» رجلًا كبيرًا، بأخلاقك ومالك وما تعرفه عن فلاحة الأرض، وسياسة الفلاحين.

نظر «محمود» إلى زوجته، فنطقت بما اتفقت عليه مع أختها: مهارتك مسجونة في قناعتك، وبعض الطموح يفيد الرجال.

ولم يدرك «محمود» ما ترمي إليه «رضية»، فتدخلت «هنيّة»: هو طَموح، وإلا ما وفر لك هذا العيش الطيب.

قالت «رضيّة»: لا أنكر، لكن البحر يحب الزيادة.

وانفتح الباب أمام «هنيّة» على مصراعيه، فقالت وهي تضحك: طبعًا، أليس جده «بحر» قد أقام ذات يوم نجعًا على أطراف الصحراء، وصار كبيره وسيده، الذي يتغنى به القوّالون في الأفراح؟

مصمص «محمود» شفتيه، وتساءل: أين أنا من جدي؟

تدخلت «هنيّة»، وهي تدرك أنها قد لامست النقطة قبل الأخيرة في تدبيرها، وقالت: تقدر تعيد عظمة جدك.

ونهضت لتنصرف، تاركة البقية لأختها. التي ما إن اختلت بزوجها في غرفة نومها، حتى مدّت يدها إلى الخزانة، وأخرجت منها قميص النوم الأحمر، الذي يروق له، وارتدته على عجل، ثم نظرت إليه، وقالت: لا بد أنك تشتاق إليّ.

حين تمددا في مخدعهما، رمت رأسها على صدره، وقالت له: انفتح اليوم باب خير، وأراك تستحق أن تأخذ نصيبك من هذا الرزق.

نقلت إليه ما دار في بيت أخيها، وقالت: يكبر الرجال مع المغامرة.

صمت برهة، ثم قال: أنا لا أفلح إلا فيما أعرف.

عبثت بأطراف أصابعها في الشعر المتكاثف على صدره كغابة منسية فوق جلده الأسمر، وقالت: يُعرف الناس بالتجربة.

لم ينطق فواصلت هي: لن تترك ما تعرفه، لكن ستفتح إلى جانبه بابًا جديدًا، والرزق يحب الخفة.

كان رأسه مشغولًا بما سمع، لكنه بدا مأسورًا بالطريقة التي ألفها، ولم تخذله أبدًا، وهي الزراعة وتربية الماشية والضأن، فقال: دعيني أفكر، فهذه خطوة ليست سهلة. وكانت تعرف كيف يقرر على مهل، فقالت: ابننا كبر، ولا أراه متحمسًا للفلاحة، ألحقناه بالمدرسة، لكنه اكتفى منها بمراحلها الأولى، وربما يجد في الصناعة ما كان غائبًا عن ذهنه، ويبحث عنه دون أن يعرف ما هو.

(46)

بينما كان «محمود» يفكر على مهل قبل أن يذهب في الطريق الذي رسمته له زوجته، استيقظ أهل «الجابرية» ذات يوم على مسّاحين توزعوا في الأرض، يشدون خيوطًا سميكة في الزراعات دون أن يستأذنوا أصحابها. هرع الخولي إلى السرايا، وأيقظ «عمر» الذي كان الليلة الفائتة غارقًا في المحبة حتى سقط هامدًا. قام يتثاءب وفتح باب الغرفة الذي طُرق كثيرًا، وقال للخادمة في غضب: لم أمت بعد، ليكون كل هذا الإلحاح.

قالت له بصوت خفيض: معذورة يا سيدي، فالخولي يستعجلك لأمر مهم.

حين وصل إلى الزرع، كان عمال، يرتدون زيًا أزرق، يدقون أوتادًا غليظة، ولا يشغلهم الزرع الذي يخلعونه ويلقونه جانبًا، بينما جنود من الإنجليز يقفون لحراستهم، وبنادقهم معلقة في أكتافهم. ذهب «عمر» إلى رجل تختلف سحنته عن الجُند، كان قد سمعه يوجه العمال بأوامر قاطعة، وسأله في غضب: مَن أنتم؟ وكيف تقتحمون أرضنا بلا استئذان؟

أدرك الجُند غضب «عمر»، فهرعوا نحو الرجل، وكان مهندسًا مصريًا يشرف على العمل، ثم التفوا حول «عمر»، لكن المهندس أشار إليهم بالانصراف، ثم قال: نجهز لامتداد السكة الحديدية.

كان «عمر» وغيره من العمد، قد وصلتهم أخبار عن هذا منذ مدة، لكنهم ظنوا أن تنفيذ المشروع سيستغرق بعض الوقت، وإن تم فسيكون هذا بعلمهم. سأل المهندس بصوت هادئ هذه المرة: كان يجب أن تخبرونا لنكون في انتظاركم.

هز المهندس رأسه، وقال: تلقينا الأوامر على عجل، ولم يكن لدينا وقت للحديث مع أحد.

رمى «عمر» بصره ليرى عرض المساحة المخلوعة من الزرع، وسأل: ألم يكن من الأفضل انتظار موسم الحصاد؟

أجابه المهندس في فتور: الحكومة لا تنتظر شيئًا، ولا أحدًا.

وكان المهندس قد سمع الخولي ينادي «عمر»، بحضرة العمدة، فقال المهندس: يجب أن تفرح يا عمدة، فقريتكم ستكون لها محطة يقف عندها القطار، ويربطها بالقُطر كله.

اغتصب «عمر» ابتسامة، وقال: أنا فرحان طبعًا.

نظر إلى المساحة الممتدة من الزرع الذي اغتالته يد العمال، وقال: لعل العمران يقوم في قلب هذا الخراب.

وجاء رجل آخر، في يده دفتر وقلم حبر، وسأل «عمر»: نعد اللافتات التي توضع على محطات القرى. أليست هذه هي «الجابرية» كما في الدفاتر الرسمية؟

وكما يلدغ ثعبان قدم رجل شارد، أيقظ السؤال «عمر» من غفلة طويلة. استعاد في لحظة حكايات الأجداد، وكيف سكنها وعد بإعادة القرية إلى اسمها القديم، الذي كان يقفز على لسانه دون إرادة منه حين يسأله أحد في البندر عن بلده.

سأل الرجل في استعطاف: أليست هناك مهلة في اختيار الأسماء؟

- نحن ملتزمون بالوارد في الدفاتر الرسمية.

- كيف يتم تغيير اسم قريتنا؟

- تتقدم بطلب إلى المديرية، ويُستحسن أن يكون مشفوعًا ببصمات أغلب أهلها، فإن وافقت سننفذ القرار.

- هل هناك وقت لهذا؟

ـ طبعًا طبعًا.. إنها سكة حديدية وليس مدقًّا في الغيطان.

وقال «عمر» للخولي، وهما ينسحبان من أمام العمال والمهندس والجنود: لو كان ثمن المساحة الضائعة استرداد اسم قريتنا القديم، فهذا خير.

حين عاد إلى السرايا سألته «عبلة» عن سبب استدعائه، فقال لها: يرسمون مكانًا في أرضنا لمد السكة الحديدية.

تهلل وجهها بفرح، وقالت: أخيرًا ستكون لنا مواصلة أسرع للسفر إلى المحروسة.

وقطعت خطوات نحو النافذة، ورمت بصرها إلى النهر، فظهر هناك المركب الشراعي الذي تملكه. لوحت إليه بيدها، وقالت ضاحكة: وداعًا، وإلى الأبد.

ولحق بها «عمر»، وقال: لن نستغني عنه لنقل بضائعنا.

واصلت الضحك، وقالت: يرفض الناس في البداية كل جديد، حتى يجدوا أنفسهم خاضعين له.

تركها غارقة في فرحتها، وهبط إلى البهو السفلي، ونادى الخفير، وقال له: أحضر لي الشيخ «مقبول» الإمام الجديد للمسجد. وجاءه

الشيخ يلملم أطراف قفطانه، ويعدل العمامة فوق رأسه، وكان قد استلم عمله في القرية قبل أسابيع قليلة، فقال له: عن أي موضوع ستكون خطبة الجمعة المقبلة؟

- أفكر في أن تكون عن فضيلة الإحسان.

- من الإحسان أن يسترد الناس حقهم الضائع.

ـ لا شك في هذا يا حضرة العمدة.

ـ أريدك أن تخطب فينا عن فضيلة الصبر.

- جعلنا الله من عباده الصابرين.

ردد «عمر» قول «آمين» ثلاث مرات. وكان وقت الغداء قد حلّ، فأقسم على الشيخ أن يبقى معه في السرايا ليتناولا طعامهما سويًا. نادى الخادمة، وهمس في أذنها: جهزي غداءً من لحوم الطير، وحمري لنا رطلين من لحم الضأن.

رفت على شفتيها ابتسامة، وسألته بصوت خفيض: كل الطير؟

هز رأسه، وقال: كله، وخذي وقتك.

وضعت الطعام أمام الشيخ «مقبول» فتطلع إليه يتلمظ. كان لحمًا محمرًا من الضأن، وحمامًا محشيًا بالفريك، ودجاجتين وذكر بط، إلى جواره طبيخ اللوبيا والملوخية والأرز، وصحنان من شوربة الخضار الساخنة، وبتاو لدن، ومخلل اللفت.

تطلع الشيخ إلى ما فوق المائدة، وقال: هذا كثير يا عمدتنا.

ابتسم، وقال: هذه أول مرة تدخل السرايا، وقدرك كبير عندنا يا

شيخنا.

وطال بهما الجلوس إلى المائدة، وشرح «عمر» للشيخ الطرف الذي يريده من تاريخ القرية، وهو صامت لا يريد لشيء أن يلهيه عن الطعام، ثم سأله «عمر»: أيهما أفضل يا شيخنا، الصبر أم الجبر؟

بلع الشيخ نسيرة من ذكر البط، أتبعها بجرعة ماء، بينما ذهنه يستجمع الإجابة، ثم نطق بها: الصبر كله خير، إلا إذا كان ضعفًا إزاء ظلم. أما الجبر، فليس فيه من خير إلا جبر خاطر مكسور، وأغلبه افتراء وقهر وإكراه.

ابتسم «عمر»، وسأل: فإن كانت محاولة لمحو ظلم، صبرنا عليه طويلًا؟

أجاب الشيخ: كل خطوة نسعى بها لرفع ظلم، أو إماطة أذى، هي مباركة.

هز «عمر» رأسه، وهو موقن أنه قد وصل إلى ما يريد، وقال: وجد أمثالك في هذه الدنيا يا شيخنا ليشاركوا في هذا السعي.

قال الشيخ، وهو يمده يده إلى حمامة محشية يفسخها في عجلة: هذه مهمتنا، والله المستعان.

فتح الباب أمام «عمر» ليطلب مباشرة من الشيخ أن يعينه في استعادة اسم القرية القديم، وأفهمه أنه يريد أن يمهد رؤوس أهل القرية في خطبة الجمعة القادمة لهذا الأمر، بأن يحدثهم بعد أن يستفيض في شرح فضائل الصبر، عما كان عليه اسم القرية، ليفكر الناس فيه، ثم تستملحه ألسنتهم.

جفل الشيخ، حتى كادت اللقمة تنحبس في زوره، وقال: هذا قد يثير غضب «الجوابر»، وهم الأكثرية هنا.

ابتسم «عمر» وقال: عليك فقط أن تفتح الباب قليلًا، واترك بقية الأمر عليّ.

كان «عمر» يعرف جيدًا أنه وابنه وابن «جعفر» هما فقط مَن ينتمون إلى عائلة «الصوابر» في كل هذه القرية، بل إن ابنه مال إلى أمه، فلا يجب عليه أن يحسبه معه بشكل كامل. أما «الجوابر» فقد تناسلوا في القرية جيلًا بعد جيل، فكثر عدد ذراريهم، وكانوا يتصرفون طوال الوقت على أن القرية لهم، وأن البقية من الفلاحين الذين أتوا في زمن سابق، والنصارى، ورجل من اليهود وامرأته وابنه، والذين سكنوا القرية من المعلمين بالمدرسة، وحتى المجذوب الذي يسكن الزاوية، هم ضيوف عندهم. وكان «عمر» نفسه، وقبله «جعفر» و«محمود» يصلهم هذا الشعور، ويجدون هذه المعاملة، ولولا قربهم من الوجيه، ثم ابنته، ومصاهرتهم للعمدة الراحل، لم يكن «الجوابر» يتحملون بقاءهم، وربما طردوهم كما وقع لهم في «الحجاني» قبل سنين طويلة.

خاف «عمر» أن يفاتح «عبلة» بما يفكر فيه فتغضب، وربما لا تكتفي بالغضب، بل تؤلب عليه أهلها، وتحضهم على التمسك باسم القرية قائمًا كما غيّره أجدادها. لذا فضّل أن يلتقي أهل القرية من غير «الجوابر» في السلاملك الملحق ببيته. أرسل خفره في استدعاء الفلاحين مجموعات متلاحقة، وكذلك فعل مع النصارى، واعدًا إياهم بأن يعيد ترميم كنيستهم على نفقته الخاصة، ووعد اليهود بزيادة

تجارتهم، مع قدوم القطار.

شرح لمَن جاءوه ما يعتزم الإقدام عليه. أنصتوا له يتقلبون في حيرة وخوف، فهم يعرفون أن عائلة «الجوابر» هي الأكثر عددًا، وأن العمدة ولو تزوج من ابنتهم الثرية، فلا يعرفون إن كانت توافق زوجها على ما يريده أم ترفض، وربما لا تعرف أصلًا. طافت برؤوسهم وجوه الأشرار من «الجوابر»، الذين ورثوا تجبر جدهم «درويش» رغم رقة حالهم، إلا أنهم لم يكن بوسعهم إغضاب العمدة وفي يده الكثير لإيذائهم إن لم يخضعوا له قولًا وفعلًا.

لكن «صليب» كبير النجارين، الذي بلغت مهارته سكان السرايات في القرى البعيدة فكانوا يأتون به لتجهيز أثاثها، قال في هدوء: يمكنك يا عمدتنا أن تسلك طريقًا آمنة.

تطلع إليه منتبهًا، فقال: بعض المال لحاكم المديرية يبدل اسم القرية.

سأله «عمر» عما إذا كان هذا ممكنًا بالفعل، فأجابه: والمسيح الحي، هذا ما يحدث. ولمّا رأى الشكوك في عيني «عمر»، راح يؤكد: لا تنسَ أنني دخلت سرايات في كل القرى، وما قلته جرى أمامي بالضبط.

استحسن «عمر» هذا الحل، لكن شيخ الخفر تدخل، وكان مواليًا للعمدة كل الولاء: حتى لو جرى هذا في السر، فلا نضمن رد فعل «الجوابر» حين يجدون لافتة المحطة مكتوب عليها اسم «الصابرية».

وسأله «عمر» عما يتوقع، فقال: إن وجدت الحكومة أن التغيير

سيأتي بالمشاكل، فلن تقدم عليه.

لاذ «صليب» بالصمت، لكن «عمر» استنطقه حين سأله عما إذا كانت القرى الأخرى التي وصلها شريط السكة الحديدية قد ثار فيها عراك على اللافتات، فقال: يحدث هذا إن فوجئ الناس بالتغيير.

تدخل شيخ الخفر: إن كان معنا أهل القرية ما عدا «الجوابر» فسنضمن تنفيذ ما نريد.

أيقن «عمر» أن الطريقة التي بدأ بها حين استدعى إمام المسجد إلى السرايا، والناس إلى السلاملك، هي الأجدى. كان يعرف أن بيده أوراقًا يمكنه استخدامها في الوقت المناسب، فوحده الذي بوسعه أن يستدعي ضباطًا وعساكر من الشرطة لحماية خياره، إن وقع نزاع.

انتبه إلى أنه لم يفاتح «محمود» بما سيفعله، فأرسل إليه أحد الخفراء ليحضره، لكنه لم يكن في هذا الوقت موجودًا في بيته. كان يجلس إلى «رشدان» يسمع منه عن الخير الذي ينتظره إن انضم إليه في الطريق الذي رسم «قطاوي» لهم معالمه، فلما انتهى من عرض الأمر، هز «محمود» رأسه، وقال: أنا شريككم منذ اليوم.

(47)

حشر الخصوم في زاوية ليتساوى عندهم الموت والحياة ليس من السياسة في شيء. يعرف الجنود أن حصار جيش دون ترك فرصة له للهروب خطر. يعرف الطباخ أن تنفيس الآنية يحميها من الانفجار. يعرف العامل أن تشحيم آلته يمنع خرابها. يعرف الفلاح أن

ترك الهالوك ينمو مستريحًا يفسد زرعه، ويعرف أيضًا أن الفيضان إن هجم دون أن يكون مستعدًا له خسر كل شيء.

(48)

أدرك «عمر» أن الأمر يتطلب أن يستميل بعض «الجوابر» إليه. يعرف هو جيدًا أن كثيرين منهم يكتمون غضبهم حيال استئثاره بأرض الوجيه بعد زواجه من ابنته، لكنهم آثروا الصمت، وإن كانت بعض الألسنة قد انفلتت بمكنون الصدور أيام «جعفر»، واستمرت على حالها.

واحد منهم كان قد أرسل في طلب يد «عبلة»، لكنها رفضته في حزم، وقالت لمرساله، وهي عجوز تسمى «رتيبة»، يحلو لها أن تسرد على مسامع الصغار أيام الأجداد: لا أريد من الرجال سوى ابني، وسأكتفي بتربيته. لكنهم رأوها قد غيرت رأيها، وتساءلوا حانقين: هل خلا الجوابر من رجال يصلحون لها، حتى تفضل عليهم الغريب؟

بدأ «عمر» بهذه العجوز، التي صارت قعيدة لا تبرح دارها. طرق بابها ذات مساء، فقام حفيدها وفتحه، ليجد العمدة في وجهه. ربت كتف الصغير، وألقى السلام بصوت جهوري، لينبه مَن في الدار، فسمعها تقول له: تفضل.

كانت العجوز تجلس فوق حصير في غرفة داخلية، يتخلل ضوء اللمبة الشحيح شعرها الأبيض، وأمامها صحن مملوء ببيض الدجاج، تنهمك في عده على مهل، كأنها تُسلي نفسها، وتمرر جزءًا من أوقاتها العصيبة. ما إن رأت العمدة، حتى امتلأ وجهها بالعجب، وفتحت فمها لترحب به فبانت أسنانها المُثرمة، دون أن يفلح الضوء في

تبديد سوادها. قبل أن تنطق قال هو: قيل لي إنك مريضة فجئت لزيارتك.

نظرت إليه، وقالت: لا تؤاخذني يا عمدة، لا أستطيع الوقوف للسلام عليك.

ابتسم، وقال لها وهو يجلس قبالتها: لا عليك، أنت أمنا جميعًا، وواجبنا أن نجيء إليكِ حيث تكونين.

سرى ارتياح في تجاعيد وجهها الضامر، وقالت: كلك واجب يا بني.

راق له أن تناديه بابنها، فقال لها: نحن نسايب، ولا فرق بيننا.

صمتت برهة، ثم سألته عن حال «عبلة»، فأجابها: تركتها فرحة بولدي الذي في بطنها.

ابتسمت، وقالت: مبروك. هي تستحق كل خير، وأنت أيضًا.

كان قد أوصى اثنتين من الخادمات بأن تتبعانه إلى بيت العجوز بهدية لها. وحين سمع الباب يطرق، وأدرك أنهما قد جاءتا بعده كما أوصاهما، قال للعجوز: لم أرد أن آتيك ويدي فارغة.

دخلت الخادمتان، على رأس إحداهما قفص يتزاحم داخله دجاج وذكر بط ووزة، وفي يديها صفيحة من الجبن. أما الثانية فتحمل على رأسها شوالًا مملوءًا بأكياس من الأرز والفول والعدس، وفي يدها زراوية من الفخار مملوءة بسمن الجاموس.

تطلعت «رتيبة» إلى ما وضعته الخادمتان على مقربة منها، وقالت:

هذا كثير يا عمدة.

ربت كتفها، وقال لها في امتنان: لا شيء يكثر عليكِ يا حاجة.

أشار إلى الخادمتين أن تنصرفا، ثم قال: أعرف أنكِ مسموعة الكلمة بين إخوتنا من «الجوابر».

ضحكت بصوت رفيع متقطع يشبه ثغاء عنزة مجروحة، وقالت: السن لها أحكامها.

ابتسم، وقال: أطال الله لنا في عمرك.

ودس يده في جيبه وأخرج حُقًّا مملوءًا بالزيت، ومده إليها، وقال: أوصيت العطار أن يُعدّه لكِ خصيصًا، ليساعدك على تخفيف آلام المفاصل.

مدت يدها لتأخذه منه، لكنه أبقاه في يده، وقال لها: اسمحي لي أن أدلك ساقيك، على الأقل لتعرفي كيف تستخدمينه حسبما أوصاني العطار.

اكتسى وجهها بخجل، وقالت: لا يصح يا عمدة.

لكنه لم يضع وقتًا، ومد يده إلى جلبابها، لينحسر عن ساقيها، وهو يقول: أنتِ ناديتيني بابنك، ولا خجل من أن يدلك الابن ساقي أمه.

استسلمت لأصابعه التي راحت تسحب الزيت خفيفًا فوق قدميها وساقيها حتى الركبتين، وقالت: يفعل الكبير ما يليق به دومًا.

شعر بأنه يقترب مما يريده، فقال لها: وكذلك تفعل الكبيرة ما يجب عليها.

تطلعت إليه، وكان ناظراه ذاهبين إلى ساقيها، وقالت: ما تطلبه مُجاب يا عمدة.

ابتسم، وقال: لا أطلب إلا ما فيه الخير لقريتنا.

هزت رأسها، وقالت: لم يفعل أجدادك الطيبون إلا هذا.

انفتح الباب أمامه على مصراعيه، فقال على الفور: تغلّب أجدادنا على الضغائن بترك كل ما لا يؤلف القلوب، ولا يجعل العقول تفكر في كل نافع.

كانت تظن أنه قد قصدها لتصلح ما بينه وبين «هنيّة» وأخيها «رشدان»، وكانت قد وصلها مبكرًا ما يعتزمان الإقدام عليه، ليكبر شأن «رشدان»، فكل أخبار العائلة تسقط في حجرها وهي جالسة في مكانها تروض الوقت. كان الخبر قد وصله أيضًا، لكن حساباته قدّرت أن ترك زراعة الأرض إلى غيرها مشروع محكوم عليه بالفشل، وسبق له أن رفضه حين عرضه عليه «قطاوي»، بل فرح لهذه الخطوة، وقال لشيخ الخفر، وهما يتضاحكان في السلاملك: عليّ من الآن أن أستعد لشراء أرض «هنيّة» وأخيها، حين يعجزان عن سداد خسارة مشروعهما الجديد.

لم تُقدّر «رتيبة» أن الجالس أمامها يدلك ساقيها النحيلتين، لا يفكر في استرجاع زوجته، ولا في مشاركتها المغامرة التي تقدم عليها، وتأكدت من هذا حين قال لها: طلقت «هنيّة» إلى غير رجعة، لكن ابنها ابني، ولا يجب أن يفتح هذا باب الضغينة من جديد.

فطنت إلى بعض ما يريد، وانهمرت الحكايات القديمة في رأسها.

تجمعت في بؤرة واحدة، ضاقت حتى صارت نقطة سوداء، قد لا يبددها حدب «عمر» وابتساماته التي لا تفارق وجهه وهو يجلس قبالة العجوز، ولا نور اللمبة، الذي اشتد حين أدارت اللاكور بيدها فور قدومه، لتمدد عويلها الغارق في الجاز.

قالت له: تصفية ما في النفوس ضرورة، كي لا يصبح العيش منكودًا.

أدرك أن حكمة السنين قد أهدتها إلى سبب زيارته، فقال: في الحكايات القديمة ما يفتح الجراح التي شُفيت، وفيها ما يساعد على غلقها إلى الأبد.

هزت رأسها، ولاذت بالصمت، فواصل: أعرف أن أهلنا من «الجوابر» يستمعون إليك، يسألونك عما مضى ويجدون عندك الإجابات حاضرة.

- لا أجيبهم إلا بما سمعته من السالفين، ولا أزيد عليه.

- لم يكن الماضي شرًا خالصًا.

- هو كذلك.

قال وهو يفرك يديه بعد أن فرغ من تدليك ساقيها: لا أطلب منك إلا التركيز على الحكايات التي تصفي النفوس من الأحقاد، وتصلح ذات البين.

تنهدت، وقالت: في هذا حكايات كثيرة، لا أستطيع نسيانها، ولا إنكارها.

قال وهو ينهض للانصراف: أعرف أنكِ إن وعدتِ التزمتِ، وأخبار ما تقولينه ستأتيني، ولتكن زيارتي هذه عربون صفحة جديدة بيننا.

مد يده ليصافحها، فمدت يدها المعروقة، فلما تقابلت اليدان، قال لها: أنتِ أم الكل، ولا تفعل الأمهات إلا ما ينفع أولادهن وأحفادهن.

(49)

في صباح يوم الجمعة، وبينما كان إمام المسجد، يردد صامتًا ما عليه أن يقوله في هدوء، قالت «عبلة» باسمة: ستصبح أبًا للمرة الثانية يا عمدة.

تدفق السرور إلى عينيه، وقال لها: هل تأكدتِ من حملك؟

أجابته بصوت متناوم: نعم.

شعر بأن الله قد أرسل له هذا الرباط الوثيق في الوقت المناسب، فقال: أريد بنتًا جميلة كأمها.

ضحكت وقالت: هو ولد. نبت القمح ولم ينبت الشعير.

اقترب منها، وأخذها في حضنه، وسألها: هل فكرتِ في اسم المولود؟

هزت رأسها، وقالت: سلو عائلتنا أن الرجل يسمي ابنه، والمرأة تسمي ابنتها.

كاد يصرخ احتفاءً بهذا السلو الذي فتح له بابًا من حيث لا يحتسب، لكنه كتم صرخته، وقال: سأسميه «صابر».

ثم سكت ليعرف رد فعلها، فلم تنطق. فقال في نفسه: السكوت

علامة الرضا. ونادى الخادمات فجئن مسرعات، ووقفن أمامه منتظرات أوامره، فقال لهن: من اليوم، لا تتعبن الست في شيء، وإن طلبت لبن العصفور تأتين به.

(50)

ركب «عمر» الدوكار، يسوقه الحوذي، وأمامه الأمشجية يوسعون له الطريق إلى البندر. كان يقصد المديرية ليعس على خبر السكة الحديدية. عرف من الموظفين أن الأمر سيستغرق شهورًا، وربما يصل إلى سنة كاملة. كان هذا وقتًا كافيًا ليهيئ أهل القرية لما يريد.

في طريق عودته، وبينما كان الدوكار يجري فوق الجسر، رأى مركبًا راسيًا ينزل منه «ناجي» مرتديًا جُبّة الأزهر وقفطانه وعمامته. أوقف الدوكار، وانتظره. حين اقترب منه وجده قد صار نسخة من أبيه، في بسطة الجسم، وملامح الوجه، حتى الخطوة والالتفاتة. وحين استجاب لندائه وهو يصعد إلى الجسر، تأكد «عمر» من أن صوت الفتى أيضًا يشبه صوت أبيه.

أفسح له مكانًا إلى جانبه، ورفع اثنان من الأمشجية حقيبتين كانتا معه، لتوضعا إلى جانب الحوذي. أراد «عمر» أن يطيل انفراده بالفتى العائد، فقال له: لا بد أن المكان قد أوحشك.

هز رأسه، وقال: أكيد.

عندها قال «عمر» للحوذي: استدر لنقضي على الجسر بعض الوقت.

قهقه «ناجي»، وقال: أمي توحشني أكثر.

ابتسم «عمر»، وقال للحوذي: كما كنت، لكن على مهل، حتى لا تهيل حوافر الخيل التراب علينا.

والتفت إلى «ناجي»، وقال له، وهو ينظر في عينيه جيدًا: أنت فخر «الصوابر» يا مولانا.

وجده يبتسم في امتنان، ثم قال: أنت عِزُّنا يا عمدة.

تنحنح «عمر»، وقال: كان أبوك مخلصًا لوعد الأجداد.

هز «ناجي» رأسه، وقال: أتذكر بعض ما قاله.

ضغط العمدة بيده على كتف الفتى، وقال: يخلص الفرد منا لعصبه أكثر من غيرهم. لم يعقب «ناجي» فواصل العمدة ليفسر ما يقصده: العم قبل الخال.

قهقه «ناجي» وسأل: ألا يمكن أن نخلص للأعمام والأخوال معًا؟ صمت «عمر» برهة، وقال: لا بأس، لكن لكل منهم درجته.

لم يكن ما في رأس «ناجي» من علوم أزهرية يجعله يتقبل ما سمعه من العمدة بسهولة، لكنه لم يرد أن يغضبه. هز رأسه ناظرًا إلى الزراعات الممتدة حتى صفحة النهر، وقال: لا أحد له مقامك في نفسي يا عمي.

طالما كان «ناجي» ينادي «عمر» بالعم، لكن نُطقَها هذه المرة بدا له وقع آخر في أذني العمدة. تهلل، ومدّ ذراعه وأمسك كتفه، وضمّه إليه، وقال: نجاك الله من خُبث أخوالك.

قهقه «ناجي»، وقال: لا تظلمهم، فكثير منهم طيبون.

مصمص العمدة شفتيه، وأراد أن ينبش المخبوء في صدر الفتى، حتى يطمئن إليه تمامًا، فقال: لم أرَ أحدًا طيبًا فيهم إلا والدتك، وربما تكون هي قد حكت لك عن أخريات في عائلتها مثلها.

كان «ناجي» يُثبّت عينيه على حقيبته التي تهتز إلى جانب الحوذي، مبديًا خوفًا من أن تسقط على التراب، وفي الوقت نفسه ذهنه شارد فيما قاله له «عمر». كان بعيدًا عن القرية عدة شهور، ولم تصله أي أخبار منها. ظن أن خلافًا قد نشب بين العمدة و«الجوابر»، فانتقل شروده إلى ما يجب عليه أن يفعله ليصلح بين الطرفين، مستغلًا ما حصّله من معرفة دينية حول إصلاح ذات البين وصلة الرحم، تساعده على أداء مهمته.

أعاد بصره إلى العمدة، وسأله: هل ثار خلاف مع الجوابر أثناء غيابي؟

أجاب العمدة ضاحكًا: ربنا لا يأتي بخلاف، إنما أصارحك بهواجسي، فأنت كبرت، وصارت كتفك في كتفي، أنا وأنت وابني هم الذين تبقوا من «الصوابر» في بلد كان لهم، اسمه من اسم جدك، وكان أغلب أرضه في أيديهم، وصيتهم يطير إلى آذان الناس في الصعيد.

صمت «ناجي» برهة، ثم سأل: أين ذهب «الصوابر»؟

ابتسم «عمر» وقال: يبدو أنك لم تسمع من أبيك شيئًا عن هذا. لم ينطق «ناجي»، فواصل العمدة: تفرقوا في البلاد.

عاد «ناجي» إلى السؤال: ألم يفكر أحد من قبل في أن يجمع

شملهم؟

تنهد العمدة، وأجاب: الوعد الذي حمله لنا الأجداد هو أن نتجمع في بلدهم الأصلي. سنين طويلة، وأسرتنا مطاردة من بلد إلى آخر، فلما عدت إلى حيث كان الأجداد، فكرت في البحث عن أهلنا، لكن يبدو أنني سأبحث عن إبرة في كومة من قش.

سأله «ناجي»: هل تعتقد أن كل أهلنا يحفظون أنسابهم، كما نفعل نحن؟

أجابه على الفور: هذه فضيلة لا ينساها الجميع في بلادنا.

كان الدوكار قد وصل إلى السرايا، وبينما يستعدان للنزول، قال «ناجي»، وفي عينيه اطمئنان شديد: صار البحث عن الأهل سهلًا في زماننا.

سرى فرح في ملامح «عمر»، وسأله: كيف؟

أجابه، وهو يلوح لأمه التي كانت تنظر إليهما من الشرفة، وقال: أعرف الطريق كما أعرفك.

وبعد تناولهما العشاء، همس «عمر» في أذن «ناجي»: أريدك على انفراد.

كان لا يريد أن يُطلع زوجته على ما يفكر فيه، على الأقل قبل أن يعرف الطريقة التي أشار إليها ابنها. وقبل أن ينطق، قال له «ناجي»: لم نعد في حاجة إلى أن نجوب البلاد باحثين عن أهلنا.

نظر إليه العمدة مليًا، وسأله: دلني على الطريق وأنا جاهز.

ابتسم، وقال: ننشر إعلانًا في صحيفتي «الأهرام» و«المقطم» ندعو فيه كل مَن يقرأه من العائلة أن يأتي لزيارتنا هنا.

انطفأ وجه «عمر»، وقال متشككًا: لا أظن أن معلهم يقرأ الصحف.

قهقه «ناجي»، وقال: من المؤكد أن فيهم مَن أرسل أولاده إلى الكتاتيب والمدارس، وربما كان منهم زملاء في الأزهر، ولا أعرفهم.

حك «عمر» ذقنه بأطراف يُمناه، وقال: حتى لو كان الأمر كذلك، فهؤلاء قلة، وأنا أريد عزوة كبيرة.

طمأنه «ناجي»: مَن سيقرأ سيبلغ مَن لا يعرف القراءة، ولا بد أن بعضهم يعيشون جماعات في القرى البعيدة.

ثم عاد وسأل: المهم، أن تفكر في مناسبة.

ضحك «عمر» وقال: يبدو أن أمك لم تخبرك بأن لك أخًا في الطريق.

اتسعت حدقتا «ناجي»، وسرى في ملامحه فرح طفولي، وقال: مبروك يا عمي.

قال «عمر»: حين تضع ولدها سأقيم فرح طهور له، يحكي عنه الناس. وسأدعو أهلنا لمشاركتنا الأفراح.

ووجد «عمر» الفرصة مناسبة كي يخبر «ناجي» بما جدّ على القرية، فقال له: ألم تلاحظ شيئًا ونحن نسير فوق الجسر؟

طوح «ناجي» رأسه نافيًا، وقال: كل شيء على حاله تقريبًا.

قهقه «عمر»، وقال: هناك شيء سيغير كل شيء هنا. ريح قوية

ستهز حياتنا البليدة.

سأله في لهفة: شوقتني إلى ما تريد.

تنحنح، وقال: ستمتد إلينا السكة الحديدية، وستكون لقريتنا محطة.

انتفض «ناجي» واقفًا على قدميه من فرط الفرحة المباغتة، وقال: خبر عظيم، سيختصر القطار عليّ الطريق، وسيكون سفري سهلًا.

صمت «عمر» برهة، وسأله: لم تسألني من أين كنت راجعًا حين التقينا؟

رد «ناجي»: ربما كنت في البندر.

ابتسم «عمر»، وقال: يعجبني ذكاؤك. نعم كنت هناك أسأل عن موعد مد السكة الحديدية إلينا.

قال «ناجي»: أتمنى أن يكون هذا قريبًا.

ضحك «عمر»، وقال: لا تستعجل، فأنا أتمنى أن يأخذ الأمر وقتًا كافيًا حتى أكون قد رتبت لما أريد.

سأله وهو ينظر إليه في اهتمام: وماذا تريد يا عمدتنا؟

أجابه على الفور: أسعى لأن يوضع على اللافتة التي سينصبونها فوق محطة قريتنا اسم «الصابرية».

وجم «ناجي»، وفطن إلى كل ما دار بينه وبين العمدة منذ أن رآه، وحتى اللحظة التي يجلسان فيها يحتسيان الينسون والقرفة. رأى «عمر» الحيرة التي سكنت ملامح الفتى، فقال له: عليك أن تساعدني

من أجل تحقيق حلم الأجداد.

ضحك «ناجي»، وقال: لا شيء يتغير هنا، الكل يسعى خلف أوتاده.

انتاب «عمر» فتور طارئ، لكنه أراد أن ينفخ في أوصال الفتى، فقال له: كان هذا حلم أبيك.

رد «ناجي» وهو يطحن الحروف على مهل، فخرجت ممطوطة: أخشى أن يُغضب هذا «الجوابر»، وتبعث الأحقاد من القبور.

نفخ «عمر» في ضيق، وقال: لم تُدفن الأحقاد يومًا واحدًا. وأراد أن يكسب «ناجي» إلى جانبه، فقال: ليس بيني وبينهم شر، نيتي صافية، وأفعل دائمًا ما لا يجعل الأحقاد القديمة تفسد علينا حياتنا.

قهقه «ناجي»، وقال: يا عمدة، أمي، التي هي زوجتك منهم، وسيكون لك منها ابن، وابنك الذي يماثلني عمرًا ولد من رحم امرأة منهم.

وضع «عمر» يده على كتف «ناجي»، وقال: لا تخشَ شيئًا، أنا أفعل ما لا يجعل «الجوابر» يشعرون بأن هذا الأمر سيتم غصبًا عنهم.

وسأله «ناجي» بغتة: هل فاتحت أمي في الأمر؟

أجابه، وهو يدفع في صوته طمأنينة: سأخبرها طبعًا، ولديّ ثقة في أنها لن تمانع.

وقفز سؤال إلى ذهن «عمر»: هل أخبرتك أمك ذات يوم بشيء من الحكايات القديمة؟

ابتسم «ناجي»، وقال: هي لا ترى الأمر كما تراه يا عمي، وكما يراه

أهلها. إنها سيدة واسعة الصدر، وراجحة العقل، لم تزرع أبدًا في نفسي ما يدفعني إلى الكراهية.

(51)

كان «عمر» قد رتب ليوم الجمعة جيدًا. ففي ليلته جاء جزار وذبح ثلاثة عجول في مكان معزول خلف الحظيرة. وضعت الخادمات القيزانات على الكوانين لطهي اللحم والأرز وطبيخ الفاصوليا والبطاطس، والتهب الفرن لإعداد البتاو والزلوط. بعد الصلاة، وقف «عمر» أمام المسجد، وقال: كل مَن في المسجد معزوم على الغداء.

تبادل الناس النظرات. وسأله أحدهم: ما المناسبة يا عمدتنا؟

قهقه، وقال: وهل يجب أن تكون هناك مناسبة لنأكل سويًا؟

تأخر «رشدان» في الخروج، وكان يرمي خطيب الجمعة وهو يُحدث المصلين عن الصبر بطرف عين مملوءة بالهواجس، لا سيما حين راح يربط بين الصبر وبين اسم القرية القديم. رآه «عمر»، وكان يفرق بينهما ثلاثة رجال جالسين في الصف الأول، يلتفت خلفه، ويحط عينيه في عيني رجل آخر من «الجوابر».

انتظر «عمر» بين الرجال، حتى خرج «رشدان»، فناداه قائلًا: لا يحلو الطعام إلا بحضورك يا بن أختي.

وضايقه أن يناديه بهذا، وهو الذي يرسم على مهل خطوات طريقه كي يكون كبير القرية. كان مؤمنًا بأن «عمر» استفاد من خير «الجوابر»، أخذ الكثير ولم يعطهم شيئًا. وكانت أخته قد عبّأت نفسه غبنًا من خاله، فلم يستطع أن يكتم غضبه، بل قال في تحدٍّ: عشم

إبليس في الجنة.

كان قد أدرك من الخطبة بعض الترتيب الذي يدبره «عمر»، ويرى وجوده خصمًا من رغبته العارمة في أن يحافظ على وصية أبيه، الذي قال له قبل موته: أودع الدنيا والقرية كلها في عباءتنا، أنا والوجيه، فإياك أن تُفرِّط في هذه العباءة.

وكان يحلو له أن يخلو إلى «رتيبة» ليسألها عن حكايات الأجداد، التي كلما خمدت في نفسه ذكَّرته بها «هنيّة». كبرت الحكاية حتى صار مقتنعًا بأنه لا بد أن يكون في خصومة مع خاله، أو على الأقل يقف أمامه ليحول دون ابتلاعه القرية في عباءته.

ضايق رده «عمر»، فقال له في غيظ: يبدو أن أختي «رسمية» لم تُحسن تربيتك.

زام «الجوابر» في غضب، وقال واحد منهم: الدار دار أبونا والغرباء يطردونا.

تدخل «ناجي»، وقال وهو يمشي نحو «رشدان»: نحن أهل، والدليل أنا وأنت.

فرمقه «رشدان» في استخفاف، وقال: أنت ابن أبيك، وهو ليس منا.

كظم «ناجي» غضبه، وأكمل السير نحو «رشدان»، فظن «الجوابر» أنه سيشتبك معه، فتكاثروا عليه، ودفعه أحدهم، فسقطت العمامة عن رأسه. مال أحد الفلاحين والتقطها، وكانت قد تغبّرت من تراب الساحة العريضة أمام المسجد. نفضها ووضعها على رأسه، بينما

«ناجي» يقول: هذه خطيئة كبرى، وعقابها أليم.

انبرى واحد من «الجوابر»، وردّ في غضب شديد: تكلم على قدرك.

وصرخ فيه «عمر»: تأدب، فقدره لم يبلغه أحد منكم، ولن يبلغه.

وكان الشيخ «مقبول» قد فرغ من التسابيح الطويلة التي اعتاد أن يلهج بها لسانه عقب الصلاة، فخرج يتعثر في قفطانه. شق الجمع حتى وصل إلى «ناجي»، وقال له: حقك عليّ يا شيخ.

قهقه «رشدان»، وقال: خذ شيخك واذهب يا ضلالي.

كان «محمود» يراقب ما يجري صامتًا، فنظر إليه «عمر»، وقال له: خذ أنت نسيبك وامضِ، حتى لا يسمع ما لا يرضيه.

تزاحم فلاحون حول «ناجي» يربتون كتفه، ويسحبونه في لطف إلى الخلف. آخرون منهم التفوا حول «رشدان»، وسحبوه أيضًا في رفق. وقال «محمود»: كنا قبل دقائق متراصين في الصلاة، اقصروا الشر، وليقف كل شيء عند هذا الحد.

لم يشأ «عمر» أن ينسحب مهزومًا، وهو عمدة القرية، فألقى نظرة على وجوه «الجوابر» وكان محاطًا بالخفر وشيخهم، وقال: ستدفعون ثمن ما جرى.

استدار، فمشى الفلاحون خلفه إلى الوليمة التي وعدهم بها. أما فلاحو «الجوابر» فقد وقفوا في أماكنهم، ونظروا إلى «رشدان» ليرد، فقال للعمدة في تحدٍّ: أعلى ما في خيلك اركبه.

كان خبر ما جرى قد طار إلى سمع «عبلة»، فقالت لزوجها غاضبة:

ينتظر الناس من الكبار الحكمة.

ثم التفتت إلى ابنها، وقالت له: يسمو كبار العقول والنفوس عن الصغائر.

رد في حزن: أغضبني سقوط العمامة من فوق رأسي، وهي ما يجب أن تكون لها مهابة في نفس كل مَن يراها.

ابتسمت، وقالت لتهدئ من خاطره: لا مؤاخذة على الجهلاء.

وباغتها «عمر» بسؤال، لم تتوقعه: انفتح باب الغضب، وعرف كل إنسان موضعه، فإلى أي فريق تميلين؟

اكتسى وجهها بالغضب، ونظرت إلى «ناجي»، وقالت: لا يوجد لأحد مكانة في نفسي أعلى من ابني.

ارتاح لقولها، ثم رماها بسؤال آخر: وأنا؟

بان في عينيها خجل، وأعادت النظر إلى «ناجي»، وقالت: أنت تعرف الإجابة.

ساد صمت، قطعته هي قائلة: أنت عمدة البلد، وينتظر منك كل أهل القرية العدل والحماية.

لم يكن معنيًا في هذه اللحظة بالعدل، ولا يفكر إلا في حماية نفسه وابنها. يضنيه أنه بلا عزوة، بعد أن اقتلعت نوائب الأيام أهله من القرية، ويقول لنفسه كلما اختلى بها: «الكثرة تغلب الشجاعة». ثم يفيق على الباب الذي فتحه «ناجي» أمامه، حين دله على طريق جمع شتات عائلته المبعثرة في البلاد.

(52)

يفتح التفكير في الشر الأذهان على غريزة التوحش التي سكنت الإنسان منذ زمن الغابة. تستطيل الأسنان والأنياب. تتسع الضروس الطاحنة. تتحول الأظافر إلى أظلاف ومخالب. تصبح العيون مفتوحة من الحواجب حتى الخدود، ترقب الفرائس.

وإذا كانت الحيوانات الضارية تعرض عن الصيد إن شبعت، لا يشبع الإنسان أبدًا من السعي وراء القوة: المال والجاه، والعضلات المفتولة. البنادق المحشوة بالرصاص، وقبلها السيوف والرماح والحراب والسهام والسكاكين والخناجر والشوم. الأسنان التي تعض، والأظافر التي تخمش. اللكمات والصفعات والركلات والنطحات. الألسنة المسكونة بالعبارات البذيئة. العيون المملوءة بالوعيد.

تستيقظ الأحقاد الخامدة تحت أطمار من الغفلة والتلهي والتجاوز ومحاولة النسيان، بعد أن تدق الأسافين، لتجرف أمامها كل ادعاءات التسامي والتسامح. وفي أيام الخلاف العارم، يجد مثيرو الفتنة لهم دورًا كبيرًا.

انتقل هؤلاء بين السلاملك الجديد، والسلاملك القديم، يجدون طعامًا وشرابًا، ويقبضون أثمان الأخبار التي حملوها بين الطرفين، ويزيدون عليها من عندهم الكثير، وكأنهم يرمون حزم الحطب الناشف على جمر أتعبه طول الانتظار، وكلما أراد أن يخمد، اشتعل من جديد.

هكذا مرت الشهور بين «عمر» و«رشدان»، انتعشت فيها الحكايات القديمة والنميمة، فاتسعت الهوة، وقُطعت الجسور، ورفع كل طرف

الشعار البغيض الذي طالما أهلك النسل والحرث: إما أنا أو هو.

لم تخلُ هذه الشهور من فرح. ولدت «عبلة» طفلها الثاني «صابر»، ورقص العمدة أمام الرضيع محتفيًا بقدوم رجل جديد إلى «الصوابر». وضع «رشدان» أثاثات عصارة القصب والزيت. حصل «ناجي» على العالمية من الأزهر. أرسل اثنان من رجال القرية أبناءهما إلى القاهرة للالتحاق بالأزهر. تخرج أول شاب من القرية في مدرسة المعلمين وصار معلمًا في مدرستها. عاد القسّاحون يضبطون حدود الشريط الذي سيجري فيه القطار.

في الشهور نفسها ولدت الأحزان. مات ثلاثة صبية غرقًا في النيل، وماتت «رتيبة» آخذة حكاياتها معها، وحزن عليها «الجوابر» كما لم يحزنوا على أحد من قبل. ولم يكن حزن «عمر» أقل، فقد ماتت «رتيبة» وكان مَن حولها حين يرونها يظنون أنها ستعيش مئة عام. في شهورها الأخيرة ذبلت، وزحف إلي جلدها سواد غريب، وانفتحت في شراييينها بحور الألم، حتى طلب الجميع من الله أن يرحمها من العذاب، واستراحوا بفيضان روحها.

ومات شيخ الزاوية، بعد أن أوصى أن تُدفن فأسه معه، تاركًا وِرده لمَن يأتي بعده، بعد أن قرأه آلاف المرات، في نور الشمس الساطع، وعلى ضوء اللمبة الواهن، ومن ذاكرته قبل أن يخلد إلى النوم.

في النزع الأخير كان معه «عمر»، يحاول أن يخفف الحُمّى التي أطلقت الجمر في دمه. كان يرتجف، يرغي ويزبد، وتجري على لسانه أقوال عجيبة. فتح عينيه إلى «عمر»، وأطال النظر، ثم قال له: تأتي الهموم على قدر العزم.

اعتقد أن الرجل يحدثه عما يكابده في هذه الأيام، بعد أن اشتد خلافه مع «الجوابر» إلى أعلى مراتبه، لكنه فاجأه قائلًا وهو يلتقط الحروف من يد الرحيل الأبدي: اصبر على ما ستبتلى به، فهو جديد عليك.

دس خرقة في طست الماء، وعصرها، ومررها على جبين المجذوب، وقال: لا جديد يأتي، فقد جربت كل أصناف الابتلاء.

تنهد المجذوب، وقال: لا يعلو على ابتلاء المرء في أحبائه.

كاد «عمر» يقهقه، لكنه كتم الضحك خجلًا من مهابة الموقف، وقال: ليس هناك أقسى من أن يعطيك الذي جاء من صلبك ظهره.

رفت ابتسامة على شفتي المجذوب، وقال: أعطني الوِرد.

مد عمر يده إلى كتيب صغير ملقى إلى جانبه على الحصير، ورفعه إلى المجذوب، فتلقفه بيمينه، وقال: يبقى هذا هنا حتى تتسلمه صاحبته، التي ستأتي من بعدي.

تعجب «عمر» مما سمعه، وسأله: هل تسكن المكان امرأة؟

حرك الرجل جفنيه، وقال: ليست أي امرأة، فإن عزمت على المجيء خلِّ بينها وبين ما تريد.

صمت «عمر» برهة، ثم قال: منذ متى كان هناك أوصياء على مَن انجذب.

أمسك المجذوب بيد «عمر»، وقال له: عاهدني على ألا يضنيك هذا، فالله وحده أعلم بأحوال خلقه.

هز رأسه، وقال: أعاهدك يا مولانا.

ظهر امتنان في عيني الرجل، ثم قال: عاهدني على ألا يبكيني أحد، وأن يحضر جنازتي أهل القرية، بمَن فيهم خصومك، ويحضرها النصارى واليهود، ولا تقم لي عزاء.

هز رأسه موافقًا، فقال الرجل: بعد موتي، أرسل مَن ينظف الزاوية، ويسقي شجرها والرياحين، ويعطرها بالمسك، حتى تليق بمَن تسكنها بعدي.

وواصل هز رأسه، ثم فاجأه المجذوب بأمر غريب. أمسك يده، وقال: إن جاءتك التي استأمنتك فلا تخنها من جديد.

نظر إليه، وقال: لا تحدثني عن امرأة لم تطق العيش معي.

كان يقصد «هنيّة»، لكن المجذوب قال له: في حياة كل إنسان سر مطمور، أو سر انكشف لأهله فطمروه، ولفه النسيان.

صمت «عمر» برهة، وقال: حياتي كتاب مفتوح، وهذا أحد عيوبي.

رفت على شفتي المجذوب ابتسامة ساخرة، وقال: بذرة غرستها في أرض ليست لك، فأنبتت ما هو لك، وبين الحرام والحلال مساحة واسعة من العفو.

بدا ما يسمعه غاية في الإبهام، فهز رأسه في عنف لعله يهديه ما يقربه من الفهم، لكنه عجز عن إدراك شيء. عصر الخرقة المبتلة، ودفعها إلى جبين المجذوب، وقال له: كأنك تلقي الوصية الأخيرة.

ابتسم، وقال: تنكشف الحُجب للراحلين بلا عودة.

انتبه «عمر» إلى ما سمع، وأراد أن يخرج من دائرة الألغاز، فسأل مباشرة: هل تعرف شيئًا أخفيه؟

شرد المجذوب قليلًا، وقال: إن أتتك التي وهبتك جسدها فصدقها.

ثم تمتم المجذوب بكلمات لم يسمعها الجالس عنده، وانبلجت عيناه لا تريان شيئًا ولا أحدًا في هذه الدنيا. مد «عمر» أطراف أصابعه، وأغلق عيني مَن لن يحدثه مرة أخرى، وسحب الشال من فوق كتفيه، وغطى به وجهه، ثم رفع كفيه إلى السماء، يقرأ الفاتحة على روح الطيب الذي غاب.

في أواخر هذه الشهور، انحسر ماء النهر، فبارت زراعات كثيرة، وشح الرزق. تعطل الفلاحون فجلسوا فوق المصاطب ببطون شبه خاوية، وآذان مفتوحة على الحكايات. استرجع الرجال في جلساتهم شيئًا من سيرة بني هلال، ورددوا وعيونهم مغمضة من فرط التأثر:

سبع سنين يا نجد

لا هبهب البحر

ولا سلسل المطر

ولا ريح طاير

لكن القوّالين استعادوا سيرة أخرى، مستسلمين لهجوم الماضي البعيد. انتعش وجدانهم مع غلبة الأحزان. عصروا قلوبهم، فداعبت وتر الرباب، لينطلق العزف مجروحًا، على قدر الإحن والخوف والوعيد، وجادت القرائح بالمواويل:

جريح وطبه غايب

والغضب سايل بحور

والعقل يجري هرايب

من جدع دمه يفور